



لا رق في القرآن

تأليف
إبراهيم هاشم الفلالي



كتب قومية

لا رِقَّ في القرآن

تأليف
إبراهيم هاشم الفلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله مانح الحياة والحرية لآدم وبنيه ،
وأصلي وأسلم على من بعث لتحرير الإنسانية
من الرق الذي كانت وما زالت ترسف فيه ،
منقذ البشرية وهاديها محمد بن عبد الله
وعلى آله وأصحابه وتابعيه .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » •

« واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله ، والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » •

« فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا » •

« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » • (صدق الله العظيم) •

الكلمة الاولى

إسجدوا لآدم

بهذه التحيه وهذا التمجيد حيا الله آدم حينما فرغ من خلقه اذ قال لملائكته « اسجدوا لآدم » .

ومن لم يمجد آدم لم يطع الله ، ومن لم يطع الله يطرد من ملكوت السماء ، وتحل عليه اللعنة الى الابد .

وذلك ما وقع للشيطان .

وما الشيطان ؟؟

انه الكراهية للعلم .

انه الحقد .

انه الحسد .

انه العجب .

انه التعالى .

انه الاستهتار بالقيم .

انه الجحود بالحقوق الممنوحة .

انه الجهل بالكائنات وأسرارها .

انه الكفر بالانسانيه .

انه الأنانية .

انه التمرد على الله .

وان من يكفر بالانسانية ، يكفر بخالقها ، ومن يتمرد على الله يتمرد على من استخلفه الله على أرضه .

ومن خليفة الله فى الارض ؟

انه الانسان .. آدم .

ألم يقل الله لملائكته قبل خلقه «انى جاعل فى الارض خليفة»

ثم خلقه فى أحسن تقويم ، وعلمه بالقلم ، علمه ما لم يعلم ، وعلمه الاسماء كلها ، وكرمه ، وفضله على كثير ممن خلق .

تلك هى نظرة القرآن للانسان ، وذلك وضع الانسان فيه .

أفيتفق – مع هذا الوضع الكريم ، وتلك النظرة العالية – أن يكون تشريع القرآن مناقضا لذلك ؟

ان القرآن الذى يرتفع بالانسان ارتفاعا يتعدى الملائكة ويدنيه من الخالق لا يمكن أن يشرع له تشريعا يهبط به الى حضيض الاسترقاق ، ويهدر هذه الآدمية الممجدة .

وكيف يحقق الانسان استخلاف الله له على أرضه اذا أثقلت أفكاره القيود ، وأطرافه السلاسل والاغلال ، وأدمى أديمه لفح السياط وعصرت أمعاءه أكف الجوع والحرمان ؟ .

ان القرآن الكريم وحدة متناسقة ، فليس فى تشريعاته تناكر مع مبادئه وأولياته .

ولكن الرجال تتناقض أفكارهم ويضرب بعضها وجوه بعض لهوى أو لسوء فهم .

ليس فى القرآن الكريم نص يبيح استرقاق الناس بعضهم بعضا .

وليس فيه نص يحد من حرية الناس ، أو نشاطهم ، أو تعطيل ملكاتهم ، أو الحجر عليهم فيما يضطربون فيه ؛ وليس فيه غير التهذيب ، والتنظيم لما أودع الله فى الانسان من قوى وخصائص وملكات وما فى الارض من أرزاق وخيرات . لئلا تعبث الفوضى بالنعم الكثيرة التى منحهم اياها .

***

ان القرآن الثورة الكبرى ، والتنظيم الرشيد الخالد لتخليص

الانسانية من كل ما أزرى بها ومن كل من طغى عليها · ولنبذ كل من تمرد على الله وشوه حياة الانسانية بأسفافه ، وحماقته ، واجرامه ·

* * *

ان القرآن الذى نزل من خالق الانسان متهم بما هو منه براء ·

وعلى المسلمين ، أن يردوا هذا الاتهام · وينشروا صحائف القرآن المشرقة لا بالأقوال ولكن بالتطبيق العملي لتشريف السميع الحكيم · فان ذلك هو الدفاع الصادق عن القرآن ·

* * *

ان فى هذا الكتاب محاولة للتذكير ، بما فى القرآن من نظم سهلة التطبيق ، فيما يشغل أذهان الناس فيما يختص بمعاشهم ؛ ووجدانهم ، وأفكارهم · مما جرنى اليه البحث الذى من أجله كان تأليف هذا الكتاب، وفيه دفع لبعض التهم التي يتشدق بها الجاهلون بالقرآن والحاقدون عليه ويلصقونها بالقرآن جاءت فى تضاعيف الدراسة والبحث · كما ان فيه تنزيها للقرآن عما يرتكبه من يحملون شعارات الكتاب والسنة وما هم منهما على شى ·

فلعل ذلك يكون مثيرا ، وحافزا على اعادة النظر الى ما تحفل به آيات القرآن من نظم لا تدانيها النظم الوضعية احكاما وتسديدا · ان ما نراه سائدا فى بعض بلاد الاسلام ليس من الاسلام فى شيء · فحاشا لنظم القرآن ، أن تكون متخلفة عن ركب الانسانية · فان القرآن ما كان خاتمة الاديان لولا أن موحيه يعلم أنه تشريع لا يضيق بزمان ولا بمكان ، ولا بانسان أينما كان · وهو لا يقر الجمود والرجعية ولا يرضى البغى والعدوان ، وينكر استرقاق الانسان لاخيه الانسان ·

وان من يحاول الوقوف أمام الروح التى نفخها الله فى آدم تحطمه روح الله · وقد استطاع الانسان أن يرغم الكائنات على السجود بين يديه كما سجدت الملائكة بين يدى أبيه من قبل ·

وذلك ما يريده خالق الانسان ومانح الحياة الله ، وجل جلال الله ·

تمهيد

من يزعم أن القرآن الكريم شرع الرق أو ضربه على فئة من الناس ، أو على جنس من الاجناس اما أن يكون جاهلا بالقرآن وتشريعاته ، واما أن يكون سيىء الفهم مكابرا . لانه لا يستطيع ـ مهما جهد ـ أن يأتى بآية من القرآن تؤيد زعمه ، واما أن يكون مغرضا يهدف الى طمس الحق وتضليل الناس . فآيات القرآن الخاصة بالرقيق انما جاءت لتحريره ، والقضاء على نظام الرق الذى كان سائدا فى العالم قضاء مبرما . كما سنبين ذلك فى حينه .

والمتدبر لآياته وتشريعاته يرى ـ بوضوح ـ أن القرآن لم ينظر لمشكلة الرقيق على أنها مشكلة قائمة بذاتها منفصلة عن غيرها من المشاكل ، بل نظر اليها على أنها مشكلة تضافرت عليها عوامل كثيرة حتى أوجدتها . فهى وليدة عديد من المشاكل التى لولا وجودها ما وجدت مشكلة الرقيق .

لذلك تتبع القرآن المشاكل التى تسببت فى وجود نظام الاسترقاق . ووضع الحلول الحاسمة التى تقضى على هذا النظام القديم المتوارث من آلاف السنين . وتقتلع جذوره الضاربة فى أعماق المجتمعات الانسانية من الاساس .

والقرآن لم يتنزل الا لتخليص الانسانية من شرورها وهدايتها الى ما فيه خيرها وصلاحها واستقامة أمورها . لتعيش مشرقة الوجه سليمة من البثور والكدمات التى تشوهها .

واذا أبت الانسانية ـ منذ نزول القرآن الى الآن ـ الا أن تعيش مشوهة موبوءة فليس ذلك من عمل القرآن ، وانما هو من عمل المنحرفين عن هدى القرآن .

فليس من حق أى انسان أن يقول فى اجتراء وقح « ان القرآن قد استنفد أغراضه ولم تعد تشريعاته صالحة للقرن العشرين » .

والقرآن يتحدى بآياته البينات ، وتشريعاته المحكمة كل النظم والتشريعات الحديثة ... ويثبت للباحثين ـ باخلاص عن الحقيقة ـ أنه اصلح منها مجتمعة لكل زمان ومكان ... وجميع ما نراه من محاسن النظم الحديثة لم تشرق محاسنها على الناس الا بعد نزول القرآن وانتشار أضوائه فى المشرق والمغرب .

أما قبل القرآن فلم يكن فى العالم الا ظلمات دامسة يغشى بعضها بعضا ـ الا ما كان من ومض النبوءات التى كانت تومض بين الحين والحين ـ ولم تعن فلسفة من الفلسفات المجتمعة بتربية الضمير ، لا فى الفرد ، ولا فى الجماعة ، ولم يعنها قط بعث الرحمة والتعاطف والايثار فى القلوب . ولذلك كانت القوانين مجحفة جائرة بالضعفاء الذين لا حول لهم ولا طول . ولما كان سائدا من التمايز العنصرى ، والطبقى ، والدينى ، الذى تسير القوانين على هديه . فأعطت الاقوياء كل شىء ، ومنعت الضعفاء من كل شىء .

أما اذا كان بعض المجتمعات الاسلامية ما زال يرسف فى الاغلال الثقيلة أغلال الجهل والفقر والمرض وغير ذلك . واذا كان بعض المجتمعات المسلمة ـ ما زال حتى الا ن ـ يفتح أسواقه للقراصنة واللصوص والخطافين والنخاسين وسماسرة الرقيق الابيض والاسود لمزاولة تجارتهم تحت حماية السلطان فمن الخطأ الفاضح أن يكون ذلك حجة على القرآن. واذا كان فى تلك المجتمعات المسلمة من يرى أن القرآن يبيح ذلك فانما هم يكذبون على القرآن ، ويفتئتون على الرحمن « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لايهدى القوم الظالمين » . وهؤلاء هم الثغرة التى يتسلل منها أعداء القرآن لوصمة بالقسوة والهمجية واذلال الانسانية .

ان أعداء القرآن حينما يصمون القرآن يسوقون أعمال أولئك الذين يحملون شعارات القرآن وهم منحرفون عنه، تأييدا لافتراءاتهم عليه . والقرآن برىء منهم ومما يعملون . ولا بد لدحض حجج المفترين على القرآن . ولبيان ان القرآن لم يشرع الرق بل شرع تحرير الرقيق من سرد موجز لتاريخ الرق فى العالم، وسرد الاوضاع المختلفة التى كانت قائمة ، والفلسفات والنظريات التى كانت سائدة .

ثم سرد لآيات القرآن التى جابهت كل ذلك وتركته انقاضا وركاما . وأقامت بدله نظريات جديدة ليقوم عليها بناء سليم منزه من كل ما أصاب الانسانية من بلاء وشقاء فى عصورها الغابرة .

ولعل الذى أوقع المجتمعات الاسلامية فيما هى فيه من اختلال بنائها وتصدعه هو أنها لم تنظر الى القرآن كلا لا يتجزأ . بل نظرت اليه أجزاء متفرقة ، واتبعت فى ذلك سنن بنى اسرائيل الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا بالبعض الآخر . فأوقعها ذلك فى اضطراب الفكر وسوء الفهم ، وانحرفت نتيجة لذلك فى مسلكها حتى ابتعدت عن طريق الجادة . ان كل نظام يقوم فى أى مجتمع لا مناص من أن تحيط كلياته وجزئياته التشريعية بالمجتمع كما تحيط الحلقة بالاصبع .

وما دام من المسلم به ــ بداهة ــ أنه لا توجدمشكلة مجتمعية قائمة بذاتها مستقلة عما سواها ، وأن جميع المشاكل مترابطة ببعض متوالدة عن بعض . فمن المحتم أيضا أن أى نظام يقوم لحلها لا بد أن تكون تشريعاته متضافرة يدعم بعضها بعضا فى المعنى والروح . لتكون الحلول منتجة فعالة ذات أثر عميق فى اقتلاع المشاكل من جذورها . فكذلك آيات القرآن متضافرة يسند بعضها بعضا ويدعم أولاها أخراها . لانه نظام كامل للحياة الانسانية ، انتظمت تشريعاته جميع شئوننا ومشاكلنا . فعلينا أن نستشف روحه ومقاصده ، من هذا الترابط المعنوى بين الآيات .

وهذا ما أحاول بيانه فى هذا البحث . فاعلى أوفق فى ذلك . وانى أستمد العون من منزل القرآن وممن نزل عليه القرآن . صاحب القبر الاعطر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، كما أستمد العون من صحابته الاكرمين ، وأئمة المسلمين الذين فهموا القرآن كما أنزل .

تاريخ الاسترقاق

عرفت البشرية منذ القدم الرق ، وليس لدينا مرجع يخبرنا عن أول مجتمع ضرب الرق على فرد أو فئة من الناس .

ولكن وجد فى آثار عصور ما قبل التاريخ ما يدل على وجود الرق بصورة ما فى تلك المجتمعات البدائيه .

ومن المؤكد أن الحرية هى الاصل فى حياة الانسان ، ومن البديهى أن الرق لم يوجد الا من تسلط قوى على ضعيف ، وقادر على عاجز ، وحاكم على محكوم ، وكلما تطورت حياة البشر تطورت مستلزماتها . وتطورت تبعا لذلك أسباب الضعف فى جانب ، وأسباب القوة فى جانب آخر . وتتعدد روافد الرق ومنابعه وهى لا تتفجر الا فى البيئات الضعيفة . ولا يستفيد من تفجرها الا الاقوياء .

وقد عرفت الامم القديمة فى حضارتها أنواعا من الرق . فكان لديها الرق الفردى ، والرق الجماعى ، والرق الاقطاعى . والرق الطبقى . والرق الكهنوتى .

أما أسباب تفجر منابع الرق فى الحضارات القديمة فهى تنحصر فى فساد النظم الاقتصادية التى كانت قائمة ، وانغماس الناس فى الترف والموبقات . وفساد العقائد والفلسفات التى كانت سائدة . وشن الحروب العدوانية بين المجتمعات البشرية ، واعتبار السرقة والقرصنه والخطف من ضمن الحرف التى يحميها السلطان وتنظمها الشرائع والقوانين . كما يتبين لنا ذلك مما سنسرده الآن .

الرق عند الاغريق :

فالامة الاغريقية التى أنجبت سقراط ، وافلاطون ، وارسطو ، وصولون ، وغيرهم ممن تركوا أثرا فكريا ضخما فى حياة الاجيال

البشرية كانت لا تتصور الحياة بغير رقيق ولو كان ذلك التصور فكريا محضا لا يتعدى الى واقع الحياة ٠

فهذا أرسطو يوجب وجود الرق ، ويزعم أن التكوين الخلقى لبعض البشر لا يرقى بهم الى مرتبة السادة لانهم فقدوا التمييز والفهم فيجب أن يكونوا رقيقا ٠ فهو يقول : « لا يزال فى العالم اناس مخلوقون للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة ، وحكمهم فى ذلك حكم الآلات الحية التى تساق للعمل ، ولا تدرى ما تساق اليه » ثم تدركه الرحمة فيقول : « ان للسيد الحق فى تشجيع هذه الآلات حتى تخرج من منزلة الآلة المسخرة الى منزلة الآلة المتصرفة كلما بدت فيها بوادر الفهم والتمييز » وأرسطو حينما يتحدث عن هؤلاء المخلوقين للطاعة والخضوع كأنما هو يتحدث عن منجم يمد الاغريق بهذه الآلات الحية لا عن أناس لهم ما له من الاحاسيس والمشاعر والافكار ٠

ولا تدرى لو عاش أرسطو الى الزمن الذى أغار فيه الرومان على بلاده واسترقوا بنى جنسه ، وفيهم كثيرون من أمثاله ، أكان يثبت على فلسفته أو كان ينقض آراءه ، ويعرف أن من كان يتحدث عنهم ليسوا آلات وانما هم بشر مثله ؟؟

أما أفلاطون ، فان جمهوريته لا يقوم بناؤها ان لم يكن فيها رقيق يقوم بالاعمال الشاقة ولذلك يعمد أولا الى خرافة يروجها فى شعب جمهوريته ، فيقول لهم : « كلكم اخوان فى الوطنية ولكن الاله الذى جبلكم وضع فى طينة بعضكم ذهبا ليمكنهم من أن يكونوا حكاما فهؤلاء هم الاكثر احتراما ، ووضع فى جبلة المساعدين فضة، وفى العبيد لان يكونوا زراعا وعمالا ، وضع نحاسا وحديدا » ٠

وبعد أن يفرض بخرافته هذه نظام الطبقات على الناس ، لا يحبذ النظام الديموقراطى فى الحكم لانه يخشى أن يتطاول العبيد على حرية أسيادهم فهو يقول : « وأقصى ما يبلغ أهالى هذه الجمهورية من الحرية هو تطاول العبيد على أسيادهم » وعلى ضوء هذه الفلسفة من فلاسفة الاغريق فى أثينا ترتكب جميع الموبقات لتوفير الارقاء فى مجتمعهم ، كما ترتكب جميع أنواع التعسف فى معاملة الارقاء فكان للسيد مطلق الحرية فى انزال أى عقاب يريده برقيقه دون حسيب أو رقيب ٠

أما اخوانهم فى اسـبرطة فانهم وان لاحظوا ما فى الفـوارق الطبقية من أخطار تهدد كيانهم ومن أضرار تلحق بهم • حتى عمدوا الى نظام الموائد الجماعيه التى توضع لاطعام الفقراء من الشعب ، الا أنهم كانوا فى نظرتهم الى الرقيق أشد قسوة من الاثينيين •

فقد نظم صولون ـ وهوأحد حكام اسبرطة ومشرعيهاالممتازين ـ القرصنة لتوريد الرقيق بالسطو على الموانىء ، وسفن التجـار ، وخطف الناس وسرقتهم ، والاتيان بهم الى اسبرطة لاسترقاقهم •

بل انهم كانوا يعتبرون القرصنة والخطف مهنـــة الاشراف والعظماء • وقد ألف « صولون » لتلك العصابات نقابات لتزويدها بما تحتاج اليه من سفن وسلاح ، وكانوا لا ينكرون سرقة النساء والاطفال من القرى والمدن وان كانت يونانيـــة ، حتى كثر الرقيق لديهم كثرة فاحشة ، وكلما انتابتهم الخشية من هذه الـكثرة عمدوا بين الفينه والفينة الى ابادة جماعات كبيرة من الرقيق بالقتل الجماعى أو الحرق الجماعى ، بحجة أن كثرتهم تهـدد أمن الدولة وقد أقر مشرعوهم استغلال الرقيق فى البغاء ، وانتفاع السادة بالارباح ، وقد أسموا هذا العمل مرفقا من مرافق الدولة النافعة ، لان للدولة جعلا من هذه الارباح • وقد بلغ بالاسبرطيين جنون البغاء عن طريق الرقيق أن جعلوه قربى يتقرب بها الى الآلهة فيدفعون الفتيـــات الجميلات الى المعابد ليرتكب زوارها الفاحشة معهن على أن يكون الدخل لصندوق المعبد •

وقد أطرى مؤرخوهم هـذا العمـل واعتبروه من المشروعات الوطنية الجليلة التى تجلب الى بلادهم السـياح وتزيد فى الدخـل القومى •

وكان رءوس النـاس وأغنيـاؤهم ينذرون للآلهة حسـناوات الجوارى اذا تحقق مأرب من مآربهم ، حتى غصت المعابد بالنســاء لارتكاب الفجور فى تلك الاماكن ، وكانوا يسمونه البغاء الدينى •

وكان الى جانب الرقيق الفـردى الرقيق الجمـاعى ، فـكانوا يضربون الرق على مدينة بكاملها أو على شعب بأسره اذا غلبوه فى حربهم •

وكان للدائن استرقاق المدين اذا عجز عن ســــداد دينه ، واسترقاق أسرته معه • وكان القانون يحظر على أى ســـيد يريد الاحسـان الى أحد عبيده أو امائه بتحريره الا بشروط معقدة منفرة، واذا أصر السيد على تخطى تلك العقبات القانونية فعليـــه أن يدفع للدولة غرامة مالية لان تحرير العبد أو الأمة تضييع لحق من حقوق الدولة ، ومن ناحية أخرى تفرض على المعتوق واجبات وأعباء كثيرة يؤديها للمعتق وأعباء وواجبات أخرى يؤديها للدولة •

هذه معاملة الرقيق عند الاغريق ، وتلك نظرتهم اليهم وهم من بلغوا من الرقى الفكرى المنزلة القصـوى فى العـالم المتحضر قديما •

وقد ذاق الاغريق وفلاسفتهم ذل الرق ، فقد غزاهم الرومان واسترقوا منهم عددا من الفلاسفة من أمثال أرسطو ، وأفلاطون ؛ وطبقوا عليهم نظرياتهم ، وجعلوهم آلات مسخرة تماما كمـا كانوا ينظرون الى الرقيق فى بلادهم ونعتقد ان أرسطو وأفلاطون لو كانا عائشين لأنكرا نظرتهما الى الرقيق وتبرآ منها •

الرق عند الرومانيين :

وتثنى بالرومان وهى أمة اشتهرت بالتقنين وما زالت القوانين الحديثة متأثرة بتقنينهم تأثرا بالغا • فلننظر ما صنع هؤلاء بهـذه المشكلة ؟ « كان المبدأ السائد عند الرومان أن الرقيق يعتبر شيئا لا شخصا ، وعلى ذلك فليس له ــ على عكس الحر ــ أسرة ، واتصاله اذن بالنساء لا يعتبر زواجا قانونيا ؛ ولكنه يعتبر صلة واقعية ، وليس له ذمة مالية ، وليس من حقه اذن الامتلاك أو الاسـتدانة أو التسـليف أو الوراثة ولم يكن من حقـه أن يظهر أمام القضـاء لان القضاء مفتوح للاحرار دون غيرهم ، فاذا جرح أو أصيب بأضرار فليس من حقـه أن يطالب بتعويض بل كان من حق السيد • شأن الرقيق فى هذا شأن الحيوانات والجمادات التى يمتلكها السيد • ويصح أن يكون موضوعا لملكية فردية أو جماعية يتصرف فيهـا صاحبها بكل حرية بل يصح أن يكون ملكية جزئية مجزأة بين عدة سادة ، وللسيد أن يترك رقيقه كالاشياء تماما فيصبح شيئا لا صاحب له • هذه نظرة روما القديمة للرقيق » •

فلما دخلت المسيحيه فى الدولة الرومانية ســمح للرقيق بالاشتراك فى الطقوس الدينية ، كما كان يحــافظ على قبره كما يحافظ على قبور الاحرار ، وله أن يمثل ســيده فى بعض العقود القانونية باستعارته لشخصية سيده اذا كانت هناك فائدة للسيد، ثم سمح له أن يحل محل سيده فى بعض العقود التجارية ، ثم حصل تطور كبير فى التقنين الرومانى ـ مرده مسحه من ســماحه الدين المسيحى ـ فصدر قانون يحرم على السيد قتــل رقيقه بعد أن كان القتل مباحا للسيد يقتل من يشاء من رقيقه وكيف شاء . وكذلك صدر قانون يحرم القاء الرقيق للحيوانات المفترسة الا اذا كان بحكم قضائى . وأخذت الامور تتطور فى القانون الرومانى لصلحة الرقيق، فصدر مرسوم يعاقب السيد الذى يقتل رقيقــه بلا سبب للقتــل ، وسمح للقضاء بالزام السيد الذى يعامل رقيقه معاملة فظة ببيعه.

ثم صدر مرسوم يسمح للرقيق أن يحرر نفسه من رق سيده نظير مبلغ من المال اذا كان فى استطاعته تنمية ما بيــده من مال ، ويستطيع ان يتحصل على المال بمجهوده . وقد كان أهم منبع للرقيق عند الرومانيين حروبهم العدوانية التى كانوا يشنونها على جيرانهم من الغاليين ، وغيرهم .

ويقال ان قيصر روما عند ما فتح بلاد الغال استولى على مليون أسير وضرب عليهم الرق . وبذلك نزل سعر الرقيق حتى صــار لا يساوى الواحد منهم عشرة قروش بالعملة الحالية . ولقد تطور امتلاك الرقيق عند الرومانيين فكانوا يتركون الرقيق يعمل فى الارض ثم أخذوا يهبونهم الارض ويورثونها لابنائهم ليشتد تفانى الرقيق فى خدمه الارض وتعلقهم بها ثم حرموا بيع الرقيق الا بالارض التى يملكها وأدى هذا النظام الى نظام الرقيق الاقطاعى ، فللسيد أن يبيع الارض بمن فيها من نساء ورجال وأطفــال لان كل ذلك ملكه ، وانعكست الرحمة فصارت قسوة شائنة وكأن القانون الذى صدر لمصلحة الرقيق لم يكن الا تمهيدا لارتكاب جرائم أفظع وأشد .

وكان من منابع الرقيق عنــد الرومان أن ابن الرقيقة رقيق بصرف النظر عن أبيه ولو كان حرا . وللقاضى أن يصــدر حكما باسترقاق من فروا من الجيش، أو فروا من دفع الضرائب الحكومية

واذا لم تتمكن الحكومة من القبض على الفارين فلها أن تسترق اباءهم ، وأن تسترق المدينين اذا فر دائنوهم والمسروق منه بالنسبة للسارق ، ومن قوانينهم أن المرأة الحرة اذا اتصلت برقيق لشخص آخر رغم تحذير سيده لها تصبح مسترقة لهذا السيد • واذا رغب السيد أن يستعيد رقيقه الذى حرره فله ذلك اذا أثبت أن رقيقه لم يعترف بجميله أو يسيء الى مولاه الذى حرره •

هاتان أمتان أوربيتان بلغتا القمة ، احداهما فى الفلسفة ، والاخرى فى التقنين ، ومع ذلك لم نرهما تنظران الى الرقيق نظرة انسانيه رحيمة ، أو على الاقل تنظران اليه على أنه من الآدميين • بل نرى احداهما وهى الأمة اليونانية تعتبره آلة حيه يجب أن تستخدم لمصلحة السادة • والاخرى تنظر اليه على أنه لا شخص • وينتهى بها الامر الى أن تبيع الارض ومن عليها من أطفال ونساء ورجال حتى لكأنهم قطعة من وحلها وطين تربتها • ولقد سمى بعض المؤرخين المدن الرومانية « خلايا العاطلين » أى الفارغين الذين تفرغوا للملاذ والشهوات وحملوا العبيد أعباء معيشتهم •

الرق عند الاسبانيين والطليان :

وكان الاسبانيون والطليان مثلهم مثل غيرهم من شعوب أوربا ينكرون آدمية الأرقاء ولا ينكرون منابع الرق السائدة فى العالم • وليس للرقيق أى حق مدنى أو قانونى • وكان من قوانينهم أن المرأة اذا تزوجت برفيقها تحرق معه وهما على قيد الحياة • اما اذا تزوجت برفيق غيرها فانه يفسخ النكاح ويجلد كل منهما بالسياط •

واذا أجرم العبد في حق سيده فلسيده الحق فى أن يذهب به الى القاضى أولا ، وحينئذ يصدر القاضى حكمه بحسب جريمته اما جلدا بالسياط ، أو قتلا • ويسلمه لسيده ليقوم بتنفيذ العقوبة على عبده بيده •

الرق عند الانجليز :

وكان الرقيق عند الانجليز ينقسم الى قسمين : الرق الفردى والرق الاقطاعى • فالرقيق الاقطاعى لا يباع بمفرده مجردا عن الارض بل يباع بالارض كأنه قطعة منها كما هو عند الرومان •

أما الرقيق الفردى ، فهو الذى يباع بمفرده • وكلا الصنفين من الرقيق يعتبر شيئا لا شخصا •

وليس له أى حق من الحقوق الآدمية • فهو كالمتاع والاثاث يفعل به مالكه ما يشاء وكيف شاء دون مؤاخـــذة أو اعتراض من القضاء أو القانون •

وما زالت رواسب الماضى المظلم فى تاريخ الانجليز تتحكم فى أخلاقهم ونفوسهم وتصرفاتهم الى اليوم • ولم تسع بريطانيا لالغاء الرقيق الا بعد أن استعمرت جانبا كبيرا من البلادالافريقيةواستولت على كثير من أراضيها الخصبة اغتصابا من أيدى ملاكها الاصليين • فلم تجد الايدى العاملة الكافية لاستغلال الارض ، فحرمت اصطياد أبناء أفريقيا السود لتوفر لنفسها الايدى العـــاملة فى مزارعهـــا المغتصبه • ولم يكن تحريمها للرقيق الا لمصلحتها الاســـتغلالية لا كما يظن بعض الساذجين أنها حرمت الرقيق بدافع من الانسانية أو التمدن • ودليلنا على ذلك معاملة البريطانيين للسود فى بلادها، وفى مستعمراتها من البلاد الاصلية للسود • فانها تتبع الآن وفى القرن العشرين فى معاملتها لهم شريعة منو الطاغية البرهمى التى وضعها قبل ألوف السنين •

الرق عند الجرمانيين :

كان الرومان واليـــونان والبيزنطيون ، يعتبرون الجرمان برابرة ، ومع ذلك فان المجون والترف بلغـا بالجرمانيين حدا كبيرا فاسرفوا فى الميسر وأسرف أغنياؤهم فى الربا فاسترق أغنياؤهم فقراءهم وبلغ بهم هوس القمار أن كانوا يقامرون بنسائهموأولادهم، ثم بأنفسهم • فيسترقهم قامروهم ولكن كانت معـاملة الجرمانيين لرقيقهم أخف بكثير من معاملة الرومان واليونان • فكان الســـيد الجرمانى لا يكلف رقيقه الا بادارة أعماله ، ويفرض عليه أن يقـدم له قدرا مما ينتفع به مالا ، أو ماشـــية ، أو شـــيئا من الملابس ، ثم يتركه حرا فى تصرفه •

واذا غضب السيد على رقيقه عاقبه بما يريد • ولكن لم تبلغ القسوة به مبلغها عند الرومان واليونان ، ولعـــل ذلك راجع الى أن السيد والمسترق كلاهما جرمانى الا فى النادر •

الرق عند الغاليين (١)

وكان الغاليون الذين ابتلوا باستعمار الرومانيين لهم ضعفاء أمام جبروت روما ، فهم لا يستطيعون لها صدا ، وقد غزاهم قيصر روما وأسر منهم مليون شخص ضرب عليهم الرق حتى بيع الشخص منهم في أسواق روما بما يعادل عشرة قروش من العملة الحالية كما قدمنا .

وهؤلاء الغاليون على ضعفهم قد عرفوا نظام الرقيق ، وقد بلغ بهم الترفع أنهم كانوا ينظرون الى أعمال الزراعة من حرث وزرع، وحصاد ، بتقزز ويستنكفون من مزاولة الزراعة ، ويحكمون على من يزاولها بالنذلة والاحتقار ، فأسندوا هذه الاعمال الى الرقيق .

أما السادة فكانوا يزاولون الحكم أو البطالة ويعيشون على مجهودات الرقيق وعرقهم ، فرأينا ابتلاء الله لهم بالرومان يسترقونهم وينزلون بهم الهوان .

الرق عند الهنود :

واذا تركنا أوربا وانتقلنا الى الشرق نجد الشرقيين مثل الغربيين تماما لم ينظروا الى هذه المشكلة نظرة الذين يريدون لها حلا أو نظرة الذين يريدون أن يتسموا بشيء من الرحمة حيال هذه الفئة المنكوبة . وانما نظروا اليها على أنها نظام متبع يجب أن يبقى ونظروا الى فئة الرقيق على أنها فئة لا تمت الى الآدميين بسبب .

ولنبدأ بالرق عند الهنود من أمم الشرق :

دخل العنصر الآرى الهند فاتحا وتغلب على السكان الاصليين وحكمهم ، وقطع الغزاة الفاتحون صلاتهم بجذورهم الاولى ، واستوطنوا الهند . ولكن اتساع الهند وغزارة سكانها أخافهم ، فان هذه الغزارة فى السكان تهددهم بالابادة ، اما عن طريق الثورة والعنف ، واما عن طريق الذوبان التدريجى فى العنصر الهندى

---

(١) الغاليون : السكان الاصليون لفرنسا ، وسكان ايطالية الشمالية وسكان اسبانيا القديمة .

الاصيل . فاذا ما مضى جيل أو جيلان لا يبقى لعنصرهم طابع مميز ويذوب ذوبانا نهائيا وهم وان أرادوا البقاء فى الهند الى الأبد فانهم لا يريدون أن يحيوا حياة الامة الهندية ، ولكنهم يريدون أن يحيوا حياة السادة الذين يستأثرون بكل شىء وللاحتفاظ بنقاء دمهم ونماء عنصرهم ، وطابعهم المميز ... يقول « منو » وهو صانع الفلسفة التى رآها كفيلة ببقائهم : « لم تلبث كل بلد يولد فيه أولاد من عرق متوالد مفسد لفسادالطبقات أن تتقوض دعائمه وينحط سكانه وأسرة الرجل مهما تكن شريفة ممتازة لابد لهذا الرجل اذا كان وليد طبقات مختلفة مختلطة من أن ينتقل اليه بالارث شىء من سجية أبويه وسوء خلقهما ، وما فى الرجل من فقدان المشاعر النبيله . وغلظة الكلام والجلافة ، واعمال الواجبات فموروث عن أم جديرة بالاحتقار » .

هذه نظرية « منو » وعلى هذه النظرية وضع فلسفته وجعلها دينا يجب أن يؤمن به الهنود ومن بينهم العنصر الآرى المستوطن فى الهند ، ولقد قسم « منو » الامة الى أربع طبقات :

١ — (الكهنة) وهم رجال الدين أى حراس هذه الفلسفة .

٢ — (الكشترة) رجال القتال (الجيش) .

٣ — (الويشية) وهم الزراع والمرابون والتجار .

٤ —(الشودرا) وهم العبيد الذين ليس لهم مهنة خاصة بل عملهم خدمة الطبقات الثلاث والطبقات الثلاث كلها من العنصر الآرى . أما الشعب الهندى فهو من طبقة الشودرا أى أن (منو) ضرب الرق على الشعب الهندى بأسره .

وأباحت فلسفته لرجال الطبقة الأولى أن يتزوجوا من نساء الطبقتين ، ولكنه حرم على رجال الطبقات الثلاث أن يتزوجوا من نساء طبقة الشودرا ، والذى يتزوج امرأة من طبقة الشودرا يصبح مهتوك الستر ويعيبه الخزى فى الدنيا والآخرة . ولذلك يطرد من طبقته ولا ينتسب اليها وليس أمامه الا طبقة الشودرا .

واذا قرأنا أسلوب (منو) لتقسيم الناس الى طبقات وجدناه

يشبه أسلوب أفلاطون في جمهوريته كلاهما يعمد الى خرافة ويروجها بين الناس لتتسلل فلسفتها الى القلوب والافكار ٠

وقد رأينا فيما سبق أن خرافة أفلاطون كانت قائمة على أن الله خلق بعض الناس من ذهب وهؤلاء طبقة الحكام الذين يجب طاعتهم واحترامهم ، وبعضهم من فضه وهي طبقة الجنود ، وبعضهم من نحاس وهم طبقة العبيد الذين لا يصلحون الا للاعمال الشاقة ٠

أما (منو) فيصبغ خرافته بصبغة تتفق مع طريقة الهنود في تفكيرهم فيقول : « أراد الرب المولى تكاثر الجنس البشرى فخلق من فمه (البراهمة) الذين هم الكهنة ، ومن ذراعه (الكشترية) وهم الجنود وخلق من فخذه (الويشيه) وهم التجار والزراع والمرابون ، وخلق من رجله (الشودرا) العبيد ٠ وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكل واحدة من هذه الطبقات أعمالا خاصة ٠ فعهد الى البراهمه درس أسفار الديانة وتعليمها ٠ وتقريب القرابين وادارة ضحايا الآخرين والعطاء والاخذ ٠٠ وفرض على الكشترية حماية الشعب وممارسة الاحسان وتلاوة (الويدا) وعدم الانهماك في الشهوات ٠٠ وخص الويشية بتربية المواشي وايتاء الزكاة والتضحية وتلاوة (الويدا) والتجارة ، والربا والحرث ٠٠ وأوجب على الشودرا عملا واحدا فقط وهو خدمة تلك الطبقات من غير أن يحطوا من قدرها » ٠

ثم يقول مشرعا لهم امر الزواج : « يمكن المرء أن يولد من أب شريف وأم حقيرة (يعني أمة) أن يكون شريفا بخصاله ، ولكن الذى يولد من أم شريفة (يعني حرة) وأب حقير (يعني عبدا) يعد حقيرا كما هو القدر » ويقول : « لا ينجل الشودرى الذى يتزوج بامرأة من طبقة الكهان غير ولد أدنى منه ، وكل واحد من الادنياء يتزوج بواحدة من بنات الطبقات الثلاث لا ينجل الا ولدا أدنى منه ٠٠ ونار جهنم هي دار البرهمى الذى يتزوج بامرأة شودرية فاذا ولد له ولد منها طرد من طبقة البراهمة » ٠

وهذا يبين لنا منابع الرق عند الهنود ، فكل المواليد الذين آباؤهم من الشودريين وامهاتهم من الطبقات الاخرى يضرب عليهم الرق ٠٠ وكل ولد يولد من آب برهمى وأم شودرية يضرب عليه

الرق ويلحق بطبقة الشودرا أوتوماتيكيا بحـــكم هـــذا التشريع المنوى .

وبعد أن تضرب هذه الشريعة الرق على كل من يخالف تعاليمها لا تكتفى بهذا الاجحاف الذى يجعل المخالف خالدا فى نار جهنم . بل تجعل من الحياة الدنيا جهنما أخرى يتلقى فيها الشودرا أنواعا من العذاب الذى لا يطاق .. وترفع الكهنة الى مقام الالوهيـــة ، وتترفق بطبقة الجنود وطبقة التجار والمرابين والزراع ، فتشرع هذه التشريعات :

« يؤجر الواهب مرة على هبه المـــال لغير البرهمى ، ويؤجر مرتين على هبته لرجل يزعم أنه برهمى ، ويؤجر مئة ألف مرة على هبته لبرهمى متبحر فى كتب الديانة (الويدا) ويؤجر أجرا لا حد له لبرهمى متبتل الى علم اللاهوت » .

« واذا ولد البرهمى وضع فى الصف الاول من صفوف الدنيا، والبرهمى اذ كان السيد الحاكم لكل مخلوق وجب أن يحافظ عـلى كنز الشرائع المدنية والدينية ، والبرهمى محل لاحترام الجميـع بسبب نسبه للآلهة وأحكامه حجة فى العالم والـكتاب المقدس هو الذى يمنحه هذا الامتياز ، وكل ما فى هذا العالم ملك للبرهمى ، وللبرهمى حق فى كل موجود بسبب البكرية والنسب . والبرهمى اذا افتقر حق له أن يمتلك مال الشودرا الذى هو عبد له من غـير أن يجازيه على ما فعل فالعبد وما ملك لسيده .

ولن يدنس البرهمى بذنب ولو قتل أهل العوالم الثلاث يعنى الطبقات الثلاث الذين هم دون طبقتـــه ولا ينبغى للملك أن يجنى خراجا من برهمى عالم بالكتب المقدسة ولو مات الملك محتاجا ، ولا يجوز للملك أن يصبر على جوع برهمى فى ولايته ، وليتجنب الملك قتل البرهمى ولو اقترف جميع الجرائم وليطرده اذا أراد من ولايته ، على أن يترك له جميع أمواله وألا يصيبه بأذى .

والبرهمى المحصن اذا زنى قص له شعره ، على حين يقتـــل الزناة المحصنون من الطبقات الاخـرى وعلى الملك أن لا يقطع أمرا هاما قبل أن يستشير أكثر البراهمة دراية » .

وعلى الجنود أن يقوموا بأمور الحرب وحدها ، وان لا يمارسوا حرفة أخرى ، وأوقات السلم أوقات البطالة وتقول شريعة (منو) : لا فلاح للجنود بغير البراهمة ، ولا ارتقاء للبراهمة بغير الجنود ، ولكن الجنود دون البراهمة بدرجات لأن البرهمى أب للكشترى ولو كان عمر الاول عشر سنوات وعمر الثانى مائة سنة ، فعلى الكشترى احترام البرهمى على هذا الاساس ..

وتأتى المواد الخاصه بالشودرا (العبيد) فتقول :

١ ـ خدمة الشودرى للبراهمة هى أفضل عمل يحمد عليه ، ولا أجر للشودرا على أى عمل آخر .

٢ ـ لا يجوز للشودرى أن يجمع ثروات زائدة ولو كان ذلك من القادرين ، فالشودرى اذا جمع مالا يؤذى البراهمة بقحته .

٣ ـ يجب أن ينفى الشودرى الذى تحدثه نفسه بأن يساوى رجلا من طبقة أعلى ، بعد ان يوشم تحت الورك .

٤ ـ تقطع يد الشودرى اذا علا من هو أعلى منه بيده أو عصاه ، وتقطع رجله اذا رفس من هو أعلى منه .

٥ ـ اذا دعا الشودرى من ليس من طبقته باسمه وباسم طائفته بلهجة السخرية أدخل فى فمه خنجر محمى مثلوث النصل طوله عشرة قراريط ، ويأمر الملك بصب زيت حار فى فمه وأذنيه اذا بلغ من الوقاحة أن يبدى رأيا للبراهمة فى أمور وظائفهم ..

٦ ـ يجازى بجزاء صارم من آكل شودريا أو جالسه على فراش واحد أو ركب معه فى مركبة واحدة .

* * *

وطبقة الشودرا هى طبقة المنبوذين ، وما زالت هذه الطبقة باقية حتى الآن ، وما زالت تعامل نفس المعاملة التى كانت تعامل بها منذ (منو) من آلاف السنين ، ولم تفلح صيحات المصلحين والمنصفين فى القضاء على هذا النظام البغيض المنحدر اليهم من عصر الهمجية والظلام . بل ان غاندى قتل حينما أراد أن يحررهم ويعيد اليهم الاعتراف بآدميتهم والاستمتاع بحريتهم كما يستمتع بها بقيه مواطنيهم .

وبينما غاندى يغتال ويذهب صريع هدف انسانى نبيل ، نرى بريطانيا تعتنق شريعة (منو) وتطبقها على سكان البوير فى جنوب شرق افريقيا .

ونرى أمريكا تطبق شريعه (منو) تطبيقا مخلصا على زنوج أمريكا وهنودها الحمر . فى هذا العصر الذى يسمونه عصر المدنية والنور . ويملأون الفضاء بدعوى حماية الحريه والانسانية .

الرق عند الفرس :

كان الرقيق عند الفرس ينقسم الى قسمين : الاول للقيام بالاعمال الشاقة وينتقون هؤلاء من ذوى البناء المتين والعضلات القوية ، والثانى للزينة ومظاهر الفخفخة عند الحكام وذوى اليسار وكانت معاملة الفرس لرقيقهم صارمة قاسية شأنهم فى ذلك شأن الرومان والاغريق ثم صدر قانون يخفف عنهم وطأة القسوة عليهم من سادتهم ..

من ذلك أنه : لا يجوز لأى فارس معاقبة عبده على ذنب واحد بعقاب بالغ الشدة والصرامة . ولكن اذا عاود العبد الجرم فمن حق سيده أن يعاقبه بأية عقوبه شاء ولو كانت العقوبة قتلا .

ثم اصطلح المجتمع الفارسى على ايجاد أوقات فراغ للرقيق يستمتع فيها بالراحة والترفيه عن نفسه . وكأنهم فطنوا الى ما فطن اليه العصر الحديث الى أن أوقات الفراغ ضرورية للرقيق لتجديد نشاطهم وزيادة انتاجهم ، اما الارهاق فانه يقلل من انتاج الرقيق ويقل تبعا لذلك انتفاع السادة بهم . وكانت منابع الرقيق من حروبهم مع أخصامهم ومن توالد الرقيق .

الرق عند الصينيين :

وكان الصينيون يسترقون أسرى الحرب ، كما يسترقون الذين ألجأتهم الفاقة الى بيع أنفسهم وبيع نسائهم وأولادهم وكانوا يستكثرون من الرقيق عن طريق التوالد ويتصرفون فيهم كما يتصرفون فى الاثاث والمتاع ، ولكن العقوبات التى كانوا ينزلونها برقيقهم لم تبلغ من القسوة مبلغها عند غيرهم . ثم أصدر الامبراطور كوانجون ـ وكان رجلا رحيما ـ قانونا بالشفقة على الرقيق . ومن

اقواله التى تنم عن انسانيه عاليه : (ان الانسان افضل وأشرف المخلوقات التى فى السماء ، والتى على وجه الارض • فمن قتل رقيقه فليس له من سبيل فى اخفاء جرمه ، ومن أخذت به الجرأة فكوى رقيقه بالنار حوكم على ذلك بمقتضى الشريعة ، ومن كواه سيده بالنار دخل الجنة فى عداد الوطنيين الاحرار) • وانها لنفحة من نفحات النبوة لامست قلب هذا الامبراطور العظيم •

الرق عند المصريين :

وكان الرق عند المصريين على أنواع : الرقيق الاقطاعى وهو الذى يعمل فى الحرث والزراعة والحصاد • والرقيق الفردى • والرقيق الحكومى الذى يقوم بالاعمال والمشروعات الحكومية كاقامة الجسور وشق القنوات وجميع الاعمال الشاقة •

ويشبه الرقيق الفردى عند قدماء المصريين الرقيق عند الفرس فكانوا يتخذون من ذوى الرشاقة والجمال نساء كانوا أو رجالا رقيقا للزينة ومظاهر الابهة والفخفخة والتفاخر • وكانوا يعاملون الرقيق بقسوة الا أنها لا تبلغ حد الصرامة التى كان الرومان واليونان يعاملون بها رقيقهم • ومنابع الرقيق التى كانت تمد المصريين به هى الحروب والتوالد وفرض النظام الطبقى الذى لا يسمح للطبقة الدنيا أن ترتقى الى طبقة أعلى منها •

ولذلك فقد كانوا يحظرون تعلم القراءة والكتابة الا على أبناء الكهنة وأبناء الملوك • ومن يتعلمها من غير أولئك يعاقب عقابا صارما لا يقل عن القتل •

الرق عند اليهود :

واذا تركنا المجتمعات التى لا تدين لنبوة ولا تؤمن بكتاب وتعامل الرقيق على ضوء من مصالحها • ووحى من فلسفتها ونظرياتها المنحرفة • وانتقلنا الى اليهود وهم ـ كما تعلم ـ شعب كثرت فيه النبوات • وترددت فى جنباته الوصايا الدينية وتراتيل الكتب المقدسة ، نجدهم منحرفين كغيرهم فى معاملة الرقيق انحرافا شديدا • بل ان انحرافهم يعتبر أشد وأفظع لانهم أهل كتاب • فلقد كان اليهود اذا انتصروا فى حرب ، واستولوا على مدينة ضربوا الرق

على أهلها جميعا رجالا ونساء وأطفالا .. وكانوا يبيحون الخطف والقرصنة واللصوصية لتزويدهم بالرقيق ، وكانوا يستبيحون استرقاق الاسرة التى تلجئها الفاقة والعوز للاسترقاق . وكانوا يسترقون المدين الذى يعجز عن الوفاء بدينه بل يستبيحون بيعه وبيع ابنائه وبناته وزوجاته لتسديد ديونه ، وكانوا يستغلون رقيقهم استغلالا دنيئا فيدفعون فتياتهم الى البغاء للاستحواذ على أجورهن . ولا شك أن شرائع بنى اسرائيل السماوية تنزهت عن الأمر بهذه المنكرات . وانما هم انحرفوا عنها وتعدوا حدودها وحرفوا نصوصها بما يتلاءم مع أهوائهم وشهواتهم . ثم هم بعد ذلك كله مايزوا بين الرقيق فاختصوا من كان من اليهود بميزات لا ينالها الرقيق من غير اليهود وتواصوا بذلك . وقد جاءت فى أسفار علمائهم واحبارهم نصوص توجب هذا التمايز وتفرضه ، من ذلك ما جاء فى سفر الخروج الاصحاح الحادى والعشرين : (اذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم ، وفى السابعة يخرج حرا مجانا ، ان دخل وحده فوحده يخرج ، وان كان بعل امرأة فتخرج امرأته معه وان أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين وبنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده ويخرج هو وحده ، ولكن اذا قال العبد أحب سيدى وامرأتى وأولادى ، ولا أخرج حرا يقدمه سيده الى باب المدينة ويثقب أذنه بالمثقب فيخدمه الى الابد) .

هذا شأنهم مع الرقيق من اليهود . أما الرقيق من غيراليهود ، فلهم شأن غير هذا ، وقد جاء فى سفر التثنية فى الاصحاح العشرين : « أمر الرب أن كل محاربة اذا انتصر عليها اليهود يكون جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال عبيدا لهم يسخرونهم الى الابد . بدون شرط ولا قيد » وجاء فى الاصحاح التاسع : « ان الله حتم العبودية على أولاد كنعان بن حام » . هذه نظرتهم الى الرقيق من غير اليهود وتلك آراؤهم فيهم (١) .

---

(١) اننى أنزه دين اليهودية من أن يأمر بهذا وأعتقد ان هذه الاقاويل موضوعة وملصقة باليهودية الصحيحة وأنا كمسلم لا يتم ايمانى الا اذا آمنت بالكتب المنزلة ولا أعتقد أن الله يأمر بذلك فان الله رحيم وهو مصدر جميع الاديان السماوية

أما معاملتهم للرقيق فلا شيء فيها من قسوة الهنود والرومان واليونان . ولعل قوانين المعاملة التى تقتبس كثيرا مما جاء فى التوراة لطفت من غلوائهم فمن ذلك أنهم كانوا يمنحون الرقيق زمنا يستريحون فيه من عناء الاعمال يتراوح بين ستة وسبعة أسابيع . وليس للسيد أن يضرب عبده ضربا مبرحا فان هو فعل عوقب واذا بتر السيد لعبده عضوا أو كسر له عظما أو سنا عوقب على فعله عقابا شديدا وليس للسيد أن يقتص من عنده اذا فعل ما يوجب القصاص الا بعد حكم قضائى . وكانوا يزوجون العبد ببنت سيده ان لم يكن له ذكر يخلفه . ذلك شأن الرق عند اليهود .

الرق عند النصارى :

فاذا تركنا اليهود وذهبنا الي النصارى وجدنا أتباع المسيح أبعد ما يكونون عن الرحمة والتسامح اللذين أوصى بهما المسيح عليه السلام . والدين المسيحى لم يشرع شيئا فيما يختص بالرقيق ولا فيما يختص بغيرهم لأنه لم يكن دين تشريع وانما هو دين تهذيب وحب وتسامح. ولكنا نرى مواعظ القسس والرهبان والباباوات ، ليس فيها غير حض العبيد على طاعة أسيادهم وترغيبهم فى ذلك باصرار واستمرار . فهذا القديس بولس يوصى الرقيق بأن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب منهم كما يطيعون المسيح عليه السلام ، وعليهم أن يعتبروا سادتهم أهلا لكل تشريف وتبجيل ، وأن يبالغوا فى خدمتهم اذا كانوا من اتباع المسيح » ولكن لا نجد وصية واحدة تحض السادة على تحرير رقيقهم .

وأما مفكرو النصارى ومشرعوهم فانهم قد أقروا الرق . جاء فى كتاب « الاسترقاق عند الأمم النصرانية » لمؤلفه باتريس لاروك « ان الديانة المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصا ، ولم تلغه عملا » وهذا صحيح لأنه كما قلنا ان الدين المسيحى لم يكن دين تشريع وانما هو دين تهذيب ورحمة وتسامح . فاتخذ باتريس لاروك من ذلك حجة لاقرار الرق مع أن روح المحبة والتسامح يقضى بغير ذلك ـ وجاء فى كتاب (فى تعاليم الديانة المسيحية) لغوردنييه « ان الاسترقاق من النظم المسيحية المشروعة » وهذا القول يناقض ما قاله باتريس لاروك الذى تقدم قوله (ان الديانة

المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصا ولم تلغه عمـلا) ولم يذكر لنا دنييه نصـا من الانجيـل يؤيد قوله بمشروعية الرق فى الدين المسيحى . الا اذا أراد بسكوت الدين المسيحى عن الرقيق اقرارا بمشروعيته مع أن روح المسيحية وسماحتها تقتضيان غير ذلك .

وقد أقرت الكنـائس الثـلاث الكاثوليكيـة واليـونانيـة والبروتسـتانية الرق ونصحت الرقيق بأن يرضى بما هو فيـه وتواطأ رجال الكنائس مع رجال الحكم والقانون على اقرار الرق. ومن الغريب أن تقر المجتمعات المتدينة الرق مع أن جميع الديانات السماوية تحرم السرقة والعدوان وتفرض العقوبات الرادعة على المعتـدين وهى تعلم فى الوقت نفسـه أن من أهم منـابع الرق اللصـوصية والقرصـنة والعـدوان والخطف (١) . وأن تعجب فاعجب للمتدينين الذين يشددون عقوبة سارق المتاع والأثاث والمال والماشية . ولا يعاقبون سارق الانسان .. أبلغ الهوان أن يكون الانسان أقل قيمة من المتاع والأثاث ؟؟؟

ومن المؤسف المضنى لذوى القلوب والضمائر ان يكون فى المجتمعات الاسـلامية اناس يصـنعون ما كان يصـنع اليهـود والنصارى منذ القدم . فيشـددون العقـوبة على سـارق الأثاث والمتاع ولا يعاقبون سارق الانسان .. بل هم يشتركون فى هذه السرقة ، ويشجعون عليها . ويتهافتون على شراء المسروقين من الآدميين .

الرق عند العرب :

أما الرق عند عرب الجزيرة فكان شأنه شأن الرقيق فى سائر الأمم .. اقرار له وعدم انكار لمنـابعه . فكانت الغـارات التى يشنونها على بعضهم تزودهم بالأسرى والسـبايا ، وكان الخطف والقرصنة واللصوصية والاعتداء على قوافل التجـار من الموارد التى تزودهم بالرقيق . وكان الرقيق لديهـم من جميع الألوان والأجناس . وكانت النعرة الجاهلية تجعلهم يحتقرون الأجنـاس غير العربية . ولعل ذلك من الأسـباب التى تجعلهم يشـتدون ويقسون فى معاملة الرقيق من غير العرب .

---

(١) انى أنزه الدين المسيحى من أن يسمح باسترقاق الآدميين .

وكانوا يتركون الارقاء للاعمال الشاقة ، من زراعة وحرث وحصاد ورعي ماشية . وكان العربي يأنف من مزاولة الحرف الصناعية لذلك فهم يتركون مزاولتها لمواليهم ، وكانوا يستغلونهم شر استغلال ، فالى جانب استغلالهم للحرف التي يزاولها الأرقاء كان بعضهم يدفع بفتياته للبغاء للاستحواذ على الارباح • واذا غضب السادة على عبيدهم عاقبوهم بأشد أنواع العقوبات دون أي رادع من ضمير أو قانون . ويتحكمون فيهم كما يتحكم الانسان في ماشيته وأثاثه . وكان السيد يستنكف بنوة ابنه من أمته فيلحقه برقيقه . ولكنهم كانوا لا يبيعون أبناءهم اذا أصابتهم مخمصة أو نزل بهم أملاق أنفة ، بل كانوا يفضلون قتلهم على أن يدخلوهم في نطاق الرقيق •

***

هذا شأن الرق والرقيق في العالم بأسره . فمن ابتلى بالرق اصبح مسلوب الحرية مهدور الانسانية غير معترف بآدميته بله حقوقه ، ولم تصنع البشرية شيئا لهذا النظام الجائر .. واذا كانت المجتمعات المختلفة في معاملتها للرقيق تصيبنا بفجيعة في ضمير الانسانية فان الافجع من ذلك ما نراه من الفلاسفة والمفكرين ورجال القانون الذين هم منارات الأمم والشعوب من مواطاتهم لمجتمعاتهم والانحراف بفلسفاتهم الى تبرير هذا النظام البغيض والسكوت على القسوة والوحشية والصرامة التى يعامل بها الرقيق وعدم استنكارهم لموارده أو التعرض لبحث الأسباب التى تقذف بفئات كثيرة الى محرقة الرق • واذا كان التفسير المادي للتاريخ يؤكد أن نظام الاقتصاد يعين المذهب الفكرى . أو أن النظام الاقتصادي يسخر الأفكار والشرائع لخدمته . فان ذلك يؤكد لنا أن الانسانية عاجزة عن التخلص من اوضار طينتها مالم تلمسها قبسة من روح الله تضيء لها الطريق . وأن العالم في حاجة ملحة الى نفحة من السماء يشرق بها وجه الحياة .

قبسة من السماء :

وها هي قبسة من روح الله تشرق في الأرض متمثلة في القرآن الكريم وآياته الخالدة التى تهدى للتي هي أقوم . تتنزل

تباعا على من أرسله الله رحمة للعالمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . لقد نزل القرآن الكريم وهو خاتمة الكتب السماوية لحل جميع المشاكل الانسانية . ولهداية الناس الى الصراط المستقيم الذى ان ساروا عليه حققوا لأنفسهم الحياة الجميلة الفاضلة . وقد وجه عنايته الى أم المشاكل وهى الشرك بالله . ليتفرد البارىء بالعبادة فلا يشرك الناس معه الها آخر حجرا كان او بشرا . فليس فى الأرض آلهة تعبد وليس فى البشر أبناء للاله الواحد الأحد . فانه لم يلد أبناء ولا بنات والذين يسومون الناس الخسف والعسف ويستحوذون على الأرزاق ويستبدون بغيرهم من أمثالهم بدعوى أنهم أبناء الاله يفترون على الله وليس لله سدنة ولا كهنة يحجبون رحمة الله عن خلقه الا اذا كانت عن طريقهم ، فيسوغون لأنفسهم بذلك أكل أموال الناس بالباطل . ويقذفون من يمتنع عليهم الى جهنم التى صنعوها بالبغى والعدوان فى هذه الحياة الدنيا ويدعونه فريسة فيها للفقر والحرمان والعبودية والشقاء .

وبعد أن دك القرآن هذه الأسوار العاتية التى كانت تحجب أنوار السماء عن أهل الأرض ، ودمر الحواجز المصطنعة التى كانت تقف عائقا عن اتصال المخلوق بخالقه بدون وسيط ولا حاجب ولا سادن ولا كاهن حيث يقول الله تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » واستجابتنا لله هى التحرر الاول الذى يحرر عقولنا وأرواحنا وأفكارنا من الأغلال التى كانت ترسف فيها ، فلا خوف من أحد الا من الله . وليس للناس على الناس سلطان الا فيما يرضى الله « وقد ورد عن النبى أنه قال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وتلك هى الاستجابة لله لأنه ما لم تتحرر عقولنا وأرواحنا من التراث السخيف الذى ورثناه عن عصور الظلمة لا نستطيع رؤية النور الذى يجعلنا دعاة للحرية وانصارا لها .

بعد هذا أخذ القرآن يصعد بنا الى معارج الكمال . وللقرآن أسلوب حكيم فى التدرج بالانسانية من مرحلة فاضلة الى مرحلة افضل . فهو لا يسير بها سيرا مرهقا فى مراقى الكمال ولكنه

يسير بها الهوينى حتى تصل الى المراتب العليا فى الكمال الانسانى دون أن يدركها وصب أو ونى ، ودون أن يصدمها فيما الفت بما لم تألف دون تمهيد أو اعداد رحمة بها وحفظا لها من الانتكاس .

لذلك فان القرآن الكريم لم يحرم الاسترقاق ولم يحرم الرقيق الا بعد أن مهد الطريق لتحريمه واعد نفوس السادة والأرقاء لمرحلة التحريم ، والتحرير . ونظر الى المشكلة من جذورها فتعقبها بحلوله الحكيمة واسلوبه القويم ليكون قضاؤه على المشكلة قضاء مبرما لا رجعة لها من بعده .

***

وقد تبين لنا فى ثنايا ما سردناه من تاريخ الرق أن هناك منابع للرقيق وأسبابا تتفجر منها تلك المنابع ، أما المنابع فتتلخص فى :

أولا : الحروب العدوانية .
ثانيا : القرصنة واللصوصية والخطف .
ثالثا : الربا والميسر .
رابعا : توالد الرقيق .

وتتلخص أسباب تفجر هذه المنابع فى :

أولا : التمايز بألوانه . العنصرى ، والقبلى . والطبقى والدينى .

ثانيا : فساد النظام الاقتصادى .
ثالثا : انعدام روح الرحمة والتعاطف بين الناس .

فكيف عالج القرآن ذلك ؟؟ هذا ما سنراه فى الفصول الآتية :

المساواة فى خلق الانسانية :

ان المتدبر فى آيات الله يرى أن الروح التى تنتظم القرآن من أوله الى آخره روح خيرة رشيدة تدعو الى العلم والعمل

والحرية والمساواة والعدل ، والرحمة ، والهدى ، والحق ، والاحسان ، والايثار والانفاق . الى غير ذلك من الفضائل الانسانية . وتنهى عن الظلم والقسوة والضلال والجهل والأثرة والشح والبغى والطغيان والتمايز والتعالى والتطاول وغير ذلك من المساوىء ، وتقتضى الدعوة الى كل هذه الفضائل ، أن تكون التشريعات التى تصدر عنها متمشية مع هذه الروح العالية الجميلة. والا كانت مناقضة لنفسها مخالفة لمبادئها الأولية فيها. والمساواة فى خلق الانسانية ، واضحة فى القرآن . يقول الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » والأرحام هى وشائج القربى بين الناس ، والأقرباء يتراحمون ويتعاطفون ويشدون ازر بعض . وهذا ما يأمر الله به الناس لأن كل الناس من رحم واحدة ومن أصل واحد . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم وآدم من تراب » فليس هناك أناس مخلوقون للسيادة وأناس مخلوقون للطاعة والخضوع كما يقول أرسطو وليس هناك فريق من الناس خلق من الذهب والفضة وآخرون خلقوا من الحديد والنحاس . كما يقول أفلاطون . وليس هناك أناس خلقوا من فم الرب وآخرون من قدمه . كما يقول منو . وليس هناك أناس خلقوا للسيادة وآخرون حتمت عليهم العبودية كما يزعم اليهود ، والنصارى ، فكل الناس خلقوا من نفس واحدة وكلهم أقرباء بعض . ووشائج الرحم بينهم قوية أصيلة .

وقد قضت هذه الآية الكريمة على كل الخرافات والمزاعم التى كانت قائمة فى الأذهان وعلى كل الفلسفات المنحرفة التى كانت سائدة فى المجتمعات والتى كانت البؤرة التى تنبع منها التعصبات الطبقية والتمايز العنصرى ولا شك أن هذا هو أقوم منطق تخاطب به العقول والأفكار لأنه منطق الحقيقة ، والقرآن دائما يهدى النفوس الى أقوم طريق كما يقول الله تعالى : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

تكريم الانسان :

والله الذى خلق البشر من طينة واحدة لم يخلقهم لاهانتهم، ولامتهان فريق وتكريم فريق آخر ، بل كرمهم وفضلهم جميعا ، فلم يختص بتكريمه وتفضيله امة على أمة ، ولا عنصرا على عنصر، ولا عربيا على أعجمى ، ولا اسود على ابيض بل شملهم جميعا بالتفضيل والتكريم فقال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

والى جانب التفضيل والتكريم اللذين منحهما الله للجميع، منح الرزق الطيب للجميع ايضا ، فليس لأى انسان ان يحتكر شيئا من ذلك لنفسه أو لأسرته أو لعنصره دون غيره من الناس ، والا عد ذلك بغيا منه على اخوانه واجتراء كبيرا على خالقه ، وكما أوضحت لنا الآية السالفة الحقيقة فى خلق الآدميين لننظر الى بعضنا بعين التساوى لأننا مخلوقون من نفس واحدة . فقد وضعت لنا هذه الآية مبدأ كريما يجب ألا نغفله فى صلاتنا ببعض، لأن تكريم الله لنا يشملنا جميعا على السواء . فكل ابن آدم كريم عندالله . وليس من حقنا ان نعتبر أى انسان شيئا لا شخصا عندما نجلس مجالس التشريع والتقنين ــ كما كان يفعل الرومان مثلا فى اعتبارهم الرقيق شيئا لا شخصا أمام القانون . وكذلك ليس لنا أن نحظر على أى انسان طلب الرزق الطيب أو نقفل أبواب الرزق فى وجهه ، فان الرزق للجميع . وكل الناس فى طلبه سواء . لا كما يقول « منو » فى حظره طلب الرزق على طبقة الشودرا ــ الرقيق حينما يقول : (ان الشودرى اذا جمع مالا فانه يؤذى البراهمة بقحته)

المعايير الصحيحة للتمايز بين الناس :

لقد قرر القرآن الكريم ان الناس متساوون فى أصل الخلقة فكلهم من نفس واحدة ، وعلى هذا فكل الناس لديهم ملكة الفهم والتمييز وليس هم كما يقول ارسطو : ان بعض الناس آلات حية لا فهم ولا تمييز لديها . ولكن اذا كانت المجتمعات تأبى الا

أن يكون بينها الكريم والأكرم . فان القرآن يبقى للناس عرفهم الذى ألفوه ولكنه يلغى المعايير الفاسدة التى كانوا يزنون بها بعضهم فيقول الله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . فليس الأكرم عند الله صاحب السلطان ولا المقرب عند السلطان وليس الأكرم الأغنى مالا ولا الأعز نفرا انما الأكرم عند الله الأتقى . فعلى من يريد أن يكون أكرم من غيره فليتق الله فان التقوى هى المعيار الصحيح الذى يتمايز به الناس . فالتقى يرعى الله فى حقوق عباده فلا يظلمهم ولا يعدل عن الحق فى قوله وعمله ولا يؤثر نفسه على من سواه . ولذلك يقول الرسول الكريم : (لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) فالأتقى أولى بأن يكون أكرم من غيره لأنه أنفع للناس من غيره ، فلا ميزة فى القرآن للون على لون ولا لجنس على جنس ، ولا لغنى على فقير ، ولا لحاكم على محكوم الا بالتقوى .

واذا كان للناس صفات أخرى لا حيلة لهم فيها تجعلهم يتمايزون فيما بينهم بموجبها كالذكاء والغباء والكسل والنشاط والعى واللسن ويتمايزون نتيجة لذلك ضعة ورفعة وغنى وفقرا وعلما وجهلا . فان القرآن لا ينكر ذلك وموقفه واضح من هذه الاعتبارات . فيقول تعالى : (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) ويقول تعالى : (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم) لا يستوى عند الله الأعمى والبصير ولا يستوى عند الله المهتدى والضال . وكذلك لا يستوون عند الناس ولذلك يقول الله تعالى : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) .

ويقول الله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ويقول : (نرفع درجات من نشاء أن ربك حكيم عليم) ويقول (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) ففى هذه الآيات وأشباهها اعتراف بالمواهب الانسانية . لأن الله الذى وهبها لأصحابها لا يمكن أن يجحدها . فهو وهبها لهم ، وجعل أصحابها محل اختباره ليرى أى طريق يسلكون بها ، ولذلك قال

الله تعالى : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب . وانه لغفور رحيم) .

فمن وهبها قادر على سلبها وهو سريع العقاب . فليس لمن وهبه الله شيئا من قوة نال بها حكما أو مالا ، أو علما ، أو جاها، أو نفوذا أن يحتقر الغير ، أو يظلمه ، أو يؤذيه ، أو يستبد به ، أو يعتدى عليه ، أو ينحرف عن طريق الصلاح ، فليس معنى هذه الآيات أن تحتكر مصادر الثروات لفريق من الناس أو تحتكر الوظائف الكبرى فى الدولة لأسرة أو لعشيرة أو لقبيلة أو لأبناء طائفة أو اقليم دون غيرهم أو تحتكر الفرص فيتاح للوصوليين والانتهازيين ويترك من عداهم فلا يجدون الفرصة متاحة لهم كما يحلو للبعض تفسيرها بذلك واتهام الناقمين على الأوضاع الفاسدة بالحسد وبشتى التهم الملفقة . كلا فان ذلك ظلم . ولذلك يقول الله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

ولن يستوى عند الله الغنى الخير والغنى الشرير ولا الحاكم العادل والحاكم الظالم . ولا العالم الذى يعمل لخير الانسانية بالعالم الذى يعمل لايقاع الناس فى الشرور . ولا يتساوى المنافقون بالمخلصين . يقول الله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين) .

فالمسجد الحرام الذى هو قبلة المسلمين كافة وهو أول بيت وضع للناس وعمارته واجبة على المؤمنين جميعا ، وسقاية الحاج الذين هم ضيوف الله وزوار بيته من أعظم العبادات عند الله ومع ذلك فان هذه الأعمال اذا صدرت من كافر أو من ظالم يأكل أموال الناس بالباطل ويهدر دماء الأبرياء ، ويسوم الناس الخسف والعسف ، ويقيم الحدود على الضعفاء ويعفى الأقوياء منها ، ولا يصغى الى دعوة الحق ، ويحقد على المصلحين ولا يصغى الى ارشادهم ، ولا يفيء الى الله فى أمر من أموره ، ويؤله نفسه حتى لكأنه شريك لله فى ذاته وصفاته فيفرض على الناس أن

يدعوه بمـا يدعون به الله . ان هـذا وأمثـاله لا تغنيهم عمـارتهم للمسجد الحرام وسقاية الحاج . لأن الله لا يهدى الظالمين وهو يحبط عمل الطغاة الباغين (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) فعمارة المساجد تكون حسنة اذا كانت ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ويقيم الصلاة لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ويؤتى الزكاة ولا يمنعها عن أصحابها ولم يخش الا الله . وخشية الله لا تتحقق الا فى رعاية حقوق الناس والحفاظ عليها . . فالحاكم الذى لا يرعى العدل فى الأحكام ولا يتحـرى العدالة فى الأموال لا يخشى الله وان صلى وصام والغنى الذى لا يؤدى الزكاة وما عليـه من تبعـات الثروة لا يخشى الله ولا تنفعـه صـلاته ولا صيامه . والعالم الذى لا يقول الحق ولا يقف علمه لمصلحة الناس لا يخشى الله وان تقوس ظهره من الركوع والسجود . . فالخشـية من الله لا تتمثـل بأجلى ما تتمثل به الا فيمـا يصدر من الانسان حيـال معاملته لغيره من النـاس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الدين المعاملة) .

لقد كان من الضرورى لمصلحة الانسـانية ونفعها اتجاه القرآن الى تصحيح المفاهيم واصلاح المعايير البشرية التى توزن بها أقدار الناس . ليكون تحرير الرقيق نابعـا من قلوب المؤمنين وما قيمـة تحرير الرقيق بفرض القوانين . وهل تصلح القوانين المفروضة المفاهيم المعوجة والاوضاع الفاسدة التى كانت قائمة . وكيف تم الغاء الرق من أساسه وينابيعه ما زالت غـزيرة متفجرة وأسـباب تفجرها ما زالت قائمة كرءوس الشياطين ، فى كل ذلك مضـافا اليه النظام الاقتصادى السائد فى المجتمعات البشرية على اختلافها . وما زال هذا النظام الفاسد يرتكز على الرقيق ارتكازا شـديدا وعميقا فالغاؤه يحدث هزة عنيفة ثم لا تأتى بالنتائج المنشودة .

وهناك غير هذا أسباب سيكولوجية جديرة بالعناية عنـد

اتخاذ هـذه الخطوة .. خطوة تحرير الرقيق وابطال الرق . وقـد علمنا الله التدرج فى معالجة المشـاكل بما أرانا من أسلوبه الحكيم فى قرآنه عند معالجة مشـاكلنا وعلينا أن نتـدبر آياته ونستشف الروح الذى ينتظم القرآن فى كل تشريعاته .

فآياته لا تتناكر ولا تتجزأ وانما هى موحدة فى أهدافهاتعنى بالروح وبالجسد وبالتفكير وبالسلوك . ليقوم عليها نظاممتكامل منسجم لا تتنافر فيه أوجه النشـاط الانسـانى . ولا تختلف اتجاهاتها فى السر وفى العلن وقد نهانا الله أن نكون كبنى اسرائيل نؤمن ببعض الكتاب ونكفر بالبعض الاخر ..

ومشكلة الرقيق مشكلة تتصل بمشاكل كثيرة . ولمتنشأ الا عن الفساد والانحراف اللذين شملا التفكير والمسلك . فلذلك كان اصلاح ما فسد من كل ذلك أمرا محتما . وكان من المحتم ايضا علينا فى هذا البحث أن نلم بكل ذلك ، لاعطاء صورةواضحة كأتم ما يكون الوضوح لازالة الفرية المفتراة على القرآن فىاتهامه بضرب الرق على أفراد أو جماعات أو أجناس .

وبعد أن أبنا تصحيحالقرآن للافهام واقامةالمعايير الصحيحة لوزن أقدار النـاس وتمـايزهم وتطهير البؤرة التى تنبع منها المفاسد الاجتماعية . بما سردناه من الآيات الخاصة بذلك علينا سرد الآيات التى أراد منهـا القرآن الـكريم اشـاعة روح الرحمـة والتعاطف بين الناس ، لان هـذا الروح الـكريم كان منعدما ، وانعدامه طبع المجتمعات بطابع القسـوة التى تسبب فى كثير من المآسى والموبقات . وهل أقسى من ان تبيح المجتمعات للدائناذا عجز المـدين عن الوفاء بدينه استرقاقه واسترقاق آله وذويه أو بيعه وبيع أبنـائه وبناته وزوجاته كما تبـاع الماشية ؟ لو أن روح الرحمة والتعاطف شائع بين النـاس أكان يحدث هذا العمل الوحشى تحت حماية السلطان واقرار القانون ، ورضاءالمجتمع؟

احياء روح الرحمة والتعاطف بين الناس :

حب الانسان للمـال وتكالبه على جمعه ثم حرصـه عليه وشـحه به أدى الى كثير من الفجـائع ، وطبع المجتمعـات بطابع

القسوة والغلظة . لان حب المال اذا تمكن من انسان سلبه معـانى الانسانية والرجولة . فكثيرا ما رأينا عباد المال لا يعرفون للرجولة معنى . فيفرطون حتى فى اعراضهم لان القيم الانسانية حينذاك تذوب فى نفوسهم ، ولا يبقى قائما أمام أعينهم الا قيمة المــال . فهم لا يبالون ما يرتكبون فى سبيل الحصول عليه . يطففون فى الكيل ، وينقصون فى الميزان . ويغشون ويخدعون ويبخسـون الناس أشياءهم ، ويغدرون بالعهد ، ولا يعرفون للصداقة معنى، الا اذا كانوا يتقاضون ثمنها ، ويفرطون فى الاعراض ولا يحفلون بمروءة ، أو نجـدة ، أو اغاثة ملهوف ، ويسرقون ويختلسون ويقتلون ، ويرتشون ، ويرابون ، ويقامرون ، ويقسون على من يعولون فيبخلون على أنفسهم وأولادهم وآبائهم وأمهاتهم وزوجاتهم ويقفلون قلوبهم ، ويصمون آذانهم ، ويعمون عيونهم ، فلا يفقهون الا لغة المال ولا يسمعون الا رنين المال ، ولا ينظرون الا الى وهج المال وبريقه . ويسخرون بكل شيء الا بالمال وصاحب المال. وقد توعد الله من كانت هذه حالهم بقوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن مـــاله أخلده كلا لينبذن فى الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة انها عليهم مؤصدة فى عمد ممدة » وقوله : « فأما من بخل واسـتغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنـه ماله اذا تردى » وقوله : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون الا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين كلا ان كتـاب الفجار لفى سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به الا كل معتد أثيم اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم أنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون » .

وعيد شديد للذين ران على قلوبهم حب المــال حتى كفروا بالله ، وبالبعث وبرسالة الرسول . وقالوا ان هذا الا أســاطير الاولين . لقد حجبهم ظلام المال عن الحقيقة فضلوا الطريق ، وحادوا عن الجادة وهؤلاء أحط الناس واقذرهم لانهم باعوا كل

شيء بالمال . وارتكبوا كل منكر لاكتسابه حتى الكفر بالله وبالبعث وبالنشور وبالحساب فى اليوم الآخر .

وفريق آخر من الناس يجمعون المال ويشتدون فى طلبه وجمعه ، ثم يشتدون فى الشح والحرص عليه الا لنزوةمن نزوات نفوسهم المظلمة ، فهم يبذلون المال لطلب الشهرة الزائفة والمجد الرخيص ويسخون به فى هذا السبيل . ولكنهم يبخلون به أشد البخل اذا طلب منهم الانفاق فى سبيل الخير ومساعدة المحتاجين. وقد سمى الله هذه النزعة عقبة وحضهم على اقتحامها فقال تعالى « لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وماولد، لقد خلقنا الانسان فى كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد . يقول أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة وماأدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسبغة ، يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة » .

فالذين ينفقون المال المتلبد الكثير فى سبيل الشهرة والمجد الرخيص لا ينفعهم انفاقهم . لان هذا المال لا يصل الا الى أيدى الانتهازيين والوصوليين والمنافقين والمتملقين ، وهؤلاء لا يتواصون بالمرحمة ولا ينفقون المال فى سبيل الله ولكنهم ينفقونه فى سبيل الشيطان .. أما الذين ينفقون الاموال لليتامى وللمساكين وللجياع ولفك الارقاء من ذل الرق أولئك هم أصحاب الميمنة ، لانهم يتواصون بأعمالهم واقوالهم بالرحمة بين الناس . وذلك ما يريده الله ويرضاه . والآيات التى تهدف الى شيوع الرحمة والتعاطف والاحسان كثيرة فى القرآن منها قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كماربيانى صغيرا » .

فالاحسان بالوالدين يأتى فى المرتبة الاولى لانهم أحق بعطف

الابن واحسانه من غيرهما بل ان ذلك فرض انسانى محتم على كل ابن لأبويه .

واذا وسع مال الابن ابويه احسانا وفاض فلمن عداهما من الناس الأقرب فالأقرب يؤيد ذلك قوله تعالى « وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » فالله تعالى يأمر بالاحسان الى كل الناس فهو يذكر الاقرب فالاقرب حتى اذا انتهى منهم أمر بالاحسان الى ابن السبيل والارقاء . على أن يكون المحسن فى احسانه الى كل أولئك متواضعا مهذبا . لا مختالا ولا مفتخرا لان الله لا يحب من كان الاختيال والافتخار من خصاله .. يقول الله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة ، أو معروف أو اصلاح بين الناس . ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » ويقول : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » . فالخير كل الخير عند من يأمرون بالصدقة على الفقراء ، والمعروف للناس أغنياء كانوا أو فقراء والاصلاح بين الناس على أن يكون ذلك لا لشهرة ولا لجاه ولا لنوال نزوة أو شهوة وانما هو لوجه الله يعمل الخير للخير ولا شىء الا الخير . وليس أحسن دينا ممن يسلم وجهه لله ويحسن للناس . ويبشر الله بهذه البشرى الذين يؤمنون به وبرسله ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويقرضون الناس قرضا حسنا ويعدهم كأنما هم يقرضونه تعالى فيقول جل جلاله : « وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » .

وانها لبشرى تهش لها قلوب المؤمنين بالله واى مؤمن لايطير فرحا اذا كان الله معه فى هذه الدنيا يحفظه ويرعاه ويكلؤه . ثم يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ، وما ثمن كل ذلك ؟ أيمان بالله برسله وتعزيز لهم واقامة الصلوات وأداء الزكاة لأصحابها .

واقراض المحتاجين قرضا حسنا لا يبتغى بذلك ربحا ولا مغنما الا ما وعده الله من الربح والمغنم اللذين هما عون الله له فى الدنيا وادخاله الجنة فى الآخرة .

ويحث الله على الاحسان بشتى أنواعه فان كان لديك ما تعطيه للسائل والمحروم والفقير فبها ، وان لم يكن لديك شيء فالكلمة الحسنة ، والمخالقة الحسنة يعدها الله احسانا ويثبت فاعلها . وينهى جل جلاله عن الاساءة لأحد فيقول جل وعلا : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث » وأما من بلغوا المراتب العليا فى توقى الشح والايثار بالموجود ولو كان بهم خصاصة فأولئك هم المفلحون يقول الله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ويزف الله البشرى لمن يجاهد بماله ونفسه فى سبيل الله بأسلوب مشوق فيقول : « يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم » ذلك أكبر فوز وأعظمه عند المؤمنين ولكن الله يقول لهم : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

فالجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ، واطعام الطعام ، ودفع المجاعة عن الناس ، وفك الرقاب ، والاحسان الى الوالدين والأقرباء والاصحاب ، والقرض الحسن ، والتواصى بالمرحمة كل ذلك يحبه الله ويحث عليه . أما البخل والشح والاختيال والافتخار ، وانفاق المال فى سبيل الشهرة والمجد الكاذبين فذلك مما يكرهه الله . تلك هى دعوة القرآن الى التعاطف واشاعة روح الرحمة حتى تزول أشباح الخوف والذل التى تهدد المجتمعات وتهدد آدمية الآدميين . والقرآن الكريم مشحون بدعوة الناس الى البر ببعضهم والشفقة على بعضهم . ومن روح الآيات الكريمة الداعية

الى الرحمة قول رسول الرحمة : « ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء . والراحمون يرحمهم الرحمن » .

فاستشعار روح الرحمة يجعل الانسان لا يتكالب على جمع المال ، ولا يتدنى فى سبيل الحصول عليه ، كما أنه لا يضن به على المحتاجين . أليس كل ذلك اعدادا للنفوس حتى تفعل الخير ، وتتجه الى طريقه وتنتهى عن فعل الشر ولا تسلك سبيله ؟

ان من يستشعر الايمان يستشعر هذه المعانى الجليلة والقيم العالية فى نفسه فلا يقسو على عبد ، ولا يبخل على فقير ، ولا ينهر سائلا ، ولا يقهر يتيما . وبذلك تزول المباينة التى يحس بهـا الأرقاء وترتفع معنوياتهم فيتنسمون نسـيم الراحة من الكابوس الخانق الذى كان يـكبس على أنفاسـهم اجيالا طويلة . وتهيأ انفسهم للمرحلة التى تنتظرهم مرحلة التحررمن الرق ، والتحاقهم بطبقة الاحرار . كما تطمئن نفوس الفقراء فيزول من أذهانهم شبح الخوف الذى كان يهـددهم دائمـا بالرق والذل والهـوان ، لأنهم يحسون بأن الحياة التى يحيونها بعد نزول القرآن تختلف عن حياة الجاهلية ، فلقد كانوا يعيشون فى مجتمع لا يعرف الرحمة ولا يعرف شيئا اسمه القيم الروحيـة . مجتمع قاس غليظ . لكنهم الآن يعيشون فى مجتمع رحيم كريم لا يبخل ولا يقسـو ولكنه ينفق ويبذل ويتصـدق ويحسن والنـاس فيه متعاطفون متعاونون يرحمون الفقير ويطعمون الجائع ولا ينهرون السـائل ولا يبتغون على ما ينفقون أجـرا ولا ربحا ولا عوضا وانما هم يريدون الأجر من الله .

مجرد الاحساس بهذه المعانى هو انقاذ كبير للنفوس المعذبة باحساسها المخيف المزعج الذى كان مهيمنا عليها من قبل .

وانها لدعوة كريمة من القرآن الكريم . وهو يحث على الخير تارة بالترهيب وتارة أخرى بالترغيب . ولم نجد مثل هذه الدعوة فى فلسفة من الفلسفات التى كانت سائدة قبل القرآن فى شتى أقطار الارض .

اصلاح الفساد الاقتصادى :

ان القرآن الكريم لم يقتصر على الدعوة الى البر بالفقراء والأرقاء واليتامى والمحتاجين بالترغيب في ثواب الله تارة ، وبالترهيب من عقاب الله تارة أخرى مكتفيا بذلك تاركا الشئون الاقتصادية على ما كانت عليه من فساد واجحاف . ! بل وجه القرآن عنايته الى اصلاح النظام الاقتصادى الفاسد الذى كان قائما . ووضع للناس نظاما اقتصاديا عادلا وألزم دولة المؤمنين بالقرآن بتنفيذه . والا اعتبرهم مارقين عن هدى القرآن تجب محاربتهم وانتزاع السلطان من أيديهم .

نظام الحكم فى القرآن :

ولذلك فالقرآن لا يحبذ النظام الملكى فلم يختر رسول الله حينما خيره الله بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا لله كسائر الناس فاختار صلى الله عليه وسلم أن يكون نبيا عبدا لله كسائر الخلق وسار بسيرته الخلفاء الراشدون فلم يجنح أحد منهم الى النظام الملكى ٠ لان النظام الملكى ـ كما دلت التجارب الطويلة التى مرت بأجيال الأمم فى شتى الأقطار ـ نظام وراثى يدع السلطة بطبيعة الوراثة تتركز فى أسرة أو عشيرة . وبتركز السلطة تتركز القوة وأسبابها فى أيد قليلة . ويعود ذلك بالناس الى نظام الطبقات ، ونظام الطبقات يجر الى الاستبداد والاستغلال ، فالترف، فالاستخفاف بالحقوق والواجبات وينشأ عن ذلك النظام الكهنوتى فى الدين اذ تنشأ طبقة من العلماء تفتى بحل كل مايضمن مصلحة السلطات ويفسد شئون الأمة . ويرتاح الحكام لهؤلاء المدلسين فيضحكون على الجماهير ويتلاعبون بحقوقها مستندين الى الفتاوى المنحرفة . ويخترعون لهم وظائف دينية يسندونها اليهم ثم لا يؤخذ الا برأيهم ويمعن هؤلاء وهؤلاء فى التضليل والتقرير فيلغى الدين ويحل محله آراء هؤلاء المتفيهقين فكلامهم يستحيل الى دين يجب أن يتبع ، وأشخاصهم تستحيل الى آلهة يجب أن تقدس . ويضاف الى الاسترقاق المادى الذى يحاربه القرآن الاسترقاق الروحى الذى لا يقره القرآن بوجه من الوجوه ، ويؤدى ذلك حتما الى حقد الطبقات الفقيرة وتشيع روح العداوة

والبغضاء بين الحاكم والمحكوم • ويؤدى ذلك الى ضعف الدولة وتوثب أعدائها عليها . أو يجر الى الحروب الاهلية اذ تنجم المذاهب الغريبة التى يتذرع بها المغلوبون على أمرهم فى ثوراتهم .

وقد اعتنقت أمتنا في القديم شتى المذاهب وقامت عدة ثورات بعضها نجح وبعضها فشل ولكن الكارثة هي وحدها التى نجحت على طول الخط. فحل بنا الضعف والتأخر فى شتى الميادين وغزانا الصليبيون والتتار وهدموا مساجدنا ومعابدنا ، ودمروا حضارتنا وأحرقوا مؤلفاتنا التى كانت تحوى علومنا ومعارفنا ثم وثب علينا الاستعمار التركى ثم الاستعمار الغربى • وأعطيت فلسطين لليهود وغير ذلك من المآسى التى حلت بنا . وبذلك تبين لنا فساد النظام الملكى الذى لم يؤد بنا الا الى هذه النتائج . وتجلت لنا حكمة حبيبنا ورسولنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى عدم اختيار الملك وتفضيل العبودية لله على صولجان الملك وتاجه • وكذلك تجلى لنا عمق التفكير ومنتهى الاخلاص للأمة اللذان امتاز بهما الخلفاء الراشدون فى عدم توريثهم الحكم من بعدهم لأبنائهم .

لقد ارتضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمره الله به اذ قال له : « وشاورهم فى الامر » وارتضى أصحابه أن تكون الشورى هى السلطان المهيمن كما قال الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » اذ فى ظل الشورى لا تستطيع طبقة ولا حفنة من الرجال ولا حفنة من العائلات أن تستبد بالأمة وأمورها وأموالها وما منحها الله من خيرات الى الأبد واذا استبدت فما أسرع ازالتها . ونظام الخلافة قديما هو نظام الجمهورية حديثا . الا ما كان من تحديد مدة رئيس الجمهورية فى النظم الحديثة . أما الخليفة فان مدته لا تنتهى الا بموته ما استقام على تنفيذ ما أمر الله به ورضاء الجماعة عن سيرته وأحكامه ولكن تطور الزمن أدى الى تحديد المدة التى يحكم فيها رئيس الجمهورية وما دام ذلك للمصلحة العامة فان الاسلام لا يعارضه . لأن الرسول يقول : « ما يراه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن » •

وقد ذم الله النظام الملكى بقوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا

قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » على مدى الأزمان .

وقال تعالى : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » فالافساد واذلال الأعزة من لزوميات النظام الملكى ـ وكل الناس أعزة مكرمون ـ لأن الله يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم » والمكرم عند الله عزيز عليه . فالظلم والغصب وغير ذلك مما فى هذا المعنى أسنده الله الى الملوك . وفى هـذا كفاية لان تنتبه أذهاننا الى ما فى النظام الملكى من أضرار تحيق بالناس ، ومفاسد تحيط بهم .

وكذلك ذم الله المترفين وجعلهم اشارة لحلول غضب الله ونقمته قال تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وفى بعض القراءات أمرنا بتشديد الميم فاذا ولى الامارة المترفون يفسقون فيحق على من أمروا عليهم القول فيدمرهم الله تدميرا . نعوذ بالله من سخطه وتدميره .

وهل راى الناس من ملوكهم الا الترف ؟ وترف الملوك والامراء هو داعية السخط ومجلبة النقمة لان ترفهم لم يكن الا من اجترائهم على حقوق الناس واستنفادهم لخزائن الدولة ومواردها . وماكنا لنعرض لنظام الحكم فى بحثنا هذا لولا انه شديد الصلة عميق الاثر فى التأثير على النظام الاقتصادى . ولايتسرب الخلل الى الاقتصاد الا من قيام هذا النظام . فلذلك حذرنا القرآن الكريم منه . لان خلل النظام الاقتصادى هو الذى يوقع الناس فى الرق عن طريق الفقر والحرمان الناتجين من استبداد الملوك وأعوانهم .

***

لقد كان يسود المجتمعات نظم اقتصادية فاسدة تحميها نظم الحكم الملكية أو الشبيهة بالملكية حيث يتوارث السلطان الارستوقراطيون أو من كانوا يسمونهم بالاشراف والنبلاء ـ وهم لم يكونوا شرفاء ولا نبلاء ـ بالمعنى الصحيح لهاتين الكلمتين وانما هى مجرد أسماء كانوا ينحلونها أنفسهم مثل لقب جلالة ، وباشا ،

وبك ، ومركيز ، وكونت ، ولورد ، وبرنس ، وأمر وغير ذلك من الاسماء التى مسميات لها (١) .

وكان هؤلاء اقطاعيين يحتكرون الارزاق ومصادرها ويبسطون حمايتهم على أراض شاسعة ، ويستغلون حاجة الناس اليهـا والى ما فيها من خيرات ، ومن أهمها الماء والكلأ والملح والوقود فلا ينال انسان منها شيئا الا بالثمن الذى يفرضونه .

وكانت اغـارتهم على بعضهم البعض ــ ظلما وعـدوانا ــ ديدنهـم ، لانهـا من أهم مصـادر الثروة لديهـم . ولم يكن ذلك مقصورا على العـرب وحـدهم ، وانمـا كان يماثلهم فى ذلك كل الشعوب ، ويستولى الغالبون على أموال المغلوبين ، ويسترقون الرجال والنساء والاطفال ، ويعهدون اليهم بالأعمال فى شتى المهن أما الغـالبون ، فيعتبرون أنفسـهم السـادة المالكين . فينصرفون الى اللهو واللعب بالاموال والدماء والاعـراض . وتلك هى مهنـة الفارغين المترفين .

وكانوا يكتنزون الفائض من الذهب والفضة . وكان القمار من مصادر الرزق بالاضافة الى أنه لعبة محببة الى نفوسـهم . وكان الربا أساس التعـامل بين الدائن والمدين ، وكانوا يحظرون طلب الرزق الحلال على طبقة مخصوصة من الناس ــ كما فعل البراهمة مع الشودرا ــ واذا جمع الشودرى مـالا ، استولى عليه البرهمى دون أن يكون للشودرى حق الاعتراض أو حق المقاضاة ، وكانت اللصوصية والقرصنة وخطف النـاس الآمنين لاسترقاقهم يعتبر عمل الاشراف والعظماء كما كان يفعل الاسبرطيون . ومع كل ذلك فقد كانوا لايعرفون الزكاة أو حقوق الفقـراء فى أموال الاغنياء .

الى غـير ذلك من النظـم المجحفة التى كانت سـائدة قبـل القرآن وسواء فى ذلك الشرق والغرب والعرب والعجم . فلا بدع

---

(١) ان القضاء على هذه الالقاب مشروع واجب الاتباع . وقد فطنت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لذلك فقضت عليها واقتدت بها بعض الشعوب العربية السائرة فى الطريق الصحيح .

اذا اجتاح الاملاق والمسغبة الضعفاء ، فيقتلون أبناءهم أو يبيعونهم ليدخلوا فى زمرة الارقاء . ولابدع اذا عاشت المجتمعات فى قلق مستمر لاتعرف للاستقرار معنى .

فاذا نهى الله عن قتل الاولاد خشية الامـلاق حينما يقول تعـالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشـية املاق نحن نرزقكم واياهم » فان الله لاينهى عن شيء ويترك اسبابه قائمة لاحلول لها .

وقد سن الله نظاما اقتصاديا عادلا لم تعرف البشرية نظاما مثله يستطيع البشر بواسطته الحصول على الرزق فى أمن وطمأنينة وحرية وكرامة .

وقد رأينا فيما تقدم كيف عمل القرآن على اشـاعة روح الرحمة والتعاطف فى المجتمعات .

ونتحدث الآن عن النظام الاقتصـــادى الذى فرضه القرآن للقضاء على كل ماكان قائمـا من النظم الاقتصادية الفاسـدة ، ليأخـذ كل ذى حق حقـه من رزق الله الذى وسـع الجميع ، فلا يسترق انسان انسانا مثله لانه جائع ، أو لانه فقير ، أو لانه عجز عن الوفاء بدينه ان كان مدينا .

نظرة القرآن الى الارض :

ولما كانت الارض هى المصدر الاول لكل أرزاق الناس بل هى المصدر الاول لكل أسباب الحياة فقد احتفل القرآن بها فجاء ذكرها (فى ثلاثة وستين وثلثمائة موضع) .

والاستشهاد فى هذا البحث لايقتضى ذكر الآيات الخاصـة بالارض جميعها . فنكتفى بما ينير لنا الطريق ويرشدنا الى مايجوز من امتلاك الارض وما لايجوز ، ولمن يكون حق الامتـلاك ، ومتى يمتلك وكيف يمتلك ؟؟

ان الارض فى القرآن ليست ملكا لاحد ، وانما هى ملك الله والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها هذه الآيات :

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض »

« ولله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير »

« لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء »

« يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون »

« ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون »

« له مقاليد السموات والأرض »

الى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الارض ملك الله وفى الحديث الشريف « ان الخلق عيال الله » وقد وضع مالك الارض أرضه لعياله . وجعل كل مافيها لهم فقال تعالى : « والارض وضعها للأنام » وقال : « هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا » وقال : « كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين » وهو اذ نهانا عن الافساد فيها طلب الينا عمارتها فقال : « هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها » وجعلنا سبحانه خلائفه الارض ليبلونا فيما آتانا فقال : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » .

وترك لنا أمر الولاية عليها وتوعدنا أن نحن أفسدنا ، ووصف المفسدين بالصم العمى المتقفلة قلوبهم الملعونين فقال تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها » .

وواضح من هذه الآيات البينات أن الله هو مالك الارض وقد وهبها للناس جميعا ، لم يختص بها ناسا دون آخرين . وأباح لهم الانتفاع بكل ما فيها وجعلهم خلائف عليها ، وأمرهم الا يفسدوا فيها ويقطعوا أرحامهم والناس كلهم ذوو قربى فكلهم لآدم وآدم من تراب . فطلب منهم عمارتها .. وولاهم أمرها وأمر تدبيرهـا بتدبير القرآن ووهب لهم الاسماع والابصار والقلوب لئـلا تكون لهم حجة يحتجون بها على الله بل له الحجة البالغة عليهم . وقال لنا سبحانه : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وقد بين لنا الرسول ما نأخذ وما ندع فقال صلى الله عليه وسلم :

« الناس شركاء فى ثلاث : الماء ، والكلأ ، والنار ، وسأل أحد الصحابة الرسول عما لايحل بيعه فأجابه عليه السلام « الماء والملح » .

فأصبح لدينا أربعة أشياء لا يجوز لاحد احتجازها لنفسه وصد غيره عنها .

أولا : ـ منابت الكلأ وهى تشمل الجبال والاحراش وبطون الأودية (والكلأ) ماتأكله الانعام من عشب وحشائش ، يقول الله تعالى : « والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم » . ويقول : « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » ويقول : « أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وانفسهم أفلا يبصرون » والارض الجرز التى لانبات فيها . فهو جل شأنه الذى يرسل اليها الماء من السماء وينبتها بقدرته نباتا فيه متاع لنا ولأنعامنا ولم يبذل انسان جهدا فى ذلك فالناس فيها شركاء ومن احتجزها لنفسه واستغل حاجة الناس اليها ، يعد معتديا على حقوق الله التى وهبها لعباده .

ثانيا : ـ منابع المياه وهى تشمل البحار ، والانهار ، والآبار ، والعيون . يقول الله تعالى : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره وسخر لكم الانهار » ويقول جل وعلا : « وهو الذى سخر لكم البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون» ويقول : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره » ويقول : « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » ويقول : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » ويقول : « وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم » ، ويقول « وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا » يقول : « أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا » ويقول : « أفرايتم الماء الذى تشربون أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون »

ويقول : « وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قــدر »
ويقول : « هو الذى أنزل من السماء مــاء لكم منه شراب ومنــه
شجر فيه تسيمون » ويقول : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
نسلكه ينابيع فى الارض ، الى غير ذلك من الآيات .

فينابيع الميــاه وما فيها من أسماك ولؤلؤ ومرجان وعنبر
وأصداف وغير ذلك من خيرات البحار والانهار وما فى الجبــــال
من معادن كل ذلك للناس جميعا ليس لاحد على أحد فضل فيها
يأخذ منــه الناس كما شــاءوا وليس لاحــد أن يمنع أحدا منهــا .
وليس لذلك قيمة الا قيمة الجهد المبذول من فرد أو جماعة لان
من حصل على شيء من هذه الاشياء لم يتحصل عليه الا ببــذل
الجهد والعمل فان ملكه فانما يملكه لما بذل من جهد لا لأنها وقف
عليه ، وما ينطبق على ذلك ينطبق على الكلأ والاخشاب وماشاكل
ذلك . كما سيأتى :

ثالثا : ــ مصادرالوقود وتشمل : الشجر ، والفحم الحجرى
والنفط ، والقوة الكهربائية ، يقول الله تعالى : « أفرأيتم النار التى
تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحــن المنشئون نحن جعلناهــا
تذكرة ومتاعا للمقوين » .

و « المقوون » الحاضرون والمســافرون من غني أو فقير .
فان الجميع محتاجون اليها للطبخ والتدفئة والاضـــاءة وغير ذلك
من المنافع . كذا قال المفسرون فيمايختص بالشجر عند تفسيرهم
« للمقوين » . أفلا يحق لنا والحالة هذه أن نقول : وحكم الفحم ،
والنفط ، والقوة الكهربائية كحكم الشجر ؟ وان كان فى استخراج
الفحم والقوة الكهربائية والنفط جهد انسانى مبذول ، ولابد لهذا
الجهد من ثمن . فعلى الدولة أن تشرف على استخراج هذه الأشياء
وتقدمها للناس بثمن لا يبهظهم ولا يرهقهم ، ثمنــا يستطيع دفعه
الفقير قبل الغنى وان لم يكن للدولة حاجة الى الثمن فعليها ان
تمنحهم ذلك مجانا ، لا أن يكون لفرد أو لشركة تستغل حاجــة
الناس الى هذه الاشياء استغلالا فظيعا ، يرهق الناس ويكبدهم
مالا طاقة لهم به ، ثم تتسرب الاثمان الباهظة الى حفنة قليلة من
المستغلين والمحتكرين لخيرات الله التى وهبها لعباده » .

أما مافاض عن حاجة الناس فترجع أثمانه للجماعة ، تصرف على مرافقها واحتياجاتها من تعليم وتصنيع وعلاج وتنمية لموارد رزقها ، كالزراعة وتمهيد الطرق وتنظيفها ، واعانة المحتاجين ، ورفع المستوى المعيشي والثقافي والصحي للحـــاضرة البادية على السواء ، حتى لايبقى فى الجماعة محتاج أو محروم ، أو من تدفعه المسغبة والفاقة الى أن يدخل نفسه أو أبنــــاء فى حظيرة الرق من أي نوع كان . وذلك ماصنعه ويصنعه المنصفون من الناس . فما بالك بمن يدين بالقرآن ويحتكم اليه ويحميه . ان أتباع القرآن أولى من غيرهم باتبــاع كتاب الله الــذى لا يأتيه البــاطل . بل ان الواجب أن يكونوا هم قدوة الناس حتى لا يدعوا الجاهلين بالقرآن والمنتسبين اليه يستوردون المــذاهب الاقتصادية والاجتماعيــة من الشرق أو الغرب . فان فى قرآننا من النظم مالو اتبعناه لكنا قبلة الناس ومحل اقتباسهم وتقليدهم والأخذ منا والتقى عنــا لان ذلك حكم الله ، وحكم الله ليس فيه اجحاف على أحد « ومن لم يحــكم بما أنزل الله فأولئــك هم الفاسقون » والقرآن ونبى القرآن يحثاننا على النظر والتبصر وتحــرى العدل فى الاحــكام والعدالة فى الارزاق ، ولم يأمرانا بتجميد أفكارنا وتعطيل أذهاننــا عن أعمالها وتوخى المصلحة العامة والقرآن مشحون بالآيات التى تحثنا على التبصر والتفكير والتدبر ونبى القرآن يعــد الاجتهاد فى توخى المصلحة العامة توفيقا من الله . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبــل حينما بعثه قاضيا على اليمن : « بم تقضى يامعاذ ؟ فقال : بما قضى به الله تعالى . قال الرسول فان لم يكن . فقال : بما قضى رسول الله صــلى الله عليه وســلم . قال الرسول : فان لم يكن . قال : أجتهد ولا آلو . فقال : الحمد لله الذى وفق رســـــول الله الى مــا يرضى الله ، فالاجتهـــاد فى تحرى العدل والعدالة والمصلحة العامة توفيق من الله . أما ترجيح مصلحة فرد على مصلحة الجماعة فذلك زيغ وانحراف عن كتــاب الله وسنة رسوله . وبخاصة فيما يمس أرزاقهم ومعايشهم . وحريتهم وكرامتهم . لأن الله كرم الجميع ، ولم يختص أحــــدا بميزة الا ميزة التقوى والتقى لا بالتعدى على الحقوق والواجبات .

رابعا : ــ مناجم الملح ويشمل ما فى البحار وما فى الجبال ..

وقد ورد فى الاثر أن النبى صلى الله عليه وسلم منع بيع الماء والملح .

فهذه الاشياء الاربعة ضروريات أولية للحياة ، الناس كلهم فيها سواء . اذ هي رزق الله من صنع يديه وهبها لخلقه . وقال الله تعالى فى شأنها : « والارض مددناهاوألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » وقال المفسرون : « ان الحسن وعكرمة وابن زيد قالوا فى تفسير « من كل شيء موزون » أنه عنى به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والكحل والحديد ونحو ذلك . وأدخل بعضهم الزعفران . فالله تعالى هو الذى أنبت لنا هذه النعم ، وجعلها معايش لنا ولعيالنا ومن لم نرزقهم ممن لم يكلفنا برزقهم فان لهم حق الارتزاق منها وليس لاحد أن يمنعهم عن الارتزاق لان الله يقول : « ومن لستم له برازقين »

لقد كان الطغاة والظلمة يحمون منازل القطر ومنابت الكلأ قديما وما زال الطغاة والظلمة يحمون موارد الرزق ومناجم الكنوز والخيرات حديثا ، ويستغلونها لأنفسهم ولمن يواليهم والاسلام يمنع ذلك اذ يقول الرسول الكريم : « لاحمى الا لله ولرسوله » وما كان لله ولرسوله فهو للناس جميعا وليس للدولة أن تحمى شيئا الا اذا كانت المصلحة العامة تقتضى ذلك . كأن تكون الجماعة فى حالة حرب مع غيرها . فلابد أن تحمى كل مايكفل النصر على الأعداء والحماية تفرض على ماكان مشاعا بين كل الناس وما كان ملكا وذلك مافعله عمر بن الخطاب والحاكم لايحمى لنفسه ولكنه يحمى لنفع الجماعة . ولايمنع الضعفاء وأصحاب الملك ان حمى ملكا لاحد . فقد قال عمر بن الخطاب حينما حمى (الشرف والربذة) لمن وكل اليه الحماية : « أضمم جناحك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فان دعوة المظلوم مجابة وادخل رب الصريمة ، ورب الغنيمة ، واياك ونعم بن عوف ونعم بن عفان فانهما أن تهلك ماشيتهما يرجعان الى نخل وزرع . وان رب الصريمة ورب الغنيمة أن تهلك ماشيتهما يأتيانني ببينة يقول يا أمير المؤمنين أفتاركهم أنا ؟ لا أبالك فالماء والكلأ أيسر على من الذهب والورق وأيم الله أنهم يرون أنى ظلمتهم وأنها لبلادهم قاتلوا عليها فى الجاهلية

وأسلموا عليها في الاسلام ، والذى نفسى بيده لولا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله ماحميت على الناس بلادهم » . وهذا صريح فى أن الحاكم ليس له أن يحمى لنفسه ولا لعشيرته وماحمى عمر الارض المشاعة الا لمصلحة المسلمين . وتقوية المجاهدين فى سبيل الله . ولكنه فى نفس الوقت لم يمنع من لديه ماشية من أن يرعاها وبخاصة اذا كان صاحب الماشية أبا لعيال لأن منعه من رعى ماشيته . يفرض على عمر اعطاءه مالا لئلا يموتوا جوعا فعلى الحاكم الذى يريد أن يحمى للمسلمين ألا يضر أحدا بما حمى وهذا عين ماتفعله الامم الحديثة فى زمن الحرب . فانها تضع يدها على جميع مرافق البلاد لضمان الانتصار على الاعداء .

أما تمليك الارض المستثناة من كل ما قدمنا فلا يكون الا لمن عمل . فالله سبحانه أعدل من ان يحرم العامل ثمرة عمله ، يقول الله تعالى : « وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

فعمل اليد هنا هو زرع الارض وحرثها وحصادها وغرس الاشجار ونصبها وكل شىء يبذل الانسان فيه مجهودا كتلقيح الاشجار وتوبير النخيل . ورعاية كل ذلك وتعهده حتى يبلغ الثمر منتهاه . فمن يعمل كل ذلك لايمكن أن يذهب عمله سدى ، أو يتساوى مع غيره فيه ممن لم يعمل ولم يبذل جهدا . ولذلك ضمن القرآن جزاء العمل فقال : « ولن يتركم أعمالكم » اى لن يسلبكم اياها بل يوفيكم ثوابها . ولاينقصكم منها شيئا ويقول تعالى : « انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى » فحقوق العمل محفوظة للذكر والانثى على السواء .. ولايمكن أن يتساوى العامل المجد بالمهمل الكسول .

فاذا وضع الله الارض للأنام ، وجعل لنا كل مافيها من خيرات ظاهرة ومخزونة ، فقد أبان الله ورسوله لنا سبيل الملكية فيها . فكل مالا يحتاج الى بذل الجهود الانسانية فى ايجاده فالناس كلهم فيه سواء . ومن رحمة الله بعباده أن الضروريات الاولية لاتحتاج الى جهد للحصول عليها ، كالارض ،والماء ، والهواء ، والملح ، والكلأ ، والنار . فعلى الارض نحيا ، وفى جوفها ندفن

موتانا ، ومنها نتحصل على أقواتنـــا ومعايشنا . ويقاس على ذلك كل شيء تحتاج اليه حياة البشر فى كل مراحلها ان كانوا بدائيين ، أو متحضرين ، أما ماكان يأتى من ضروريات حياتنـــا فى المرتبـــة الثانية فان ذلك سبيله الجهد والعمل ومن هنا كان التفضيل فى الرزق وذلك قوله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فىالرزق » فمن جهد أكثر نال رزقا أكثر فاذا أردنا الكساء فسبيله الغزل والنسيج ، واذا اردنا المأوى فسبيله التعمير ، وكل الموادالصالحة لذلك موفورة (مجـــانا) لمن يعمل ــ واذا أردنا الخبز فســبيله الزراعة واذا أردنا اللحم فسبيله الصيد فى البر والبحر . فمن عمل فله ثمرة عمله حقا شرعيا يمتلكه . وقد أحل الله لنا الصيد فقال : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وقال : « فاذا حللتم فاصطادوا » وقال : « أحلت لكم بهيمة الانعام » .

وأحل لنا الزراعة فقال : « وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنـــا فيها جنات من نخيـــل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملتهأيديهم أفلا يشكرون » .

وطلب الينا عمارة الارض « واستعمركم فيها » .

فمن اصطاد او زرع أو عمر فله أن يمتلك صيده أو زرعه او عمارته وحثنا على العمل فقـــال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

وهو اذ يحل لنا كل ذلك ويحضنا عليـــه يأمرنا أن نأكل من طيبات مارزقنا وينهانا عن الطغيان فيه فيقول « كلوا من طيبات مارزقناكم ولاتطغوا فيه فيحل عليكم غضبى » أما العمل المشروع الذى لاطغيان فيه فهو مجلبة لرضاء الله علينا .

والتمليك نتيجة العمل المشروع أمر مشروع فى القرآن وقد قال من لاينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى : « من أحيا أرضا ميتة فهى له » وقال : « من عمر أرضا ليست لاحد فهو أحق بها» وقضى عمر بن الخطاب بذلك فى خلافته . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من أحاط حائطا على أرض فهى له » .

ومن اقطعته الجماعة متمثلة فى حكومتها ارضا فهى له على شرط احيائها فان مضت عليه ثلاث سنين دون أن يحييها أو يعمرها فللجماعة متمثلة فى حكومتها انتزاعها منه • فان احيا جانبا منها فله بقدر ما احيا أو عمر : وينتزع مابقى ويقسم على غيره من أفراد المحتاجين لأن القصد من الاقطاع التعمير والاحياء والانتفاع وافادة المجتمع من ذلك . وليس المراد منه الاحتكار والاستغلال • أما ترك الارض مواتا فذلك نقص فى كفاية المجتمع ودليل على انه مجتمع مجدب من الجهود الانسانية والايدىالعاملة والاذهان المتفطنة . وما جدب الارض الا دليل على جدبالنفوس من الحركة وحب العمل ، وما من مجتمع نشيط عامل مجد ، الا وهو فى خصب ورخاء . ونماء مطرد ، وما من مجتمع كسول خامل الا وهو فى جدب وجوع وذل وخنوع . والحكومة الرشيدة هى التى تتفطن لذلك ولاتدع الجمود يقف بها وبمجتمعها موقفا جامدا غير متحرك .

وهذا مافطن اليه عمر بن الخطاب فقد انتزع الارض من مالكها حينما عجز عن تعميرها واحيائها . وقصة ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أقطع بلالا بن الحارث المزنى (العقيق) أجمع فلم يستطع تعميره . فلما تولى عمر بن الخطاب الخلافة دعا بلالا اليه وقال له : « يابلال انك استقطعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا طويلة عريضة ، وان رسول الله لم يكن يمنع شيئا يسأله ، وانت لاتطيق مافى يديك . فقال بلال : اجل . فقال عمر : فانظر ماقويت عليه منها فأمسكه ، ومالم تطق فادفعه اليناانقسمه بين المسلمين • فقال بلال : لا أفعل شيئا أقطعنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : « والله لتفعلن » ثم أخذ ماعجز عن عمارته وقسمه بين المسلمين » هذا فعل عمر رضى الله عنه فى أرض أقطعها الرسول لرجل من اصحابه . . وماكان لعمر أنيفعل لولا تفطنه للهدف الذى يهدف اليه الرسول من هذا الاقطاع وهو الاحياء والتعمير . فلما لم يحقق الرجل أهداف الرسول انتزع عمر منه الارض الزائدة عن حاجته . واعطاها للمسلمين ليتحقق هدف النبى صلى الله عليه وسلم والنبى يقول : « عادى الارض لله ولرسوله ثم لكم من بعد فمن أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس

لمحتجز حق بعد ثلاث سنين ، رواه أبو يوسف فى كتاب الخـــراج عن ليث بن طاووس .

وهذا التصرف من جانب عمر تصرف سليم لفهم صحيح مستقيم ، يتمشى مع روح القرآن الكريم ، واهــداف الرســول الاصلاحية . والرسول يقول : « الحق يدور كيفما دار عمر » .

واذا كان الحاكم لا يمثل الجماعة كأن يكون حكمه لهم دون رضاهم وانمـــا حكمه لهم بقوة الحديد والنار ، والسيوف المصلتة والسجون المطبقة فلا حرمة لما يقطع من أرض ، وما يهب من مال ، لان مثل هذا الحاكم لا يرعى الله فى خلقه • فان وهب من مال الدولة او أقطع شيئا من اراضيها فهو رد . لانه انما يقطع ويهب الاهل والاشـــياع ومن ليسوا فى حاجـــة . ورائده من وراء ذلك تقوية مركزه لا المصلحة العــامة ، وعلى القضـــاء الحــكم برد الحقوق لاصحابها ولو بعد زمن طويل ، وتلك هى شريعة القرآن التى حكم بها الخلفاء الراشدون والقضاة العادلون .

فهذا عمر بن عبد العزيز ـ وقد اجمعت الامة والاجيـــال المتعاقبة على أنه خامس الخلفاء الراشـــدين ـ ينزل على حــكم القضـــاء العادل ويرد أرضا ورثها عن أبيه ، لان امتلاكهـــا كان فى الاساس بطريقة غير مشروعة . وقصة ذلك ان عبد الملك بن مروان اهدى لاخيه عبد العزيز ارضا بحلوان مصر . فاخذ عبد العزيز ينفق عليهـــا ويستثمرها ، فلما مات آلت لعمر ، فلمـــا ولى عمر الخلافة جاءه صاحب الارض واخبره أن عبد الملك اغتصب أرضه وأهداها لاخيه عبد العزيز وقد آلت اليك ـ يا أمـــير المؤمنين ـ فأعد الى أرضى . هذا ماقاله المصرى لعمر . فأجابه عمر بقوله : « نحتكم الى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما أنزل الله . فان لى شركاء أخوة وأخوات ، لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضـــاء قاض » .

ووقف الخليفة مع المصرى فى ساحة القضاء موقف الانداد ، وتكلم كل منهما بحجته ، فقضى القاضى برد الأرض لصـــــاحبها • فقال عمر : قد انفقنا عليها ألف ألف درهم فقال القاضى : « لقد أكلتم من غلتها بقدر هذا » فاطمأنت نفس عمر وأعـــــاد الأرض

لصاحبها ، وقال للقاضي : « لو حكمت لى لما وليت لى عملا ، وهل القضاء الا هذا ؟ »

فهاتان حادثتان ترينا احداهما انتزاع الارض ممن لم يستطع اصلاحها وتقسيمها على المسلمين ، كما فعل عمر بن الخطاب مع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلال بن الحارث المزنى.

وترينا الثانية انتزاع الارض مع القدرة على اصلاحها لانها أخذت غصبا ، وردها لاصحابها كما فعل عمر بن عبد العزيز عند نزوله على حكم الله الذى نطق به قاض من المسلمين .

فالقرآن الكريم يحرص على المصلحة العامة حرصه على مصلحة الفرد ، وكل ملكية فيها بغى على العامل ، أو فيها بغى على مصلحة الجماعة لايقرها القرآن . فالقرآن لايحرم العامل من عمله . وكذلك لايقر العاجز على امتلاك ماعجزت عنه قدرته ، ويقف فى وجه التعدى أين كان وممن كان . والحاكم فى القرآن امين على المحكومين ، حريص على حقوقهم ، يعمل لمصلحتهم ، ويرد عدوان المعتدين عنهم . أما اذا كان الحاكم هو المعتدى فانه برىء من القرآن ، وممن نزل عليه القرآن ، وممن يدينون بالقرآن لان اعتداء الحاكم ومنافقة القضاء له يصيبان المجتمع بكثير من المآسى المفجعة ، وافجع مآسيه احالة المجتمع الى قطيع من البهائم أو جماعات من الرقيق المستعبد تسوقها طبقة الحكام والقضاة الى مايزرى بالانسانية ، وحينئذ يستحيل المجتمع الانسانى الى شىء لاشخصية له ، وذلك يتنافى مع تكريم الله لخلقه .

والمجتمع الذى يرضى بذلك يكون مسئولا عن تفريطه فيما أكرمه الله به لانه لم يثب للدفاع عن كرامته ، وللاحتفاظ بما منحه الله من حرية وتفضيل وبما أنعم الله عليه من خيرات الارض الظاهرة والمخزونة ، وبما أعطاه الله من حق المشاركة فى الحكم ، والمشاورة فى تدبير الأمور ، وهو مسئول عن سكوته على عبث العابثين ، وافساد المفسدين لاموره .

ومادام الفرد يأبى الا أن يدافع عن ماله وعرضه ودمه ــ والشرع يقره على ذلك ــ أفلا يكون دفاع المجتمع عن الانفس

والأموال والاعراض والدماء مشروعا ! بلى ! بل انه أكثر مشروعية واشد حتمية ...

ونعود الى حديثنا عن الارض . فلقد تبين لنـــا مما تقدم أن من أحيا أرضا أو عمرها أو أحاطها بحائط فهى ملك له . على أن لاتطغى هذه الملكية على حقوق الجماعة ، ولاتجحف بمصلحتها ، ولرسول القرآن هدى فى ذلك لابد من بيانه لنرى الى أى مدى بلغ الحرص على المصلحة العامة فى الاسلام .

جاء فى الجزء الثـالث من صحيح البخارى « حدثنـا محمد بن مقاتل أخبرنا عبد الله أخبرنا الاوزاعى عن أبى النجاشى مولى رافع بن خديج : سـمعت رافع بن خديج بن رافـع عن عمه ظهـير بن رافع قال ظهير : لقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر كان بنا رافقا . قلت : ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حق قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : « ماتصنعون بمحافلكم ؟ .. (المحافل : حقـول الزراعة) قلت : نؤجرها على الربع ، وعلىالاوسق من التمروالشعير . قال : لاتفعلوا . ازرعوها أو أمسكوها ، قال رافع قلت : (سمعا وطاعة) .

وجـاء أيضـا فى صحيح البخـارى فى نفس الجزء الثالث (حدثنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا الاوزاعى عن عطاء بن جابر — رضى الله عنه — قال : كانوا يزرعونها بالثلث ، والربع ، والنصف) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها ، أو ليمنحها ، فان لم يفعل فليمسك أرضه » .

وجاء أيضا فى صحيح البخـارى « قال الربيع بن نافع أبو توبة : حدثنا معـــاوية عن يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فان أبى فليمســـك ارضه » .

هذا هو هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأن الارض المملوكة الصالحة للزراعة الفائضة عن حاجة صاحبهـا ، اما أن يزرعها بنفسه ، واما أن يمنحها لاخيه ممن لايملك أرضا ليزرعها

وينتفع بها ، واما ان يمسك أرضه ، فاذا امسكها انعدم نفعه بملكيتها ، وحينئذ تكون المنحة أولى من اهمالها . وحينما علم عبد الله بن عمر نهى الرسول عن كراء المزارع ترك كراء مزارعه . وقال : كنا نكرى أرضنا ، ثم تركنا ذلك حينما سمعنا حديث رافع ابن خديج .

وجاء فى المحلى لابن حزم بالجزء الثامن (ومن طريق أبى داود والسجستانى ، قرات على سعيد بن يعقوب الطالقانى قلت احدثكم : عبد الله بن المبارك عن سعيد أبى شجاع ، حدثنى عيسى ابن سهل بن رافع قال : انى يتيم فى حجر جدى رافع بن خديج وحججت معه فجاء أخي عمران بن سهل قال : « أكرينا أرضنا فلانة بمائتى درهم » فقال : دعه فان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن كراء الارض ، وعن عمى نافع نحوه » ولقد كان السلف الصالح يأتمرون بأمر النبى وينتهون عما ينهى عنه ، وكان عطاء ومكحول ومجاهد والحسن البصرى ـ وهم من ائمة السلف ـ يقولون : لاتصلح الارض البيضاء بالدراهم ولا بالدنانير ولا معاملة الا أن يزرع الرجل أرضه أو يمنحها ، وقال الشعبى : فذلك الذى منعنى ، ولقد كنت من اكثر أهل السواد ضيعة » .

والحكمة واضحة فى هدى الرسول صلى الله عليه وسلم . فمالك الارض لايملك انباتها ، انما الذى يملك ذلك الله تعالى ، وقد جعل الله الجهد الانسانى سبب الانبات ، فاذا بذل انسان مجهوده فى انبات الارض فبأى حق يشاركه انسان آخر فى ثمرة جهده وعرقه ؟ ان أساس الملكية العمل ، فلابد لمالك الارض أن يشارك بمجهوده لتحق له المشاركة فى ثمرات الارض ونتاجها ، فاذا دفع ثمن البذور الزراعية ، أو أسهم مع العامل فى الارض بمجهوده ، أو فى احضار ماتتطلبه الزراعة من أدوات كان له نصيبه مما تنتج الارض ، من ثمر ونبات ، بحسب الشروط المشترطة بينهما .

ويقول السيد عبد الحميد الخطيب فى كتابه « أسمى الرسالات » : (ولقد اثبتت الايام ، ودلتنا التجارب على أن تأجير الارض بالمزارعة سبب تكاسل ملاكها عن العمل باستثمارها

بأنفسهم مما تدره الزراعة على المزارعين من اموال وخيرات كثيرة وادى الامر الى وجود طبقة عاطلة من العمل تعيش فى الحياة على مجهود غيرها من الايدى العاملة . لعلها هى المعنية بقول بعض الحكماء : رجال الاعمال فى الدنيا ثلاثة : التاجر فى متجره ، والزارع فى مزرعته ، والصانع فى مصنعه . ومن عداهم عالة عليهم كشجر اللبلاب) .

وحكمة أخرى تشرق على الاذهان من هدى الرسول الكريم فالله أرسل رسوله رحمة للعالمين اذ يقول تعالى : (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) وجاء الاسلام لمحاربة الرق فى كل الوانه واشكاله ، فاذا كان لمالك الارض أن يؤجر أرضه : فانه يستكثر من الارض بما يتضخم لديه من محصولاتها مما يزيد عن حاجته ، ويؤدى ذلك الى نجوم الاقطاعيات الكبيرة حيث يتضخم الثراء فى أيدى فئة قليلة ، وتطل علينا نتيجة لذلك مأساة الرقيق الاقطاعى الذى تأباه روح القرآن العادلة الرحيمة .

أما اذا لم يستطع مالك الارض زراعتها عجزا أو استغناء ، وفى نفس الوقت لايستطيع تأجيرها لانه ممنوع شرعا عن ذلك ، فليس أمامه الا منحها لمن لا أرض له ، أو امساكها ، فان امسكها ومرت ثلاث سنوات على ذلك فللجماعة بوساطة ممثليها الحق فى انتزاعها منه ـ كما فعل عمر رضى الله عنه حينما انتزع أرض بلال كما رأينا آنفا ـ واعطائها لمن هو فى حاجة اليها لان تركها بدون احياء ليس من مصلحة الجماعة فى شىء بل هو ضار بالمجتمع اذ تصيبه بالجدب ، وتقف حائلا بينه وبين النماء والرخاء .

أما الذين يستدلون على جواز تأجير الارض بأن النبى صلى الله عليه وسلم اتفق مع يهود خيبر على اعطائهم الارض على أن يقوموا بسقى النخيل ولهم نصف الثمر ، فانهم يخلطون بين النهى عن المزارعة من جهة ، وبين اقرارها من جهة أخرى ، ويقولون : ان هذا العمل نسخ أقوال النهى ، ويثيرون مشاكل هم ونحن فى غنى عن اثارتها لانها نتيجة لسوء الفهم .

لقد آلت خيبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الجهاد فى سبيل الله فقسمها فيئا بين المجاهدين ، أما الخمس

الذى هو لله ولرسوله فقد أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود خيبر على خدمته بنصف الثمر ، لانه للجماعة ، وليس لفرد من الافراد فحكمها حكم الثروة المؤممة التى تنفق على المصالح العامة ، ومنها الانفاق على المجاهدين فى سبيل الله ، والمجاهدون هم الذين يردون اغارة المغيرين وعدوان المعادين . ولم يخرج هؤلاء اليهود عن اعتبارهم مواطنين أعفوا من الجهاد ليقوموا بواجب الزراعة ، فان أخذ الرسول نصف مجهود المزارعين فانما يأخذه فى مقابل مجهود الحماية ، وبعكس المزارع المسلم ، فان عليه أن يخرج للجهاد ويترك زراعته لانه لم يعف من التجنيد للجهاد ، ويؤيد هذا ماقاله عمر بن الخطاب « لولا آخر المسلمين مافتحت قرية الا قسمتها بين أهليها — أى المجاهدين — كما قسم النبى صلى الله عليه وسلم خيبر » لان عمر ارتأى تأميم أرض الفىء حينما فتح العراق والشام وحينما روجع من بعض فقهاءالصحابة رضوان الله عليهم قال مامعناه : انى ان قسمتها على المجاهدين فماذا يجد أبناء المسلمين ممن يأتون بعدنا ؟ .

وهذا الرأى يتمشى مع قوله تعالى (لئلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) لقد رأى عمر المسلمين فى ازدياد ودولتهم فى اتساع وسيزداد توالد المسلمين على الايام ، فان قسم الارض على المجاهدين توارثها أبناؤهم من بعدهم . وبذلك يصبح فى الامة فئة قليلة تملك الارض ، والأكثرية لا أرض لها ، فيختل توازن المجتمع . وهدى القرآن ورسول القرآن يهدفان الى تعادله لاالى اختلاله ، ولقد استشف عمر روح التشريع الاسلامى ، ورأى على ضوئه رأيا صائبا فأمضاه ، وعمر هذا كان ينزل القرآن موافقا لرأيه فى حياة الرسول ولقد حسبت له سبع عشرة آية كانت موافقة لما ارتآه عمر ، ثم ان عمر لم يستبد برأيه وانما أجمع الصحابة على امضاء فعله والاجماع من أمثال هؤلاء الذين لا يلتوون ولا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، تشريع واجب الاتباع ، وهذه هى القصة ننقلها بنصها : قال عمر — لما فتح الله على المسلمين العراق والشام ردا على من أرادوا قسمة الارض بين فاتحيها ، والاحتفاظ بالخمس فقط للمصالح العامة — فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض بعلوجها قد اقتسمت . وورثت عن

الآباء ؟ ماهذا برای ! » فقال له عبد الرحمن بن عوف : (فما الرای ما الارض والعلوج الا ما أفاء الله عليهم) فقال عمر : (ما هو الا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله لايفتح بعدى فتح فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فاذا قسمت ارض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد بها الثغور ؟ ومايكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟) فأكثروا على عمر ، وقالوا : نقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ؟! ولابناء قوم ولابناء أبنائهم لم يحضروا . فكان عمر لايزيد على أن يقول : هذا رأيى ، قالوا : فاستشر ، فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا ، فأما عبدالرحمن ابن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، وكان رأى عثمان ، وعلى ، وطلحة ، وابن عمر ، رأى عمر ، فأرسل الى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم واشرافهم فلما اجتمعوا قال : انى لم أزعجكم الا لان تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فانى واحد كأحدكم ، وانتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لان كنت نقطت بأمر أريده ما أريد به الا الحق . قالوا : قل نسمع يا أمير المؤمنين .

فذكر لهم وجه الخلاف فأيدوا رأيه . فقرر ابقاء الارض بأيدى أهلها وضرب الخراج عليها ، وسكت المخالفون اتباعا للرأى الغالب .

ويقول الاستاذ عبد الرحمن عزام الامين السابق للجامعة العربية فى كتابه (الرسالة الخالدة) تعليقا على هذا : « هذا مثل من تصرف تلميذ الرسول وخليفته في أمر جاء به نص وهو نفسه يسلم بهذا النص . غلب عمر رضى الله عنه الرأى الذى قضت به المصلحة العامة التى رآها ورآتها الاغلبية من عقلاء المسلمين أهل الشورى .

فالشريعة المحمدية لاتقف مكتوفة اليدين متى بانت المصلحة العامة بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذى لن

تتجاوزه . فاقامة توازن اجتماعى يرفع به شر الحاجة عن المحتاج ويستقيم معه العدل والتأمين الاجتماعى هو اكبر مهـام الدولة الاسلامية ، ومسئولية الامام واهل الشورى فى ذلك واضحة .

والدعوة التى لايتردد صاحبها واتباعه فى اقامة ميزان العدل الاجتماعى على أساس المصلحة العامة لايمكن ان تقوم الخصومة بين انصارها على أساس المصالح الطائفية الدنيـوية ، فالمصلحة لاتتجزأ ، والطوائف لا وجود لها حتى كان الكل عبيداً لله متساوين وكانت مصلحة الكل فوق مصلحة الفرد والطائفة .

انتهى ماقاله الدكتور عبد الرحمن عزام ، وتعليقنا عليه أن عمر لم يخالف نصا ، وانما هو فقيه يعرف روح التشريع القرآنى فالقرآن الكريم يكره أن يكون المـــال دولة بين الأغنياء ، وتوزيع الأرض على المقاتلين فقط يجعلها دولة بينهم ، ولم يبق لأجيـــال المسلمين المقبلة غير الحاجة والعوز . فهو أبى الا أن يؤمم الأرض ليحقق مايريــده القــرآن . الا تراه يقول : للعشرة الذين طلبهم لاستشارتهم فى الأمر « ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى معكم من الله كتاب ينطق بالحق » .

اذن فالرسول لم يزارع اليهود الا فى القسم الخاص بالدولة فى مزارع خيبر ، فالذين يقولون : ان هذا التصرف من الرسول ينسخ قوله بالنهى عن المزارعة اخطأهم الصواب ، والقاعدة الفقهية أن الأخذ بقول الرسول مقدم على الأخذ بفعله ، لأن من أفعـــاله ما كان خاصا به لا للتشريع . والأمثلة على ذلك كثيرة .

لقد كان لعمر بن الخطاب أرض خيبر أصـابها من الفيء . فجاء للرسول صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها ، فقال يارسول الله : انى أصبت أرضـا بخيبر لم أصب مالا قط هو أنفس عنـدى منه . فقال الرسول : « ان شئت حبست أصلها وتصدقت بهـــا ، قيل : فتصدق بها عمر على أنه لا يبـــاع أصلها ، ولا يورث ، ولا يوهب ، فتصدق بها على الفقراء ، وذى القربى ، وفى الرقاب ، وفى سبيل الله وابن السبيل ، ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف أو يطعم صديقا غير متمول مالا » .

ارايت كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر عمر بأن يقف أرضه لله ، لينفق نتاجها فيما تنفق فيه أخماس الغنائم .

وهذه الرواية تؤكد لنـــا أن النبى لم يزارع اليهود الا على الخمس الخاص بالدولة ، وعلى الارض التى أخذت بدون حـــرب ، والتى مآلها لله ولرسوله ومابحوزة الدولة . لايجوز سريانه على معاملة الأفراد بعضهم لبعض لأن المصلحة هنا فردية .

***

ان هدى الرسول لايتناكر ولايضرب بعضه بعضا ، ولكن الفقهاء يتناكرون وتضطرب آراؤهم ، فيحدثون بذلك جدلا فيما لايحتاج الى جدل .

لقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم ــ وهم حضور بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ هديه على صحته ، فقال رافع ابن خديج حينما نهــاه الرسول عن المزارعة : « سـمعا وطاعة » وحينما بلغ عبد الله بن عمر نهى الرسول عن كراء الارض انتهى عما نهى عنه الرسول ، ولم يقم منهم احد يقول للرسول : كيف تصنع ما تنهانا عنه ؟ ولم يكن الرسول يمنعهم من المناقشـــة والاعتراض مادام رائدهم الاقتناع .

فلو كانت مزارعة النبى لليهود تشريعا لمزارعة الأفراد بعضهم لبعض لما جاء عمر بن الخطاب يستأمر النبى صلى الله عليهوسلم فى ارضه التى أصابها فى البلد التى حصلت فيه مزارعة الرسول لليهود فى خيبر ، ولوسعه أن يصنع بأرضه ماصنع الرسول فى الخمس الذى مآله للجماعة ، ولكن من أين للفقهاء فقه عمر وفهمه؟ ومن أين لهم فهم رافع بن خديج وعبد الله بن عمر ؟؟

اللهم ان الحكمة بينة ، والحجة واضحة . وذلك ما يتمشى مع الروح العامة للقرآن .

* * *

وحصادنا من كل ما تقدم أن الاسلام يقر الملكيات الصغيرة ، ولا يقر الملكيات الكبيرة ، فهو فى تشريعاته يحرص على عدم تمكين

الفرد من امتلاك ما يزيد عن طاقته ، ويفيض عن حاجته ، ويقف سدا منيعا أمام ملاك الأرض حتى لا يمكنهم من استغلال جهود من لا أرض لهم ، وبذلك يترك العـامل فى الأرض مطمئنا على جهده سيعود عليه وحده دون أن يشاركه فيه أحد الا من أسهم معه فى الجهد المبذول •

وبذلك يرضى نزعة التملك ، ولكنه يضع حدا لهذه النزعـة ، لا تتعداه • ليكون المجتمع متوازنا ، والناس متقاربين • ومجتمع هذا تشريعه لا يمكن أن تتضخم الثروة فيه عند فريق من الناس ، ويتضخم الفقر والاملاق عند فريق آخر كما هو الحال فى النظـام الرأسمالى السائد فى الغرب ، وليس فيه اجحاف بحقوق الفرد وكبت نزعاته كما هو الواقع فى النظام الشيوعى ، وانما هو نظام وسط تنزه عن مساوىء الشيوعية والرأسمالية ، وحقيقة انه نظام وسط ، يصلح للأمة التى جعلها الله وسطا بين المشرق والمغرب كما يقول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وفى هـذا النظام لا يذوب الفرد ذوبانا نهائيا لمصلحة الجماعة ، ولا تذوب الجمـاهير ذوبانا نهائيا لمصلحة الافراد ، ولو أن المسلمين ساروا فى حيـاتهم على هدى رسولهم لما تسللت الينا المذاهب الأجنبية • لأن القرآن أقام لنا بتشريعاته حصنا منيعا يرد عنا عاديات الأفكار المنحرفة والنظم المجحفة ، ولو أننا طبقنا هدى القرآن تطبيقا عمليـا فانى لست بشاطح فى الخيال اذا قلت : لكنا قبلة أهل الارض جميعا فى الأخذ منا والاقتباس من نظامنـا وشريعتنا ، ولكنا تركنا القرآن وراء ظهورنا حتى ساءت حالنا • وأخذ الشباب وغير الشباب يتلمسون المخرج فى نفايات الأفكار وسواقط النظريات •

ان الناس فى البلاد الشيوعية رقيق لنظريات يريد الحكام تطبيقها ، وتلك النظريات تتنافى مع الميـول والنزعات التى تزخر بها النفس البشرية من حب للتملك ، وشعور بالكرامة ، واعتداد بالنفس ، وتكوين للأسرة ، عدا ما فيها من حنين خفى الى المثـل والأشواق الروحية •

والشيوعية تلغى كل ذلك من حسابها ، وهى تستطيع الغـاء

ذلك لو أنها تستطيع خلق البشر خلقـــا جديدا مجردا من هذه المشاعر التى جبل الله البشر عليها ٠

أما فى الغرب فان الشعوب رقيـــق لحفنة من المســـتغلين والاحتكاريين ٠ يفرضون الاحتكار والاســـتغلال بالعدوان المسلح واراقة الدماء الزكية البريئة ٠

والشيوعية والرأسمالية كلتاهما مجردتان من الايمان بالله ٠ فهم يرتكبون ما يرتكبون لأنهم لا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب ٠ فأى رادع يردعهم عن ارتكاب ما يرتكبون ؟

والشيوعيون يصارحون العالم بالحــادهم ٠ أما دول الغرب فانها تخادع وتنافق فى الحادها ، تغريرا للنـــاس ، وابقاء على المصالح ٠ ليتكتل المغفلون حولها فى صراعها مع الشيوعية ٠

***

اننا لسنا شيوعيين ، ولا نحب أن نكون شيوعيين ، وكذلك نحن لسنا رأسماليين ، ولا نحب أن نكون رأسماليين كالغربيين ، ولكننا قرآنيون ، ونحب أن نطبـــق النظريات القرآنية الخاصة بالاقتصاد فى القرآن ، لئلا نكون رقيقا لحفنة من النـاس ، ولئلا نكون رقيقا لنظرية منحرفة لا تعترف بما جبل عليه الناس ٠

الدفائن والمعادن :

لقد مر بنا فيما تقدم قول الله تعـــالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » وقلنا ان المفسرين قالوا : « ان الحسن وعكرمة وابن زيد قالوا فى تفسـير كل شئ موزون : انه عنى الشئ الموزون كالـــذهب والفضـــة والرصاص والكحل والحديد » والله يقول فى تمام الآية : «وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » وما دامت فيهـــا معايش للنـــاس فليس لأحد الحق فى احتجازها عنهم وجاء فى صحيح البخارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العجماء جبار ، والبئر جبار ، والمعـدن جبار ، وفى الركاز الخمس » وجبار يعنى

هدر (١) . فكما أنه لا يجوز لأحد أن يحتجز ماء البئر فليس لأحد أن يحتجز المعادن يعني مناجم المعـــادن . أما الركاز وهو الذهب المدفون ، أو الفضة المدفونة ، أو ما في حكمها مما يماثلها مما دفن في زمن الجاهلية أى في العصـــور الغابرة ففيه الخمس وأربعة أخماسها لمن وجدها . وقد كانت الدفائن التى وجدت على عهـــد الرسول قليلة محدودة وليست هي كدفائن الفراعنة ضخمة كثيرة بدليل ما جاء في الجزء السادس من المحلى لابن حزم « بعث على بن أبى طالب الى رســـول الله صلى الله عليه وسلم بذهيبة فى أديم مقروظ لم تحصل من ترابهـا فقسمها بين أربعة نفر : عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس . وزيد الخيل ، وذكر رابعا وهو علقمة ابن علاثة ، فهذا دليل على أن الدفينة كانت شيئا قليلا محدودا حتى أن الرسول قسمها بين أربعة نفر . أما الدفينة التى تحتوى على

---

(١) ان السياق في الحديث يوضح فساد الرأى الذى ذهب اليه بعض الفقهاء حينما قالوا : معناه أن من سقط في بئر أو انهال عليه معدن فمات فدمه هدر . لأن آخر الحـــديث « وفى الركاز الخمس » يوضح أن المسألة لم تكن مسألة تشريع جنائي ، وانما هى مسألة تشريع اقتصـــادى ، اذ أن الموضوع موضوع ضريبة الركاز وليس هو موضوع جريمة وعقاب . فالعجماء هي البهيمة الضالة ، والبئر ماء ، والمعدن ثروة ، فالبهيمة الضالة والماء والمعدن لا حق لأحد فيها فهى جبار أى ملك للجميع وربما كان اختيار النبى صلى الله عليه وسلم للفظة جبـار وعدوله عن لفظة هدر لحكمة . فلو وجد صاحب العجماء الضالة بعد التصرف فيها ، ووجد المعدن في أرض مملوكة لشخص معين ، ووجد الماء كذلك في أرض مملوكة لأحد فيجبرون بشيء يجبر كسر نفوسهم لأن الامام مالك يقـــول . من وجد فى أرض معدنا سقطت ملكيته عنه . ولـكن هذا لا يعنى أن لا يأخذ قيمة أرضه فان المعدن لا حق لاحد فيه وهو ملك الجماعة . ولكن صاحب الارض يجبر بدفع قيمتها أى يعوض وكذلك صاحب العجماء الضالة اذا عرف ، ومثله صاحب الارض التى وجد بها الماء فجبار مأخوذة من مادة جبر ، والجبر اصـــلاح الكسر معنويا أو ماديا . ومنه جبر الفقير أى أغناه .

ثروة ضخمة فيكون حكمها حكم المعدن . وقد روى مالك رضى الله عنه : « ان من ظهر فى أرضه معدن فانه يسقط ملكه عنه ويصير للسلطان » أى للجماعة مثل ماء البئر تماما . ورأى مالك هـــذا لا يتناكر مع قوله تعالى : « وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » وقول الرسول : « المعدن جبار » كالعجماء والبئر ، بل هو يتفق مع الروح السائدة فى تشريعات القرآن من عدم الاكتناز، وعدم الاحتكار ، والنهى عن الترف لتتقارب الطبقــات ، وتتحقق العدالة الاجتماعية ، وهل يتحقـــق كل ذلك لو أن القرآن يبيح احتكار المناجم لفرد أو لافراد من الناس ؟ لقد رأينـــا المحتكرين وأصحاب الامتيازات يستغلون كل ذلك اســـتغلالا مرهقا وبدون مبالاة ما داموا يحققون لأنفسهم مصالحهم وقدرتهم على الانفـــاق للاذهم وشهواتهم وحياتهم المترفة التى ينهى عنهـــا القرآن . ان بعض الفقهاء ــ عفا الله عنهم ــ لا يستشفون روح القرآن وأقــوال الرســـول فيقعون فى الأخطاء ، وبعض المسلمين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض الآخر . فيقعون فى أخطاء أشد ، وليت الأخطاء يقتصر ضررها عليهم وحدهم اذن لهان الأمر . ولكن أخطاءهم تصيب المجتمـــع بأضرار مميتة . وبذلك يدعون الفرصة للجاهلين بالاسلام ولأعداء الاسلام متاحة لطعن الاسلام واتهـــامه بالجمود والرجعية . وبأنه دين قد استنفد أغراضه ، وأنه لا يصلح للقرن العشرين ، وما بعـــد القرن العشرين . كبرت كلمـــة تخرج من أفواههم ، ان قول مالك رضى الله عنه حينما يرى : « ان من ظهر فى أرضه معدن يسقط ملـكه عنه ، ويصير للسلطان » انمـــا يعنى بذلك التأميم بلغة العصر الحديث ، لأنه يفترض فى السلطـــــان حرصه على حقوق الجماعة ، لا كما هو واقـــــع السلاطين والملوك والأمراء اليوم . وان كنا نفخر بشىء فليس أعظم ولا أجدر بالفخر من القرآن الكريم ، لأنه شرع لنا تأميم الثروات العامة ومصادرها منذ أربعة عشر قرنا تقريبـــــا ، بينما الأمم الاخرى لم تشرعه الا متأخرة جداً . فهى لم تشرعه آلا فى أواســـط القرن الذى نعيش فيه .

وانه لمما يحز فى النفس أن يكون للمسلمين مثل هذه الآيات البينات ، ومثل هذه التشريعات المحكمة العـــادلة الرحيمة منذ

أربعة عشر قرنا من الزمان · فيهملها المسئولون عنا والقابضون على أزمة أمورنا ، ويتتبعون - قديما وحديثا - سير الملوك فى عصور الجاهلية ويعيشون عيشة ملوك فارس ومهراجات الهند وفراعنة مصر ، ويعيدون سيره المناذرة والتبابعة ، ويبددون ثروات بلادهم فى الملاذ والمهازل ، ويجعلون بلاد المسلمين عزرة ، وتاريخ المسلمين وصمة ، ويدعون كل ذلك يوصم به الاسلام · والاسلام برىء منهم ومما يعملون · ثم تنخلع قلوبهم فزعا لقولة الحق اذا جهر أو همس بها قائلها · وهم على ما هم فيه من انحراف عن الحق ، واغراق فى الباطل ، وانغماس فى الترف ، واعتداء على الحقوق يحملون شعارات الاسلام ، ويزعمون التمسك بالقرآن والسنة ، ولا يتلون قول الله وهو يخاطب أحد أنبيائه « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ولا ينصتون لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » وفى رواية « لم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة » وقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشدق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى فرفق بهم فارفق به » وقوله صلى الله عليه وسلم « من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة» ·

هذه شعارات الاسلام الصحيحة فهل هم يسيرون فى الناس بسيرتها ؟

ان الشعارات القرآنية ليست لحى مسبلة ، وعمائم منصوبة كشواهد القبور على رءوسهم وليست المساويك والمسابح · ولكنها العمل لمصلحة المسلمين ورخائهم ، والعدل فى أحكامهم والعدالة فى أرزاقهم ·· بحيث يصبح المجتمع الاسلامى مجتمعا قويا ، غنيا ، صحيحا ، سليما نظيفا ، وعالما ، مستنيرا ، متمدينا ، لا مجتمعا تهزأ المجتمعات الانسانية من جموده وتأخره ، وفقره ، وجهله ، ومرضه ، وضعفه · ويستهين به أعداؤه ويسطون على حوزته ،

وينتقصون من أطرافه ، ويشردون أبناءه ، ويحتلون متـــازلهم وديارهم ويسكنون بها مشردى العالم · فيهددون أمننا ومقدساتنا· ويشرفون على تخومنا اشراف الذئب على الغنم الضالة · كما هـــو موقفنا الآن مع اسرائيل وبريطانيا وفرنسا وأمريكا وغيرهم ·

***

الحروب وغنائمها :

أمرنا الله تعالى بترك الناس أحرارا فى معتقداتهم وأديانهم ، فليس لنا أن نكره أحدا على اعتقاد معتقداتنا أو التدين بديننا · فحرية الناس مكفولة مقدسة واجبة الاحترام · فى القرآن الكريم يقول تعالى : «لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» ويقول: « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى ســـبيلا » ويقول : « فذكر انمــا أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ، الا من تولى وكفر » ·

هذه الآيات البينات فيما يختص بالحرية واضـــحة مبسطة لاتعقيد ولا التواء ولا لبس فيها · وأمرنا جل جلاله بالوفاء بالعهود والعقود فقال تعالى : «وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا» فيجب أن لا ننكث بعهودنا مع من تعـــــاهدنا معهم أيا كانت ألوانهم أو أديانهم ، أو أجناسهم · وآية ذلك قوله تعالى : « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهــدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين » وقوله : « الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين » ·

ونهانا الله عن سفك الدماء ، وقتــل النفوس البريئة ، قال تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومن قتـــل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فــــلا يسرف فى القتل انه كان منصورا » وأمرنا الله بعدم العدوان على أحد فقال تعالى : «ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » وقوله : « ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين » الى غير ذلك من الآيات التى تنهى عن العدوان · هــذا

عدى قرآننا فى صـلاتنا ببعض وسواء أكانت الصلات فردية أم دولية فان الحكم فيها واحد ، لنعيش مع العالم فى أمن واستقرار وسلام ، ونقيم تعاملنا مع الناس على أسـاس من الشرف والأمانة والحب والصداقة ، واحترام المشاعر الانسانية ، وتطبيق المثـل العليا لأن الله خلقنا شـعوبا وقبائل لنتعارف لا لنتناكر ويضرب بعضنا وجوه بعض ٠

ولذلك أمرنا الله أن ندعو الى خير الانسانية بالحكمة واللطف قال تعالى : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وأن نجنح الى السلم يقول تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » ٠

وعلينا أن لا نجادل أهل الكتاب الا بالحسنى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » ٠

ولكن الله الذى جبل البشر قد علم أن البشرية تأبى الحيـاة ترفرف عليها أعلام الأمن والاستقرار والمحبة والتعاون ، لأنهـا لا تخلو من ذوى النفـوس الشريرة الذين لا يسرهم الا أن يغرقوا البشرية فى بحر من الدماء والدمار والخراب فيثيروا الاحقـاد والبغض والطمع والجشـع فى القلوب ٠ ويؤدى ذلك الى العدوان والحروب ٠ فقال لنا الله فى محـكم كتابه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وأمرنا سبحانه باعداد العدة لرد العدوان فى كل عصر بما يلائمه فقال تعالى : « وأعدوا لهـم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ٠

فاذا كان هذا العصر يقتضى أن تكون عدة الحرب الطـاقة الذرية والهيدروجينية والأقمار الصناعية فعلينا أن نعدها ٠

ولكن الكهنوت الدينى الذى قام فى مجتمعاتنا منذ أمد طويل حرم علينا تعلم كثير من الفنون والعلوم حتى أصبحنا فى مؤخرة الناس ٠

ان الله الذى يقول لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » لا يمكن أن يحرم علينا تعلم أى علم نصل به الى القوة والمنعة لحفظ كياننا ورد العدوان عنا ٠ ولعل ما وصلت اليه حالتنا يكون عظة

لنا ، فلانتبع الجامدين والرجعيين ممن يقال لهم - زورا وبهتانا - علماء الدين .

ان الدفاع عن النفس يقتضينا الحرب لحفظ كياننا والاحتفاظ بمقدساتنا ودمائنا وأعراضنا . ولذلك شرعه الله لنا فقال : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قلْ : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » نعم لا بد لنا أن نقاتل من يقاتلنا ما دام المعتدى يكرهنا على خوض حروب ما أشعلناها ولم نرد أشعالها ذلك حكم الله وحكمته لنعيش فى ديارنا أعزة أحرارا ، نشعر بآدميتنا ونستمتع بنعم الله التى أفاضها علينا ، أما من أراد استلابها منا . فليس له عندنا غير القتال . فلنعد للقتال عدته ان كنا مؤمنين بكتاب الله . ومن عدة القتال أن نتكتل وأن نتحد ، ونقف صفا واحدا أمام أعدائنا ، ولذلك ينهانا الله عن الفرقة بقوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » ويقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

فالذين يدعون الى الفرقة ، والذين لا ينضوون تحت لواء الوحدة يكونون كالذين عناهم الله بقوله : « كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم» وزيادة على العذاب يفشلون وتذهب ريحهم .

فاذا جعلنا أعداؤنا بعدوانهم علينا مضطرين لخوض غمار الحرب ضدهم ، خضناها دفاعا عن آدميتنا وحقوقنا ومقدساتنا . فمن نكث عهودنا قاتلناه ، يقول الله تعالى : « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون الاتقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول

وهم بداوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » ومن قاتلنا قاتلناه ، يقول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وقد وضع رسول الله آدابا للحرب ووصايا أوصى بها ٠ فقد كان عليه الصلاة والسلام اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ويقول : « أغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال : فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ٠ ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، فان أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أبوا فسلهم الجزية ، فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ٠ واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ٠ ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ٠ فانكم ان تخفروا ذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ٠ واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » ٠ هذه وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحاربين ، وانها لوصايا انسانية عالية ، يأمر الرسول الجيوش باجتناب المغالاة (أو الاختلاس) ، والغدر ، واجتناب قتل الأطفال ، وبالتسامح مع الاعداء ٠ فأى شىء يختاره الاعداء مما يعرض عليهم يجب اجابتهم اليه ٠ فليس الغاية من محاربتهم شهوة فى الانتقام أو نزوة تدفع للاعتداء ، وكل ما يراد من محاربتهم رد عدوانهم ووقفهم عند حدهم لئلا يظن بالمسلمين الضعف أو الخوف أو الاستخذاء فاذا حق لنا عليهم النصر أصبحت أموالهم ودماؤهم بين أيدينا وتحت تصرفنا ٠ فما هو هدى القرآن فى ذلك ؟؟

ان القرآن الكريم يقول فيما يختص بالأسرى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم» . هذا هو حكم الله في الأسرى ، اما اطلاقهم منا عليهم وقربى الى الله تعالى وحرصا على مكارم الاخلاق التى يدعو القرآن دائما اليها ، واما أن يفتدى الاسرى أنفسهم بالمال ، أو نفتدى أسرانا الذين بأيديهم بأسراهم الذين هم بأيدينا . وهذه الاخيرة هى : « المعاملة بالمثل » التى يتعامل بها كل المتحاربين .

ومن كان يحسن القراءة والكتابة فيكفى أن يفتدى نفسه بتعليم عشرة صبيان القراءة والكتابة ، كل ذلك فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده .

أما قتل الأسير فلم يحدث الا عند اقتضاء المصلحة العامة ، ومع ذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أمر بقتل النضر ابن الحارث بعد أسره فى غزوة بدر بكى حتى اخضلت لحيته من الدموع حينما سمع قول ابنة الحارث وهى ترثى أباها ، وتخاطب الرسول بقولها :

أمحمد ولأنت نسل نجيبة
في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما
من الفتى وهو المغيظ المحنق

وقال : « لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه » . ولم يقتل النضر ولا غيره لأنهم أسرى وانما قتلوا لجرائم أخرى ، وما كان لعلماء الأمة أن يجمعوا على عدم قتل الأسير لولا أن ذلك هو هدى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعذيب الأسير ، ولا بالتمثيل به ، فقد أسر فى غزوة بدر سهيل بن عمرو العامرى وكان خطيبا مفوها ، وكان حربا على رسول الله ودعوته . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو ، فلايقوم عليك خطيبا في موطن أبدا . فقال الرسول الكريم : « لا أمثل به فيمثل الله تعالى بي ، وان كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه » .

وقد أسلم سهيل ووقف قدرته الخطابية على نصرة الحق وقام مقاما محمودا عندما حصل الاضطراب بمكة لوفاة الرسول عليه السلام ...

ولم يحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ايلام الأسرى ، فقد بات عليه السلام ساهرا فقيل ما سهرك يا رسول الله ؟ فقال « لأنين العباس » فقام رجل وأرخى وثاقه ، وفعل ذلك بالأسرى كلهم . ومر بلال بامرأتين يهوديتين أسرتا بعد القتال تبكيان على القتلى وكان فيهم أقرباؤهما فأخذت احداهما تصرخ ، وتحثو التراب على رأسها فقال الرسول لبلال : « أنزعت منك الرحمة يابلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟؟ » وكانت احدى الامرأتين صفية أم المؤمنين التي تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد أطلق الرسول كثيرا من الأسرى منا بلا فداء ، ولم يقتصر منه صلى الله عليه وسلم على العرب ، بل شمل غير العرب ، فقد من على بني قينقاع وهم يهود وكانوا سبعمائة رجل غير نسائهم وأطفالهم ، مع أنهم كانوا يتبجحون ويقولون للرسول : لا تظننا مثل قومك ، انا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » ومع تبجحهم هذا نكثوا العهد الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، وانتهكوا محارم المسلمين . فلما أظفر الله نبيه بهم ونزلوا على حكمه من عليهم وأعفاهم من القتل والأسر ، فلم يشاءوا بعد ذلك المقام بالمدينة وجلوا عنها .

وقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح على أهل مكة ، وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولما انتصر على هوازن في وقعة حنين استأنى صلى الله عليه وسلم على السبي بضعة عشر يوما لعل أحدا من ذوي النساء والذراري يستشفع فيهم ، فلما لم يأته أحد قسمهم على المجاهدين، ثم بعد قسمتهم جاء رجال من هوازن ـ قد أسلموا ـ فسألوا

الرسول رد أموالهم ونسائهم وأبنائهم فقال لهم الرسول : قد وقعت المقاسم موافعها فأى الأمرين أحب اليكم أطلب لكم السبى أم الأموال ؟؟

فاختاروا نساءهم وأبناءهم : فقام رسول الله خطيبا في الناس قال : أما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين ، واني قد رأيت أن أرد اليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه اياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل • أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » — يخاطب المستشفعين — فقال المهاجرون والأنصار — رضى الله عنهم : ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم : وتابعهم من بقى من الناس •

وفي غزوة (المريسع) بعد أن انتصر المسلمون ، واستاقوا الأسرى والغنائم قسمها رسول الله بين أصحابه ، ثم تزوج عليه السلام جويرية بنت الحارثة سيد بنى المصطلق • فلما سمع الصحابة بزواجه عليه الصلاة والسلام منها قالوا : أصهار رسول الله • واعتقوا من كان بأيديهم من الأسرى رجالا ونساء وأطفالا •

فنحن نرى من هدى القرآن ، وهدى رسول القرآن أن الأسر لم يكن الا لضرورة أملتها حاله الحرب ، لئلا يطمع الأعداء فى المسلمين ، ولئلا يبدو المسلمون فى أعين أعدائهم عديمى البصيرة والحزم فى مثل هذه الظروف •• وهو اجراء واجب الاتباع • لقوم يكتنفهم الأعداء ، والمتربصون بهم من كل مكان فلا بد من الحزم فى أوان الصراع •

ولا نشتم من هذه المعاملة أية ارادة لاسترقاق الناس واستعبادهم ، كما رأينا فى تاريخ الأمم الشرقية والغربية ، فأين هذه المعاملة من المعاملة التى كانت متعارفة فى الحروب الماضية ؟؟

ومع أن ضرورة الحروب المشتعلة بين المسلمين وأعدائهم تجعل هذا الاجراء ضروريا فان الروح الانسانية الرحيمة كانت هى الطابع البارز فى معاملة الافراد والجماعات • فقد كان الرسول يوصى بالأسرى خيرا • فمن أسلم أخرجه ايمانه من الأسر •• ومن

علم عشرة من غلمان المسلمين خرج من الأسر ، ومن افتدى نفسه بشيء من المـــال خرج من الاسر ، وعلى اسريهم فى حالة أسرهم اطعامهم وايواؤهم وتدفئتهم من البرد ، وعـــدم ارهاقهم بالعمل ، وعدم اشعارهم بالامتهـان والذل ، ويستوى فى كل ذلك الاسرى من العرب ومن اليهود ، ومن النصارى ، ومن غيرهم بلا مفاضلة ، لأن القاعدة التى يعامل الناس على أساسها قول الله تعالى : «ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بقوله (اطعموا الجائع وفكوا العانى) والعانى هـو الأسير فهو يطلب منهم فكاكه ،

اذن فالأسر لم يكن الا اجراء مؤقتا ، اقتضته ظروف الحرب وضرورة الكفاح ، والدليل على ذلك تبشير الاسرى بمغفرة الله لهم ، وتعزيتهم فيما أخذ منهم منمال لافتداء أنفسهم من الاسر ، ماداموا قد انتهوا عن الشر والخيانة ومحاربة الله ورسوله ، يقول الله تعالى: « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » ، وكما ان الله يأمر نبيه بتبشير الاسرى الاخيار بالمغفرة وتعويضهم عما أخذ منهم فان الله يتـــوعد الذين ما زالت تنطوى قلوبهم على الخيانة والغدر ، يقول الله تعالى : « وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » ويقول تعالى : «قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سـنة الأولين » ،

هذا هدى الله ورسوله فيما يختص بأسرى الحروب ، لااذلال ولا ارهاق ولا استرقاق ولا اهدار للآدمية ، ولا غمـــط للمواهب والملكات الانسانية ولا اعتبارات مجحفة تجعلهم آلات حية مجردة من الفهم والتمييز كما يقول أرسطو وغيره من الفلاسفة المنحرفين ،

ونكتفى الآن بهذا القدر ، وسنعود الى الموضوع فى مكانه وانما أتينا بهذا لاقتضاء السياق ، أما هدى الله ورســوله فيما يختص بالغنائم منمال وعتاد وأثاث وماشية وأنعام وملابس وطعام

فقد بينه الله تعالى بقوله : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان • يوم التقى الجمعان • والله على كل شيء قدير » فالخمس لله ولرسوله وما كان لله ولرسوله فهو ما يصرف على الدولة ورئيسها • وللمحتاجين وللأضياف • وأربعة الاخماس الباقية تقسم على المجاهدين ، للفارس سهمان أو ثلاثة أسهم بحسب الظروف والأحوال ، ولغير الفارس سهم واحد • والملاحظ فى التشريع الاسلامى فى كل ما يختص بالثروات وتوزيعها فيما رأينا مما سبق ، وفيما سنرى فيما سيأتى بيانه • أنه يجعل فى المقدمة الصرف على مرافق الدولة، والصرف على المحتاجين والأضياف ، حتى لا يحرم فقير ولا مسكين ولا يتيم ولا عابر سبيل من نصيبه فى المال العام ، وألا تهمل مرافق الدولة فى كل زمن بما تقتضيه المصلحة •

***

التجارة والصناعة والزراعة :

وقد أباح القرآن الكريم العمل لاكتساب المال ، وتنميته للفرد وللجماعة عن طريق التجارة والصناعة والزراعة • بل حث عليه • فقال تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » وذكر الله فى شتى الأعمال يحيى الضمائر فلا يغش التاجر فى تجارته ولا الصانع فى صناعته ، ولا الزارع فى زراعته ، ويؤدى كل عمله وقلبه يلهج بذكر الله ، ومن يخش الله يتقن حرفته ، ويؤدى عمله على الوجه الأكمل • وجاء فى الأثر : «ان الله يحب عبده المحترف»• والله يحب من المرء اتقان عمله •

فليس لأحد أن يحتكر التجارة ، كما أنه لا يجوز احتكار صنف للمتاجرة فيه ، ومنع الغير من المتاجرة فيه ، وما ينطبق على التجارة ينطبق على الزراعة والصناعة ، فكل من يتقن عملا من الاعمال التجارية أو الصناعية أو الزراعية ليس لأحد منعه من مزاولة ما يتقن • الا ما كانت مزاولته عملا منهيا عنه شرعا •••

والشريعة الاسلامية لا تنهى عن عمل الا حرصا على مصلحة المجتمع وسلامته ، وسـلامة أفراده من الفساد والانحـلال والامراض والأوبئة · وقد أفاضت كتب الفقه فيما يحل وما لايحل العمل فيه والارتزاق منه · فليرجع اليها من أراد التوسع فى ذلك ·

***

التوريث :

وأحل الله الارث ، ونظمه تنظيما دقيقا رائعا ، فمن مات عن ثروة فلذويه أن يرثوه بالأسـهم والترتيب الموضحين فى القرآن ، مما لا يتسع المجال هنا لتبسيطهما · والذى يهمنا فى بحثنـا أن تقسيم المواريث فى القرآن لا يجحف بالورثة كما تفعـل النظم الأخرى ، حتى فى العصر الحديث فان بعض النظم الغربية تجعـل للولد الأكبر كل ما خلفه له أبـوه من ثروة · وبعضها يميزه عن غيره بأشياء كثيرة حرصـا على الاقطاعية واللقب · وبذلك تبقى الثروات مجمدة فى أيدى طبقة مخصوصة من الناس ، ويصـاب المجتمع الذى يخضع لهذه النظم المجحفة بضرر بالغ ·

أما نظام الوراثة فى الاسلام فهو يفتت الثروة حتى لا تكون « دولة بين الاغنياء » ويعدل فى القسمة بين الوارثين ، بل ويجعل لقرابة الميت ممن لاحق له فى الارث ولليتامى والمساكين من غـير ذوى القربى نصيبا فى الثروة الموروثة · يقول الله تعالى : « واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه »·

ذلك هو نظام الارث فى القرآن · وهو لا يهمل شأن الفقراء واليتامى والمساكين والضيوف والارقاء وكل أصناف المحتـاجين ، ويذكرهم ويذكر الناس بالبر بهم · وعدم حرمانهم ، لئلاتسـوء حالتهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، لتصبح بحق مجتمعات انسانية مشرفة ·

ونخلص من بحوثنا المتقدمة بأن الامتلاك لا يكون فى الاشياء الضرورية لحياة الناس كالماء والهواء والكلأ والوقود · ولا يجوز

امتلاك مصادر الثروات كالمناجم الزاخرة بالثروات العـامة التى خلقها الله لتكون معايش لعباده ·

وليس لأحد أن يمتلك أرضـا يعجز عن تعميرها جهده ، أو تفيض عن حاجته ، ولا يجوز بعد ذلك اغتصاب حقوق الغير ·

ولنا أن نمتلك من الارض ما يتسع لجهدنا ولسد حاجتنا ·

ولنا أن نمتلك بالعمـل والاحتراف بكل أنواعه من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وغيرها · وأحلت لنا المغانم فى الحروب كما بينها الله تعالى فى كتابه ، وكما سنها الرسول الكريم لنا بسنته

ولنا أن نمتلك بالارث الشرعي كما أوضحه الله ورسوله ·

تلك هي حقوقنا في الامتلاك · أما أبرز الاشياء التى لايصح أن تكون وسائل مشروعة لاحراز الحق فهى كالآتى :

الربا :

لقد حرم الله علينا الربا لما له من الآثار السيئة فى المجتمع الانسانى · ومن أسـوأ آثاره اشـعال نار الحقد والضغينة فى الصدور مما يسبب نتائج فاجعة ، سواء أكانت تنزل هذه الفجائع بدافع الربا أم بآكله أم بالمجتمع الذى يعيش فيه الفريقان · ان آكل الربا انسان تجرد قلبه من كل معانى الرحمة والشفقة · ومن كل شعور انسانى · فهو يقسو على المحتاجين من أبناء مجتمعه ، ولا يبـالى بالكوارث التى تنزل بهـم وبأسرهم وفيهم الأطفال والنساء · فهو لايهمه الا المال وتنميته وملء خزائنه به ، ولو كانت على الأنقاض والاشلاء وخراب الديار · ومن سجايا المرابى البخل والكزازة والقسوة والشـح والغلظة والاستهتار بالمثل الانسانية العليا · واذا تفشت هذه الصفات فى أمة تفشت فيها كل الموبقات التى تضر ولا تنفع ، وتهدم ولا تبنى ، وتفرق ولا تجمع ، اذ ينعدم فيها التعاون والتراحم ، وتختفى الشمائل الطيبة كالمروءة والنجدة والشهامة والنخوة والمواساة والمرحمة وتعود الانسانية الىجاهليتها الأولى ويبرز الوحش ، ويختفى الانسان · وما جاء القرآن الا لوأد

الوحش وقتله ، واظهار الانســـان ونصره ، ليستمتع الآدميون بآدميتهم ، ويحيوا فى رحاب انسانية كريمة كلها رخاء ، وكلهـــا نماء وكلها يسر وحب وتعاون ، لا لأجل أن تغوص الانســانية فى الوحل ، ممزقة بالاظفار والانياب • تلك عاقبة الربا ، ليست له نتائج غيرها ! ألم تر أن المرابى كان يستبيح استرقاق من عجز عن الوفاء بدينه ؟

لقد حرم الله الربا ، وأكد تحريمه بشتى الآيات . وبمختلف الأساليب فقال تعـــالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » • « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف . وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » •

« يا أيها الذين آمنوا اتقـــوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين •

فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكـم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون ، واتقوا يومـا ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » •

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون • واتقوا النار التى أعدت للكافرين » •

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبـــات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا • وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » •

« وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عنـد الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » •

ذلك هو هدى الله فى الربا •

ولذلك يقول الاستاذ سيد قطب فى كتابه « فى ظلال القرآن ج ٣٠ » : « فما يعيش الايمان والربا فى قلب واحد ، فاما أن يكون ايمان فهو الخوف من الله واتقـــاء وعيده ، وتجنب حربه ٠ واما الا يكون فهي الحرب اذن من الله ورسوله للكافرين » ٠ ثم يقول « وهي خطيئة نفسية ـ يعني الربا ـ وخطيئة اجتماعية فى كل وقت وكل مكان ، خطيئة تنتج آثارها فى مشاعر الافراد وفى كل أخلاقهم وفى تصورهم للحياة ، وتنتج آثارها فى حياة الجماعة وعلاقاتهـا الاجتماعية ، وتنتج آثارها فى حياة الانسانية كلها » ٠

وسيد قطب حينما يقول هذا فهو انما يقول الواقع الملموس فان ويلات الاستعمار التى نزلت بالشعوب المستضعفة لم تكن الا عن طريق الربا واغراقها فى أرباحه المتكررة بتكرر الأعوام ٠ بل ان ويلات البشرية كلها وحروبها المدمرة لم تكن الا من شهوتها فى أرباح الربا المتضاعفة ٠ فالنظام الاقتصادى الذى لا يقوم الا على الربا كان وما زال من أكبر الاسباب المؤدية الى القلق والتوتر ، وفساد العلاقات بين الناس ضعيفهم وقويهم على السواء ٠ لأن هذه العلاقات خلت من كل عاطفة انسانية خيره ٠ وقد ذاقت البشرية فى ماضيها الطويل ذل الاسترقاق والاستعمار عن طريق الربا . ومن المآسى والفجائع والويلات الفردية والجماعية الشيء الكثير ٠ ان الله لم يشرع للبشرية الحلال والحرام فى جميع مشاكلها وشئونها ألا لسعادتها ٠ لذلك احتفل القرآن بالنظام الاقتصادى احتفالا كبيرا حتى نقاه من كل الشوائب ، وطهـــره من كل أنواع الفساد ، لأن القلق النفسى فى الافراد والجماعات لم يكن الا وليد الفســـــاد الاقتصادى ، فاذا سلم النظام الاقتصادى من تسرب أسباب الفساد اليه ٠ سلمت النفوس من تسرب القلق والتوتر اليها ٠ وبذلك يسود السلام على العالم بأسره ٠

الميسر :

والميسر مثل الربا فى نتائجه الضـــارة التى تصيب الافراد والجماعات ، فهو مثار الحقـــد والضغينة بين المتلاعبين ، والمقمور لا يسعه الا أن يحقد على قامره ٠ وهل وراء هذه اللعبة الملعونة الا

تبديد الاموال فيما لا يؤدى الا الى نزول الفجائع والمآسى بالمجتمعات الآمنة ؟ .

لقد رأينا فيما مر بنا ، وما زلنا نرى أن المقامرين اذا فقدوا أموالهم قامروا بأنفسهم وأولادهم وزوجاتهم . أو أسلموهم للموت جوعا وحرمانا ، أو انحدروا بهم الى الرق فى أبشع صوره .

لقد حرم الله الميسر كما حرم الربا ، فقال تعالى : « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم فأعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين » .

وهل أبين من هذا البلاغ ؟ فالميسر رجس ، والرجس العمل القبيح الذى يستنكف الانسان الكريم أن يزاوله ، وهو من عمل الشيطان ، وهل الشيطان الا عدو الانسان ؟ وارادة العدو بعدوه من أقسى الارادات وأشدها ايلاما . ان الشيطان يريد ايقاع العداوة والبغضاء بين الناس ، وهل وراء العداوة والبغضاء غير المآسى الدامية ، والفجائع المريعة ؟ والله يحذرنا من كل أولئك ، فان لم نستمع الى تحذير الله فلا نلومن الا أنفسنا . لقد بصرنا الله بالاضرار التى تنجم عن ذلك ، وحرمه علينا ، وعلينا أن نختار . والانسان الذى أودعه الله عقلا — يتبين به الضار والنافع ويميز به بين الخبيث والطيب — لا يختار الا مافيه صلاح أمره فى دينه ودنياه ، الا اذا طمس الله على بصيرته ، وأقفل قلبه عن سلوك الصراط المستقيم .

الرشـــــوة :

ليس أفسد للذمم ولا أقتل للضـــمائر مثل الرشوة . واذا فسدت الذمم ، وماتت الضمائر فلا يرتجى عـــدل من قاض ، ولا نصفة من حاكم ، ولا تورع من مبطل عن ارتكاب ما تملى عليه نفسه الخبيثة ، وكم اغتصب عقـــار ما كان ليغتصب من أصحابه لولا الرشوة ، وكم شردت أسر ملتئمة الشمل فرقتها الرشـــوة ، وكم سجون اكتظت بالابرياء ، وكم أعراض انتهكت ، وكرامات

أهدرت بسبب الرشوة . ان الرشـــوة تدعو الى عدوان الغنى على الفقير ، واستخفاف الحاكم بشأن المحكوم . ان الراشي والمرتشى والساعى بينهما انما هم أداة تحطيم للمثل العليا ، وتدمير للمقومات وتقديمها وقبولها وتعارف الناس عليها انمـــا يدل على التجرد من الشعور باحترام نفسه واحترام حقوق الغير وهذا هو هدى الله ورسوله في الرشوة قال الله تعـــالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال النـــــاس بالاثم وأنتم تعلمون » . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لعن الله الراشي والمرتشي والساعي بينهما) . فالراشي خبيث ، والمرتشي أخبث ، والساعى بينهما مقر للخبث والخبـــاثة مشيع لهما فى المجتمع ، وهو كمن يشيع الفاحشـــة والمنكر ، فلا بدع اذ أخرج الثلاثة من رحمة الله ، واستحقوا لعنته وعذابه .

***

قد تكون الرشوة لابسة ثوب الهدية ، وقد تكون لابسة ثوب المأدبة التى يدعى اليها الناس ، ومدعو الشرف فيها المرتشى ، وقد تلبس الرشوة أزياء مختلفة كالرفد والهبة وما شاكل ذلك من الأردية التى تغش بمظهرها الناس ، فيستبيحون منها لانفسهم على رءوس الاشهاد . وقد تكون أردية الرشـــوة أردية فاسقة داعرة كالليالى الحمراء التى يقيمها صاحب الغرض للحكام وأشباه الحكام . كما هو واقع بعض المجتمعات اليوم . وكل ذلك لا يقره دين ولا خلق ولا عرف .

والقرآن اذ يحرم ذلك فانما يحرمه صيانة للمجتمع من العبث بالحقوق والواجبات ، وحفظا من تفشى الزور والبهتان ، وتقية له من الاعتداء على الأموال والأعراض والدماء ، وحرصا على عدم اختلال موازين العدل والعدالة ، ليكون المجتمع سليما صحيحا نظيفا من الاقذار .

الاحتـــكار :

احتكار الأرزاق ومصادرها ظلم للانسانية ، وبغى عليهـــا ، وأماتة لها ، وقد مر بنا انه ليس لأحد الحق فى احتكار الارض

ـ المناجم ، أو أى مصدر من المصادر للرزق . ومر بنا قـــول رسول الكريم في شأن الارض : « من كانت له أرض فليزرعها ـ فليمنحها أخاه » وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يختص بالمعادن المعدن جبار » كل ذلك فيما يختص بمصادر الارزاق . وقد نهى عليه السلام عن بيع الماء والملح » .

أما فيما يختص بالاتجار فى الارزاق فالاتجار حلال مباح لكل لناس فى جميع الاشياء المحلل بيعها . أما احتكارها فهو الظلم هو البغى ، لان المحتكر يمنع الناس من أقواتهم وملابسهم وما عم ى حاجة اليه وما لا غنى لهم عنه الا بالثمن الذى يرضى نهمـــه . يشبع جشعه . وحينئذ لا يستطيع شراءها الا الأغنياء القادرون على ذلك . وتلك هى الســـوق السوداء المظلمة التى لا يستطيع سلوكها عامة الناس . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « بئس العبد المحتكر ان أرخص الله الأسعار حزن ، وان أغلاها فرح » وقال « لا يحتكر الا خاطيء » أى عاص آثم .

ان المحتكر كالمرابى يتصيد احتياج الناس لمـــا فى يديه ، يستغلهم أقذر استغلال وأحطه وأشنعه فيغتنى حيث يفقر الناس، يشبع حيث يجوع الناس ، ويكتسى حيث يعرى الناس ، ويسعد حيث يشقى الناس ، وليس ذلك الا دليلا على القلب المغلق المتحجر من كل عاطفة انسانية كريمـــة فهو لا يحب اخوانه الآدميين ، و يتعاون معهم ، وانما هو أنانى يعيش لنفسه ، ولا يبالى أن يموت غيره .

وقد تطور الاحتكار بتطور الحياة . ويصح أن نقول : قد انحدر الاحتكار بانحدار الحياة فأصبح لا يقتصر على احتكار التجارة ، بل تجاوزه الى احتكار الصناعة ، وطرق المواصلات وغيرها من المرافق العامة . وأصبح من يدفع الامتياز قادرا على أن يمنـــع غيره من مزاولة عمله بحكم القانون . فهو يحتكر سلعة من السلع ، ويفرض ثمنها كما يشاء . ولا يخشى منافسا ، أو يحتكر صـــناعة م الصناعات فلا يعملها غير مصنعه ، ويدفعها للســـوق بالثمن الذى يروقه . أو يحتكر طريقا فلا يجوز من ذلك الطريق أحـــد الا بواسطته وبالأجر الذى يعجبه . وكم أسر تشردت لأن عائلها أصبح

عاطلا من العمل بفعل صاحب الامتياز اذ لم يدع له فرصة العمل فيما يتقنه ، وذهب هو وأسرته يهيمون على وجوههم تفتك بهم الفاقه والفقر ، وأصبح كل صاحب امتياز طاغية يعيش على اشلاء صرعاه ، ويتحكم فى الجماهير ، ويستلبهم استلاب اللصوص وقطاع الطرق .

والاحتكار فى القديم والحديث من الاسباب المهمة التى تؤدى الى تجريد المجتمع من ثروته وتكديسها فى أيدى فئة قليلة تسترق الناس وتستعبدهم ، وتستبد بآدميتهم وكرامتهم وذلك ما يحاربه القرآن ولا يقره بحال من الأحوال ، فان جميع المبادىء الاقتصادية التى وضعها القرآن لم تكن الا للتوازن بين الطبقات حتى لا تطغى طبقة على طبقة ، وحتى يكون الناس متقاربين فى حياتهم ومستوى معيشتهم . والرأى فى الامتيازات التى اقتضتها حالات المجتمعات الحديثة التأميم . نعم تأميم كل المرافق ، والمصالح . لتعود بالنفع على المجتمع كله دون أن تستأثر بالفائدة طبقة دون أخرى .

الاكتناز :

اكتناز الذهب والفضة وما فى حكمها ليس من مصلحة صاحبها ، وليس من مصلحة المجتمع الذى يعيش فيه صاحبها .

وقيمة الذهب والفضة أو ما فى حكمها رهن بتقويم المجتمع لها فاذا لم ينتفع بها المجتمع سقط تقويمها فالانتفاع هو الأساس فى القيمة ، فاذا لم يكن انتفاع لم تكن قيمة ، فلا معنى اذن لاكتنازها .

ان الاكتناز اهمال ، ومن يهمل شيئا يستطيع الانتفاع به يعد سفيها أو غير رشيد على أقل تقدير . أما من يهمل ما ينفعه وينفع الناس يعتبر أكثر سفها من السفيه .

وشيء آخر يجب أن يوضع فى محل الاعتبار فالذهب والفضة أو ما فى حكمها لم يتحصل عليهما صاحبهما الا من وراء التعامل مع المجتمع ، ولم تكن لهما قيمة لولا تقويم المجتمع لهما بتلك القيمة ، المجتمع شريك له فيهما على هذا الاعتبار . فليس له الحق أن يكتنزهما ، ويمنع المجتمع من عامل مهم يؤدى به الى الحركة والرخاء والنماء .

ان اكتناز الثروات ومنعهـا من التداول تجميد لها وحرمان للمجتمع من فوائد تداولها ، وتعامل الناس بها ، ويؤدى ذلك الى نتائج سيئه ، لا يجنى المجتمعمن ورائها غير الاضرار البالغة كتفشى البطالة ، وكساد التجارة ، وتدهور النشاط الزراعى والصناعى ؛ وما ينجم عن هذه الحالة من الجرائم المختلفة التى يدفع اليها الجوع والاحتياج ٠

والاسلام يحرص على اماتة كل الدواعى والاسباب التى تؤدى الى التدهور الاجتماعى والخلقى ، وصلة هذا التدهور وثيقة الروابط بالحالة الاقتصادية ، لذلك فان القرآن لا يقر أى سبب من الأسباب التى يتطرق من ورائها فساد الحالة الاقتصادية أو اضطرابها أو تدهورها ، والاكتنــاز من جملتها فلم يقره ، ونهى عنه ، ونوعد المكتنزين بالعذاب الأليم ، يقول‌الله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » هذا وعيد الله للذين يكتنزون الاموال ، ولا ينفقونها على الواجبات الجماعية ، وقد قدر المبلغ الذى يعتبر كنزا بأربعة آلاف درهم ٠٠ أما ما كان دونه فهو نفقة ٠٠ أما الذين يحتجون بأن عبد الله بن عوف وغيره من أصحاب الرسول كانت لهم أموال كبيرة ٠ فقد فاتهم أن هؤلاء الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ ما كانوا يكتنزون ما لديهم من مال ، وانما هم كانوا يتجرون به وكانت تجارتهم واسعة ٠ وكانوا يؤدون الزكاة المفروضة ، ويسهمون فى الجهاد ونفقات الجيش ٠ وينفقون عـلى الفقراء والمساكين والمحتاجين ، وكانوا يحفرون الآبار ، ويعينون المعسر ويحملون الكل ، ويقرضون القرض الحسن ، ويتصدقون كثيرا، فلم تكن أموالهم ثروات محتجزة عن الناس ولا مكنوزة مهملة لاينتفع بها المجتمع ٠ فالعمال والاجراء والرعاة والزراع كل أولئك كانوا يعملون فى أموالهم ، ويمونون من ثرواتهم ٠ أما الاكتناز المنهى عنه فانه المال المجمد الذى يدع صاحبه حركة النماء والازدهار مشلولة ، بينما المال محجوز فى خزائنه راكد ركود الماء الآسن فيها ٠

الترف :

وكما ان القرآن يمنعنا من اكتساب المال من الطرق غير المشروعة فهو كذلك يمنعنا عن انفاقها فيما لا يفيد . والترف جماع كل ذلك ، ان الحياة المترفة الناعمة تتلف الجسم والروح ، لان طبيعة الترف المستمر في حياة الانسان تؤدى الى استرخاء الجسم ، واستطابته للحياة السهلة اللينة ومن ثم يتجرد من القدرة على النهوض بالاعباء الجسيمة التى تتطلبها حياة النابغين من الافراد ، أو حياة الشعوب الحية الفتية ذات المطامح البعيدة والأهداف العالية

واذا شاعت حياة الترف فى مجتمع شاعت تبعا لذلك حياة الفسوق والفجور ، وانتشرت الدعارة الخلقية بكل أشكالها . اذ تنطفىء الشعلة المقدسة فى قلوب أبناء ذلك المجتمع فلا يشعرون بأنهم فى حاجة الى الصعود من الهوة السحيقة التى انحدروا اليها .

وتستهوى الحياة المترفة النفوس ، فتختفى القيم وتظهر الاسعار . فلا يقوم انسان الا بمظهره وبمبلغ ما يملك . لا بقيمة ما يشعر ويفكر ، وما يبذل من جهد لتحقيق معنى من المعانى القويمة السامية . وقد سبق للمترفين أن قالوا لمن جاءهم بالقيم الانسانية ما حكاه الله لنا فى قوله تعالى : « وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون » وذلك ديدن المترفين فى كل زمان وفى كل مكان . أقفلت قلوبهم ، وماتت مشاعرهم ، فلم تعد للقيم الانسانية لديهم أى اعتبار يقول الله تعالى : « واتبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه وكانوا مجرمين » وأى اجرام أكبر من الكفر بالله والجحود بحقوق عباده ، يبددون الاموال فيما لا يعود عليهم ولا على مجتمعاتهم بخير ، ويفنون أنفسهم فى الملاذ والشهوات ، ويغرقون مجتمعاتهم فى الفقر والفاقة ، ويدعونهم عرضة لكل مغير أو غاضب ، ولذلك قال الله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، لأن المجتمع الذى شاعت فيه حياة الترف ، وشاع فيه شرع المترفين وعرفهم أصبح من سواقط المجتمعات التى لا تستحق الحياة . وقد رأينا مصداق قول الله تعالى فى أمتنا الاسلامية حينما أغرقت مجتمعاتنا حياة الترف ، دمرت بغداد على أيدى التتار ، ودمرت بلاد الشام فى حروب الصليبيين . ودمرت الاندلس وانتزعت من أيدينا وما زالت

فى أيدى مغتصبيها الى الآن ، ودمرت فلسطين وشرد أهلها بعصابات الصهيونيين المعتدين ، وما جر علينا هذا البلاء الا حياة الترف حينما غرقت مجتمعاتنا فيها • واتبعت سبيل الحكام المترفين ، اعتنقت عرفهم وشريعتهم ولم تستطع تلك القصور التى ملئوها بالستائر والمراتب والوسائد الحريرية ، وزخرفوها بالذهب والفضة والفسيفساء ورصعوها بالدر والجوهر ، وحشدوا فيها التحف والتماثيل ، واتخذوا فيها الاوانى الفضية والذهبية وملئوها بالقيان والمعازف والخمور •• لم تستطع القصور التى بنيت بدماء الشعوب وأموالها فى بغداد وفى القاهرة • وفى الاندلس ان تصد عادية المعتدين واغارة المغيرين عنا •

ومن الغريب أن يرى المسلمون اتباع القرآن كل ذلك ولا ينتهون عن غيهم ، ولا يخشون ما حذرهم الله منه ويتبعون سنن المترفين ويسيرون سيرتهم • ثم يزعمون أنهم مسلمون وأنهم حماة الاسلام • لقد كانت نتيجة الترف استعمارا واستعبادا وتدميرا واحتلالا واسترقاقا • والاغرب من كل أولئك أن المترفين حينما يجابهون بالقارعة تراهم جبناء أذلاء مستخذين على مافيهم من التكبر والتجبر فى وقت أمنهم — فهم لا يستطيعون ردا للنكبة ، ولا صدا للقارعة ، يقول الله تعالى فى وصفهم وتوبيخهم : «حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم انكم منا لاتنصرون، قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامرا تهجرون ، أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت أباءهم الأولين • أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون • ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن • بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » تلك هى حالة المترفين وتلك هى عاقبة الحياة المترفة • وأهواء المترفين تفسد السماء والأرض لو اتبعناها • فعلى المجتمعات أن تضرب على أيدى المترفين والا حاق بها الفساد فالسقوط فالتدمير • وحينئذ يستعبدها ويسترق أحرارها المعتدون والمغيرون. وكما ان الواجب تطهير الجسم من الجراثيم القتالة احتفاظا بصحته وسلامته فان تطهير المجتمعات من المترفين والمرتشين والمرابين والمكتنزين واجب ضمانا لصحة المجتمع وسلامته من الكوارث والنكبات • ذلك هدى الله وهدى رسوله للمتبصرين وللناس أجمعين •

الزكاة رأس موارد الدولة :

ان الله شرع لنا كل مايصلحنا ويصلح حياتنا ، فطهر مجتمعاتنا بتشريعاته المحكمه من كل انحراف ، وكل فساد · وأباح لنا تنمية الاموال والثروات من الطرق الصالحة المشروعه ، ولم يحجر علينا مزاولة الاعمال الشريفة في شرف واستقامة بل حثنا على العمل ، ورغبنا فيه · ولم يبح لنا أن ننمى ثرواتنا من الربا أو القمار أو الغصب أو استغلال حاجة الناس الى ما فى أيدينا استغلالا حقيرا شائنا · كما أنه تعالى لا يرضى تبديد الأموال فيما يضر ولا ينفع ، فنهانا عن تبديدها فى وسائل الترف · أو تبديدها فى سبيل الشيطان كدفع الرشوة أو ممالأة الباطل والمبطلين · فان ممالأة المبطلين ومساعدتهم تبديد للمال فى غير وجهه ، وانما هو رسم لنا الطريق الذى نسلكه فى جمعه ، ورسم لنا الطريق فى انفاقه · وفرض علينا فى المرتبة الأولى زكاة الأموال ، بل جعلها ركنا من أركان الاسلام الخمسة التي لايتم اسلام المسلم الا به ·· ورسم لنا الطريق الذى تسلكه الدولة فى جمع الزكاة ، وأبان لنا الوجوه التى تنفق فيها لأن الزكاة أول موارد الدولة · فعلينا اعطاء الزكاة للدولة ما استقامت على انفاقها فى الوجوه التى بينها الله · واذا امتنعنا عن دفعها أو أنقصنا منها نكون غاشين لله ورسوله ، معتدين على حقوق عباده فى أموالنا · ولقد تكررت الأوامر الالهية بأداء الزكاة يقول الله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكممن خير تجدوه عند الله » « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم » الى آخر الآيات الكثيرة التى شحن بها القرآن الكريم حثا على أداء الزكاة ·

وقد بين القرآن مصارفها بعد أخذها فقال تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » فنحن نرى من هذه الآية الكريمة ان مصارف الزكاة ثمانية ، واحد منها لموظفى الدولة وهم جباة الزكاة ، والثانى للمجاهدين فى سبيل الله وهم جنود الدولة وجيشها ، والستة الباقية

للخدمات الاجتماعية ومنها تحرير الرقيق وتسديد ديون المدينين لأن الله يقول « وفى الرقاب ، والغارمين ، والغارمون هم المدينون • فهؤلاء لهم الحق فى ربع واردات الدولة : ثمن للأرقاء ،وثمن للمدينين اذن فالدولة ملزمة بأن تجعل ربع وارداتها لتحرير الأرقاء وتسديدديون الأفراد •• وتلك فريضة من الله افترضها فى كتابه على المؤمنين به المتبعين لشريعته • فمن أخل بذلك كان حكمه حكم من تخلى عن أداء فروض الله الواجبة عليه ، ومن تخلى عن الفروض ولم يؤدها لا طاعة له على أحد ، بل هو يستحق العقاب والتنكيل كأى معرض عن أداء الفرائض • أليس للدولة الحق فى تأديب مانعى الزكاة واعتبارهم عصاة ومارقين ، ومقاتلتهم وأخذ الزكاة منهم بقوة السلاح ؟؟ أشرع ذلك ليأخذ الحاكم الزكاة وغيرها من واردات الدولة ويختص بها نفسه وذويه وعشيرته وأذنابه ؟؟ كلا ! وانما كان ذلك لأخذ الزكاة من الواجب عليهم أداؤها ووضعها فى مواضعها التى أمر الله أن توضع فيها ، تحقيقا لقيام المجتمع بواجبه حيال الافراد ليكون مجتمعا متوازنا ، والطبقات فيه متقاربة •

ان هذه الآية الكريمة شرعت لنا نظام الخدمات الاجتماعية قبل أن يعرف هذا التعبير الحديث بأربعة عشر قرنا تقريبا • ولا يوجد مثل هذا النظام اليوم متكاملا الا فى أربع دول أوربية هى :السويد ، والنرويج ، والدنمارك ، وسويسرا • والحق أن هذه الدول الأربع بلغت الحد الأعلى فى العناية بالخدمات لاجتماعية حتى سميت حكوماتها بحكومات الخدمات الاجتماعية ، ومع بلوغها الحد الأعلى فى ذلك فانها لم تبلغ الحد الذى شرعه القرآن • لأن القرآن جعل ربع واردات الدولة لتحرير الأرقاء،وتسديد ديون الافراد وبقيةالواجبات ووجوه الالتزام للمجتمع من باقى موارد الدولة •

والدول الأربع ــ بالرغم من أنها حكومات خدمات ــ تؤازر الدول الاستعمارية ، وهى تعلم أن الاستعمار أفظع حالات الاسترقاق لأن الدول المستعمرة تسترق الشعوب بالجملة ، وتنتهب أموالهم ، وتعبث بأعراضهم ومقدساتهم ، وتفتك بالجموع فتكا ذريعا مبيدا • ولا تعترف بآدميتهم بله حقوقهم •

هذه واحدة • اما الثانية فانني لا أعتقد انها تفعل ما تفعله

شريعة القرآن من تسديد ديون الافراد سواء أكانوا أحياء أم أمواتا أغنياء أم فقراء ٠

أما في شرعنا فان ذلك فريضة من الله ، افترضها على الدولة لابد من أدائها أو اعتبرت الدولة منحرفة عن القرآن ، مجحفه بحقوق المجتمع الذى تحكمه ٠

ربما يستغرب من لاعلم لهبالتشريع الاقتصادى والاجتماعى فى القرآن ما نقوله ، ولكن هذه هى حقيقة التشريع القرآنى فهذه الآية واضحة المعنى ليس فيها ما يستعصى فهمه على أحد والى جانب ذلك عمل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه . فقد جاء فى صحيح البخارى بالجزء السادس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرءوا ان شئتم : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ٠ « فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فان ترك دينا أو ضياعا فليأتنى وأنا مولاه » ٠ والرسول فى زمنه رئيس الدولة ومشرعها وحاكمها ، ورؤساء الدولة من بعده خلفاؤه فمن آل اليه أمر الدولة ملزم بتنفيذ ما شرعه الله ورسوله ٠

والآية القرآنية الكريمة والحديث النبوى الشريف متفقان فى المعنى والهدف ٠ لا غموض ولا لبس فى بيانهما ، ولا لبس ولا غموض فى معناهما وما يهدفان اليه ٠

وهذا يجعلنا نقول مطمئنين أن الدولة ملزمة بتحرير الرقيق : وبتسديد ديون المدينين ، دون المساس بتركة المدين اذا مات . فان تركته لورثته أيا كانوا أغنياء أو فقراء ، ذلك هدى الله وهدى رسوله ومارق كل من ضل عن سواء السبيل .

والاسلام يعتنى بما يمس حياة الناس وما يهمهم فيما يصلح حياتهم ، ويرفع مستوى معيشتهم ويعتبر ذلك من أعظم العبادات وأقرب القربات الى الله تعالى ، بل يعتبر العناية بهذه الأمور أفضل من العناية بالأمور التعبدية التى تختص بالفرد . وينهى عن صرف الوقت والجهد فى المناقشات البيزنطية

التى لا تنتج غير المراء والمشاحنات .. وتباغض القلوب وتفكيك الوحدة المترابطة بين افراد المجتمع ، واهمال العناية بالشئون الحيوية كالشئون الاقتصادية والاجتماعية وتوزيع الثروات والاهتمام بتقارب الطبقات وتحرير الأرقاء والنظر فى مشاكل الناس وحلها الحل الذى يبعد عنهم القلق الفكرى والنفسى ، ويجعلهم آمنين على مصائرهم ومصائر أولادهم من بعدهم مطمئنين على أرزاقهم وأسباب معاشهم مالكين لحرياتهم وعدالة حكامهم . وآية ذلك قول الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساءوالضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

فأية صفة من هذه الصفات التى وصف الله بها المتقين الصادقين تنطبق على الحكام والعلماء الذين تمتلىء دورهم وقصورهم بالرقيق الأبيض والأصفر والاسود والأحمر : ويشغلون انفسهم باثارة الاحقاد وتكفير الموحدين ولاهم لهم الا فى انالصلاة على النبى بعد الآذان تجوز ! ولا تجوز وكل من خالفهم فى رأى كفروه ، وان رحموه قالوا : مبتدع .

وأية صفة من هذه الصفات التى وصف الله بها المتقين الصادقين تنطبق على من يسترقون شعوبهم ويحجرون عليهم النظر فى كتاب الله وسنة رسوله ويسفكون دماء المؤمنين بالله ظلما وعدوانا ؟ .

وأية صفة من هذه الصفات التى وصف الله بها الصادقين المتقين تنطبق على من يأخذون أموال الشعب ، ويصرفونها فى السفاهات وانحماقات والفجور فى كل بلاد العالم ، ويلبسون افخم الثياب ويأكلون اطايب المأكولات ، ويكنزون الثروات الطائلة فى مصارف العالم المختلفة ، ويرتكبون كل موبقة سرا وجهرا بينما الشعب يموت من شدة البرد ، ويموت من شدة الحر ويموت من العرى والحفاء ، ويموت من الفاقة والفقر ؟ اننا لا نرى أى صفة من الصفات التى وصف الله بها المتقين الصادقين تنطبق عليهم .

اذا فهم كاذبون في دعواهم الاسلام ، يفترون على الله ورســـوله الـــكذب حينما يتحدثون عن الاســـلام . وينـــافقون المسلمين ويخادعونهم : وهم ليسوا متقين وليسوا صادقين كما يزعمون . وانما هم مارقون عن الدين ، منحرفون عن هدى الله ورسوله .. وما هم الا طاغوت يتحكم ، وما رجـــال الدين الا كهنوت ينفث الرقى ، ويحرق البخور ، ويقدم القرابين من الشـــعب المسكين البرىء ضـــحية لهبل الصنم (البشرى) الذى يعبد فى القـــرن العشرين .

ان للاســـلام شريعة غير شريعتهم ، وسماحة غير غلظتهم . فنحن المسلمون المؤمنون حقا وصدقا لاننا لا نريد الا تطبيق نظام الاســـلام العادل الرحيم ، متمسكين بشريعته السمحة العادلة فنحن دعاته وحماته .

ان القرآن يقول لنا : ان البر بعد الايمان بالله وملائكته وكتبه ورســـله ــ انفاق المال لرخاء المجتمع الذى نعيش فيه ــ فهو يجعل على كل غنى اخراج جزء من ماله غير الزكاة المفروضـــة على الاغنياء لتحرير الرقيق الى جانب الجزء الذى يفرضه على الدولة لتحريرهم. وأن نقيم بعد ذلك الصـــلاة ، ونؤدى الزكاة ، ونفى بالعهود وأن نصبر على الضراء والسراء ، فاذا فعلنا ذلك كنا صادقين فى ايماننا : متقين فى أعمالنا . والا كنا غير صادقين وغير متقين . وليس من البر فى شىء أن نتـــرك جوهر الدين ولبـــابه ونعنى بالشكليات والقشور . كما يفعل المتنطعون .

ان الترتيب الذى جاء فى نص هذه الآية جعل من أولى الأمور بعد الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب ــ انفاق المـــال فى الوجوه المبينة فى الآية . وجعل الصـــلاة بعد الانفاق وبعد الصلاة ايتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر . وفى ذلك اشارة وافهام لنا بأن الاحتفال بالأمور الاجتمـــاعية أمور أولية فى الاسلام . وهى البرهان على الايمان القوى المتين بالله وبـكتابه وبرسوله وباليوم الآخر الذى يحاســـب النـــاس فيه على أعمالهم ، لأن من يخشى حســـاب الله لا يؤخر فرائضه ، بل يجعلها من الأوليات التى يصرف اهتمـــامه الكلى لأدائها . ونخرج من كل ما تقـــدم بأن القرآن الكريم فرض الزكاة على الأغنيـــاء وقد أوضح قدر المال

الذى تؤخذ منـه الزكاة وبين مقدار الزكاة التى تؤخذ · وقد بينت كتب الفقه تلك المقادير بوضوح تام فليست من مقتضيات بحثنا ثم أوجب على الأموال غير الزكاة كما هـو مبين فى آية « ليس البر أن تولوا وجوهكم » الخ والبر بالناس واجب على القـادر عليه · ولذلك كان ضمن السـياق الايمان بالله وملائكته وكتب رسـله ، وهو واجب واقام الصـلاة فرض ، وايتاء الزكاة فرض ، والوفاء بالعهود فرض ، وكلها فروض محتمة الأداء ، وكان سـياقها فى نص الآية من ضمن البر ، فمن قال ان البر انما هو التطوع يخل قوله بسياق الأمور المنصوص عليها فى الآية فيكون اقامة الصلاة تطوعا وليس واجبا وايتاء الزكاة تطوعا وليس واجبا ، والايمـان بالله تطوعا وليس واجبا ، ولا يقول بذلك مسلم صادق الاسلام .

ومن ذلك يتبين لنا ان تحرير الرقاب فى المجتمع الاسلامى واجب على الدولة ، فاذا لم يتسع المخصص المرصـود لتحريرهم فعلى الأغنيـاء القيـام بتحريرهم ··· وذلك حق للارقاء اختصهم الله به ، ومطالبتهم بهذا الحق مشروعة اذا لم تعط لهم بدون مطالبة ، لأن المفروض الواجب على الدولة ألا تلجئهم الى المطالبة . وكذلك الفقراء والمساكين وذوو القربى وأبنـاء السبيل ، ومن ركبتهم الديون ، شرع الله لهم حقـوقا اذا منعت عنهم حقت لهم المطالبة بها لأنها ليست منة ولا تفضلا من الدولة عليهم بل حق مفروض يجب أن يؤدى لأصـحابه ، يقول الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السـبيل » ويقـول : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

التكافل الاجتماعى :

لقد رأينا من الفصول السابقة أن السياسـة الاقتصادية فى الاسـلام توجب قوامة الدولة على الثروات الفردية والثروات الجماعية · فلها الحق فى احصـاء الثروات الفردية لتحصيل الزكاة المفروضـة . ولها الحق فى تحديد ملكية الأرض وملكية النقد المكتنز غير العامل .. ولها الحق فى مراقبة السـلع التجارية واحصـائها فى مخازن التجار ، وتلك اجراءات يقتضيها تحريم الاكتناز وتحريم الاحتكار ، وتحريم الغش .. وعليها من الحقوق القيـام بالنفقة على ما يضـمن الأمن العام وتقوية الجيش ..

وحددت للصرف على ذلك ربع واردات الدولة ، ولها اذا لم تكن في حاجة الى « المؤلفة قلوبهم » أن تنفق أسهمهم للدعاية اذا كانت الدعاية تضمن مصلحة عامة للدولة . وما الدعاية ؟ أليست لتأليف القلوب ، وتوقي العدوان ، وتحبيب الناس في النظام القائم ؟ على ألا يتعدى ما ينفق للدعاية ثمن واردات الدولة ـ وهو السهم الخاص (بالمؤلفة قلوبهم) في القرآن ـ وما بقي من واردات الدولة وهو خمسة أثمان الوارد ، ينفق على الخدمات الاجتماعية العامة ، منها ثمنان لتحرير الأرقاء وتسديد الديون عن المدينين في غير معصية .

ومن الخدمات الاجتماعية توفير السكن والملبس والطعام والشراب والعلاج والتعليم لكل فرد ، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعلاج المرضى ، وأباح لهم أن يشربوا من ألبان ابل الصدقة حتى يصحوا ، وأمر الأسرى أن يفتدى كل شخص نفسه بتعليم عشرة من غلمان المسلمين . فاذا لم تف واردات الدولة بالنفقات المطلوبة منها فان للاسلام اجراءات أخرى تتخذ لتحقيق التكافل الاجتماعي المفروض فمن ذلك قول الله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » وقول النبي صلى الله عليه وسلم « ايما اهل عرصه أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ومن برئت منهم ذمة الله لم يكن لدمائهم ولا لاموالهم حرمة . ومن هدى القرآن وهدى الرسول أفرد الفقيه العبقري أبو محمد على ابن حزم صفحات من كتابه « المحلى » في الجزء السادس للكلام عن التكافل الاجتماعي فقال : « وفرض على الاغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك اذا لم تقم الزكوات بهم ، ولا فيء سائر أموال المسلمين بهم . فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعيون المارة . برهان ذلك قول الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » وقال تعالى : « وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين. والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » فأوجب الله تعالى حق المساكين وابن السبيل ، وما ملكت اليمين مع حق ذى القربى

وفرض الاحسان الى الابوين وذى القربى والمساكين والجار ، وما ملكت اليمين ، والاحسان يقتضى كل ما ذكرنا ، ومنعه اساءة بلا شك .

وقال تعالى : « ما سلككم فى سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين » فقرن الله تعالى اطعام المسكين » بوجوب الصلاة وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق كثيرة فى غاية الصحة انه قال « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » ومن كان على فضلة ورأى المسلم أخاه جائعا عريان ضائعا فلم يغثه فما رحمه بلا شك .

وهذا خبر رواه نافع بن جبير بن مطعم وقيس بن ابى حازم وابى ظبيان وزيد بن وهب كلهم عن جرير بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى أيضا معناه الزهرى . عن ابى سلمة ، عن أبى هريرة ، رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد حدثنا ابراهيم بن أحمد حدثنا الفربرى حدثنا البخارى حدثنا موسى بن اسماعيل - هو التبوذكى - حدثنا المعتمر - هو ابن سليمان عن أبيه حدثنا أبو عثمان الهندى أن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق حدثه : « أن أصحاب الصفة كانوا ناسا فقراء وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » أو كما قال .. فهذا هو نفس قولنا .

ومن طريق الليث بن سعد ، عن عقيل بن خالد ، عن الزهرى ان سالم بن عبد الله بن عمر أخبره أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » فمن تركه يجوع ويعرى - وهو قادر على أطعامه وكسوته - فقد أسلمه .

حدثنا أحمد بن محمد حدثنا احمد بن على ، حدثنا مسلم ابن الحجاج ، حدثنا شيبان ابن فروخ ، حدثنا أبو الأشهب عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر

له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لأحد منا فى فضل » . وهذا اجماع الصحابة رضى الله عنهم يخبر بذلك أبو سعيد وبكل ما فى هذا الخبر نقول .

ومن طريق أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أطعموا الجائع وفكوا العانى » والنصوص من القرآن والأحاديث الصحاح فى هذا تكثر جدا .

وروينا عن طريق عبد الرحمن بن مهدى . عن سفيان الثورى . عن حبيب بن أبى وائل شقيق بن سلمة قال : قال عمربن الخطاب رضى الله عنه « لو استقبلت من أمرى مااستدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المجاهدين » وهذا اسناد فى غاية الصحة والاجلال .

ومن طريق سعيد بن منصور عن أبى شهاب عن أبىعبد الله الثقفى عن محمد بن على بن الحسين عن محمد بن على بن ابى طالب انه سمع على بن ابى طالب يقول : « ان الله تعالى فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يكفى فقراءهم فان جاعوا أو عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء وحق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه » .

وعن ابن عمر انه قال : « فى مالك حق سوى الزكاة »

وعن عائشة أم المؤمنين والحسن بن على وابن عمر أنهم قالوا كلهم لمن سألهم : « ان كنت تسأل فى دم موجع ، أو غرم مفظع ، أو فقر مدقع ، فقد وجب حقك . وصح عن أبى عبيدة بن الجراح وثلثمائة من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ أن زادهم فنى فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم فى مزودين وجعل يقوتهم اياه على السواء » .

فهذا اجماع مقطوع به من الصحابة رضى الله عنهم لا مخالف له منهم .

وصح عن الشعبى ، ومجاهد ، وطاووس ، وغيرهم كلهم يقول : « فى المال حق سوى الزكاة وما نعلم عن أحد منهم خلاف هذا الا عن الضحاك بن مزاحم فانه قال : نسخت الزكاة كل حق فى المال . وما رواية الضحاك حجة فكيف رأيه ؟؟

والعجب أن المحتج بهذا اول مخالف له ، فيرى فى المال حقوقا سوى الزكاة منها النفقات على الأبوين المحتاجين وعلى الزوجة ، وعلى الرقيق ، وعلى الحيوان والديون والأروش فظهر تناقضهم .

فان قيل فقد رويتم عن طريق ابن أبى شيبة حدثنا ابو الأحوص عن عكرمة . عن ابن عباس قال : من ادى زكاة ماله فليس عليه جناح أن لا يتصدق .

ومن طريق الحكم بن مقسم عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » نسختها العشر ونصف العشر ، فان رواية مقسم ساقطة لضعفه ، وليس فيها لوصحت خلاف لقولنا . واما رواية عكرمة فانما هى الا يتصدق تطوعا وهذا صحيح .

أما القيام بالمجهود ففرض ودين وليس صدقة .

ويقولون : من عطش فخاف الموت ففرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجده ، وأن يقاتل عليه .

فأى فرق بين ما اباحوا له من القتال على ما يدفع به عن نفسه الموت من العطش ، وبين مامنعوه من اقتال عن نفسه فيما يدفع عنها الموت من الجوع والعرى ، وهذا خلاف للاجماع وللسنن وللقياس .

ولا يحل لمسلم اضطر ان يأكل ميته أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو للذمى ، لأن فرضا على صاحب الطعام اطعام الجائع، فاذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير وبالله التوفيق . وله أن يقاتل على ذلك ، فان قتل فعلى قاتله القود ، وان قتل المانع فالى لعنة الله لأنه منع حقا وهو طائفة باغية . قال تعالى : « فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله « مانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق ، وبهذا قاتل أبوبكر الصديق رضى الله عنه : « مانعى الزكاة وبالله التوفيق » .

انتهى مانقلناه عن الفقية المحدث الأصولى ابن حزم .

وقد تعمدت نقل عباراته بنصها الحرفى ، لتظهر مناقشته لمخالفيه ، ومنها يتبين بما استشهد به من الآيات القرآنية

والأحـــاديث النبوية وقياســـه الصائب وردوده البليغة وحججه الدامغة . وجه الحق ويتبين كذلك ان بعض الفقهاء انحرفوا عن طريق الجادة فضلوا وأضلوا .

والتكافل الاجتماعى ليس جديدا الا فى صياغته التعبيرية ، ولكن القرآن شرعه للناس منذ أربعة عشر قرنا ، وللناس أن يقاتلوا حكامهم وأغنياءهم على تحقيق هذا التكافل ، لأن عدم تحقيقه من القادرين عليه يعد بغيا . والبغى يجب على من يؤمن بالله ورسوله ويهتدى بهدى القرآن ، أن يزيله وأن يقاتل فى سبيله وأن يكافح ما وسعه من ادوات الكفاح حتى يتحقق فى المجتمع ما شرعه الله له .

واذا كان من يسمح له بالقتال فى سبيل ذلك لايكون مضطرا لاكل الميتة أو لحم الخنزير اللذين حرمهما الله ، فكذلك هو غير مضطر لأن يدخل فى زمرة الأرقاء ، أو يدخل اسرته وأبنـــاءه فى اطار الرق . وكم جنى عزوف الحكومات وصدوف الأغنياء عمـا شرعه الله على البشرية من ويلات . وذلك مايريد القرآن أن يتجنبه الناس ويحرص على أن لا يحيق بهم ما حاق بغيرهم . فأين أدعيـاء الاسلام من شريعة الاسلام التى يتشدقون بأنها دستورهم ؟؟

ان القرآن فى حاجة الى مؤمنين ذوى غيرة على حقوق الله التى فرضها لعباده . فى حاجة الى ثوار يثورون على هـــذه الاوضاع التى يوصم بها القرآن والقرآن براء منها ومن الادعياء الذين يزيفون الحقائق ويتجاهلون الحق . ويفترون الكذب على القرآن وعلى نبى القرآن . ان المســئولية فى انصراف شـــباب المسلمين عن الاسلام ، وتطلبهم المخرج من واقع المسلمين المر الأليم ، باعتناقهم للمذاهب الاقتصادية والاجتماعية الغريبة عنا ، انما تقع على عاتق هؤلاء المارقين الضالين الذين يزعمون أنهم حماة الاسلام وأنصار شرعه الحنيف ، والله يعلم والناس وكل الناس يعلمون أنهم هم الوصمة التى لحقت بالاســلام لأنهم شـــوهوه بظلمهم ومروقهم ، وجعلوا المثل الأعلى الذى فيه سعادة الانسانية مثلة تنفر منها الانسانية . وسوف يأخذهم الله ببغيهم ويوقعهم فى سوء أعمالهم ، ويعذبهم بأيدى المؤمنين الصادقين .

عقاب السرقة :

ان بعض الجاهلين بالقرآن ، وتشريعاته المحكمة يرون قطع يد السارق قسوة وهمجية يجب أن يتنزه عنها القرآن وبعض الذين يقيمون الحدود على الضعفاء فى بعض البلاد الاسلامية يؤكدون هذه المعانى فى أذهان الجهلة بشريعة القرآن . وقد نلمس الاعذار للذين لم يدرسوا القرآن ، ولم يلموا بتشريعاته. ولكن أى عذر للمتصدرين لزعامة الاسلام والمسلمين ؟ ان هؤلاء المتزعمين هم سبب البلاء فيما يوجه للقرآن من تهم شنيعة .

ان القرآن الكريم كل لا يتجزأ ، وقد وضع سياسة اقتصادية لم يتفتق عنها ذهن بشرى فى العالم قديمه وحديثه فالقرآن شرع للافراد والجماعات كل الضمانات التى تجعلهم آمنين وادعين ، وأبعد عنهم اشباح الجرائم المختلفة بمحاربة اسبابها . فضمن فى تشريعه للفرد قيام الدولة بمطعمه ومشربه ومسكنه وعلاجه وتعليمه . وأتاح له الفرص لمزاولة أى عمل يريده ، وضمن له فى تشريعه حرية العمل ، وحرية القول ، وحرية العقيدة ، وحرية التفكير ، وحرية التعامل ، وحرية الضرب فى الآفاق ، وفرض له التكافل الاجتماعى ، فاذا منع من حقوقه أو حقا من حقوقه أباح له بل أوجب عليه أن يقاتل فى سبيلها حتى ينالها ، فان قتل ألزم قاتله القود ، وان قتل لم يلزمه شىء وأهدر دم مانع الحق واعتده باغيا ، وأوجب على المجتمع أن يناصره ويؤازره على ذلك . ولست أعتقد أن نظاما شرع كل هذه الحقوق للفرد على الدولة وعند عجزها أوجب ذلك على المجتمع . والى جانب كل هذه الواجبات له حث على التطوع بالصدقة وبالرفد وبالحبوس التى تنفق غلتها على وجوه البر والاحسان .

ان نظاما يعطى كل هذه الضمانات للفرد ، ويفرض كل هذه الضرائب على المجتمع لسعادته ورفاهيته لابد أن يحمى المجتمع من عدوان الفرد ، ولابد أن يكون عقابه له شديداً صارما متى انحرف ، لانه ان لم يؤخذ بالشدة يعدى المجتمع بجرائمه ، والعضو الفاسد الموبوء الذى يودى بسلامة الكيان كله لابد من بتره ...

وقد احتاط هذا النظام القرآنى . فلم يوجب القطع الا عند تحقيق كل الواجبات المفروضة للسارق باعتباره من أفراد المجتمع ، فاذا حصل أى انحراف فى هذا النظام فلا قطع كما فعل عمر بن الخطاب . وسواء أكان هذا الانحراف الذى مس النظام طبيعيا أو مصطنعا . فالانحراف الطبيعى هو الذىيكون لسبب جائحة من الجوائح الطبيعية التى لا قدرة للانسان على ردها كعدم نزول المطر ، أو جفاف الآبار والانهار ، أو زلزال أودى بالثروات ، وافسد الحياة ، أو آفة زراعية أفسدت المحصولات ، أو ما شاكل ذلك . فان عمر لم يقطع يد السارق فى عام الرمادة . وهو عام جفت فيه الآبار ويبست فيه المزروعات ومات فيه الانعام والماشية .

والانحراف المصطنع كظلم الحكام وظلم الأغنياء واختلال ميزان العدالة وانحراف السياسة الاقتصادية عن خطوطها المرسومة لها . فان عمر لم يقطع ايدى السرقة حينما علم انهم اجراء لأحد الأغنياء ، وكان يشح عيهم فلا يطعمهم اللحم حتى اشتهوه فسرقوا ناقةوأكلوها . فأعفاهم من القطعوألزمهمؤاجرهم بدفع قيمة الناقة المسروقة مضاعفة لصاحبها ، وأمره أن يطعم اجراءه حتى لا يضطرهم الى السرقة .

وكذلك احتاط المشرع الاعظم فى الاحوال العادية فلا تقطع يد السارق الا اذا كانت السرقة مستوفية لجميع الأوجه القانونية التى بينتها كتب الفقه الاسلامى . فأين هى القسوة والهمجية فى ذلك ؟ انها شدة كشدة الطبيب الذى لا يبتر عضوا الا عند الاضطرار ، ليضمن سلامة الجسم وصحته ، وعدم تسرب الفساد اليه .

هذا فيما يختص بعقاب السارق اذا سرق مالا أو عقارا او آثاثا أو متاعا أو ما شابه ذلك . أما الايدى التى تقطعباسم الاسلام ، واقامة حدوده فى بعض البلاد الاسلامية ، فان ذلك لا يتفق مع نظام الاسلام وشريعته السمحة . ان الفرد فىتلك المجتمعات لا يتمتع بأى حق من الحقوق الانسانية التى منحها الاسلام .

فالسياسة الاقتصادية منحرفة انحرافا مريعا لا يقره الاسلام . والاسلام يوجب محاربة كل انحراف فى تشريعهوواقع

المجتمع الذي تقطع فيه الأيدي والأرجل والرءوس باسم الاسلام ليس فيه اي ضمان من الضمانات الكثيرة التي منحها الاسلام للفرد . ان الاسلام نظام كامل ، وكل لا يتجزأ فاما أن يؤخذ كله ، واما أن يترك كله . فهو يضمن الحقوق والواجبات ويعطيها فاذا تحقق ذلك عاقب بقدر ما أعطى . واذا لم تتحقق الضمانات الممنوحة فلا عقاب . يقول الله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » تلك هي روح الاسلام وعدالته .
فاذا كان الله تعالى لا يعذب من يكفر به حتى يبعث رسولا ؛ لتكون الحجة قائمةاذا نزل العذاب ، فكيف يبيح قطع يدا سارق في الوقت الذي منع هذا السارق من حقه باعتباره أحد أفراد المجتمع ؟ ان من يسرق حقوق المجتمع ويحتجز أرزاقه ، ويختص بها نفسه وعشيرته أجدر بقطع اليد من غيره . واذا اجترأ الجاني أو المجرم وأباح لنفسه الانتقام وانزال العذاب بالبائسين والضعفاء وممنوعي الحقوق بحجة اقامة الحدود . فان هذا الاجتراء جريمة لا تغتفر . وحينئذ يكون الحكم مهزلة ،والنظام فوضى ، ودعوى العدالة دعوى مكذوبة . ان القرآن يهدى للتي هي أقوم . فهل اعمال أولئك الضالين والطريقة التي يسلكونها صحيحة وقويمة وهل تلك هي هداية القرآن ؟ كلا ان المزيفين على القرآن ينتظرون القارعة وستحل بهم قارعةمن السماء ومن الارض ومن حيث لا يشعرون . فلينتظروا وانا معهم منتظرون .

***

ويحسن هنا أن ننقل ما قاله الاستاذ سيد قطب فيكتابه « في ظلال القرآن » عند تفسيره لقول الله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله غفور رحيم » .
يقول سيد قطب : « ولابد من بيان لهذا الحد الذي يبدو في ظاهره قاسيا حين ننظر اليه نظرة سطحية الى شيء مادى يسرق والى يد حية تقطع . ان الاسلام كل متكامل ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها الا أن ينظر في مبادئه كلها ، وضماناته للناس جميعا .

والاسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد في الحياة ، وحقه في كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة من الانسان ـ كل انسان ـ

له الحق فى أن يأكل وأن يشرب . وأن يلبس وأن يكون لهبيت يسكنه ويؤويه . لان ذلك كله ضرورى لحفظ الحيـاة ومثلها الدواء فى حالة المرض .

من حق كل انسـان على الجمـاعة التى يعيش فيهـا وعلى الدولة النائبة عن هذه الجماعة ان يحصل على تلك الضروريات .

اولا عن طريق العمـل ما دام قادرا على العمـل . وعلى الجماعة والدولة النائبة عن هذه الجماعة أن تعلمه كيف يعمل . وان تيسر له العمل ، ومعه اداةالعمل ، فاذا تعطل لعدم وجود العمل أو اداته ، أو لعدم قدرته عليه جزئيا أو كليا ، وقتيا أو دائما ، أو اذا كان كسبه من عمله لا يكفى لضرورياته فله الحق فى استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه . أولا من النفقة التى تفرض له شرعا على القادرين فى أسرته ، وثانيا على القادرين من اهل محلته وثالثا من بيت المال من حقه المفروض فى الزكاة . فاذا لم يجد من هـذه الموارد فله شرعا أن يقاتل من بيده ضروراته هذه ، ويمنعها عنه وأن يقتل ليحصل عليها . فان قتل هو فهو شهيد وان قتل المانع فهو فىالنار . واذن فلماذا يسرقالسارق فى ظل هذا النظام ؟ أنه لا يسرق لحاجة ، انما يسرق الطمع فى الثراء . والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذى يروع الناس ، ويحرمهم من الطمأنينة على ماكسبوا من مال حلال . فالاسلام لا يعترف بملكية لا تتخذ من حلال . وانه لمن حق كل انسان فى مثل هذا المجتمع الاسلامى كسب ماله من حلال ، لا من ربا ولا من غش ولا من احتكار ، ولا من أكل أجور العمال . ثم يخرج زكاته . فاذا احتاجت الدولة أكثر من الزكاة أخذت بحسب الحاجة . من حق كل انسان فى مثل هذا النظام أن يأمن على ماله . وأن لا يباح ماله للسرقات . فاذا سرق السارق بعد ذلك ــ وهو مكفى الحاجة ــ فانه ان لم يكن مكفيها قاتل علنا عليها فانه لا يسرق وله عذر . والسيف الذى وضعته الشريعة فى يده ليقاتل به من يمنع عنه ضروراته هو نفس السـيف الذى تقطع به هذه الشريعة يده اذا هو مدها الى مال سواه من غير عذر ولا شبهه .

فأما حين توجد شبهة له من حاجة ــ لم يستطع أن يقاتل عليها فسرق ليسدها ــ فالمبدأ العام فى الاسلام هو درء الحدود

بالشبهات ،لذلك لم يقطع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أيدي غلمان ابن حاطب بن ابى بلتعة حين سرقوا ناقة . وتبين أن سيدهم لا يعطيهم كفاية من طعام بل غرم السيد ضعف ثمن الناقة ،وأطلق سراح الغلمان . وكذلك لم يأخذ احداً بحد السرقة فى عام الرمادة لأنه كان هناك مجاعة عامة فهى شبهة عامة تدرأ الحد حسب شريعة الله ورسوله .

وهكذا يجب ان نفهم حدود الاسلام فى ظل نظامه المتكامل الذى يضع الضمانات للجميع لا لطبقة على حساب طبقة . والذى يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ اسباب العقوبة . والذى لا يعاقب الا الظالمين المعتدين بلا سبب للاعتداء ، لذلك يقول وهو يشدد عقوبة السرقة « فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » فهى تنكيل رادع لمن ؟

يبدو ذلك فى الآية التالية اذ يقول : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه» فهو الظلم اذن فى تلك السرقة. والظلم لا يتحقق . والسارق مظلوم يطلب الكفاية ويحقق لنفسه ضرورات الحياة التى فرضها له الله ، وجعلها حقا له كحق الحياة « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم » فشريعة الاسلام لا تدع السارق المقطوع يموت من الجوع هو وأهله وعياله كما تصنع شرائع الأرض بالمحكوم عليهم فى سرقة ، فتعدهم من ارباب السوابق ، وتحرمهم حق العمل ، وينبذهم المجتمع حتى يضطروا الى حياة الجريمة من جديد وحتى يتشرد أطفالهم ونساؤهم لأنهم سرقوا رغيفا ليأكلوه . كلا ! فان شريعة الله لأحكم وأرحم من شرائع المتمدينين فى هذه الأيام .

انها تضمن للمقطوع فى سرقة رزقه ورزق عياله من بيت مال المسلمين . فاذا تاب قبلته عضوا صالحا فى المجتمع وقبله الله عبدا صالحا من عباده فى الآخرة فلا يتشرد ولا يهمل ، ولا يتكفف الناس ،/ أو يعود الى حياة الاجرام . انتهى ما نقلناه من كتاب (فى ظلال القرآن)

هذا هو الفقه فى دين الله وشريعته وأمثال هذا هم الفقهاء حقا . فليس الفقه سردا لآيات الله وحديث رسوله دون تدبر ولا وعى . انما الفقه فطنة وتبصر وسير على المبدأ العام فى الشريعة واستشفاف لروحها والإحاطة بأحكامها العامة ،لتكون الاحكام

متفقة مع مايريده المشرع لا كما يفعل أولئك الجهلاء الأغبياء الذين يتصدرون مجالس الافتاء ، ويفتون بسفك الدماء بغير حق ، ويفتون بقطع الأيدى والأرجل ظلما وعدوانا وافتراء على هدى الله ورسوله . وهم أولى الناس بالعقاب الشديد الصارم الذى ينزلونه بالمنكوبين الذين نكبهم الله بهذه الشرذمة الضالة الزائفة المارقة . وأوقعهم فى أيديهم الآثمة . ان أولئك المارقين يقتحمون ساحة الفقه والافتاء الطاهرة فيدنسونها بدنس قلوبهم وأفئدتهم ويشوهون جمالها وعدالتها وقدسيتها بسواد قلوبهم وغلظة اكبادهم وفساد أفهامهم .

ان الله غيور شديد النقمة والعقاب ،واذا أمهل فانه سبحانه لا يهمل وسينزل بكل من زيف دينه الحنيف ، وشوه هديه الكريم السامى وأساء الى شريعته السمحة وجعل السنة أعداء الله ورسوله تنطق باتهامه ووصمه ، بما ليس فيه عذابا أليما . ويجعلهم عبرة للمعتبرين .

ان الله لايرضى لعباده الظلم، وقد ابتلى المسلمون بمن ينزل بهم الظلم ، ويزعم أنه انما يعمل ما يعمل تنفيذا لحكم الله وتطبيقا لشريعته . والله يعلم انهم لكاذبون ، وقد انتهى الزمن الذى كان تضاليلهم وزيفهم ومروقهم عن الدين ينطلى على الناس ، وأصبحنا فى عصر تنبه الناس فيه لحقوقهم وعرفوا حقيقة دينهم وسيعرف المظلومون كيف يأخذون حقوقهم المسلوبة وينتقمون من الظالمين. وليس ذلك ببعيد .

القرصنة واللصوصية والخطف :

وهناك من هم أشد خطرا وأكثر فسادا من السرقة العاديين تلك هى عصابات القراصنة واللصوص والخطافين الذين يعيثون فى الأرض فسادا ، فيغيرون على قوافل التجار والحجاج فى البر والبحر . ويروعون الآمنين ويقطعون الطرق ، فيخطفون الاطفال والنساء والشيوخ بل والشباب والكهول ، ويضربون عليهم الرق ، ويختلفون بهم على الأسواق فى المدن والقرى ويبيعونهم بيع الأثاث والمتاع والبهائم ، وان نعجب لشيء فالعجب ممن يتعاملون مع هؤلاء ، ويبيحون لأنفسهم مشاركتهم فى جرائمهم ، ان التعامل معهم تشجيع لهم واغراء على الاستمرار فى الاجرام .

وقد رأينا فيما عرضـــنا له ان الرومانيين والاغريق كانوا يعتبرون هذا الاجرام مهنة العظماء والشرفاء ، وكان حـكامهم ينظمون أمر هذه العصابات ويزودونها بالســـلاح والســـفن والركائب . لاستيراد الرقيق عن هذا الطريق . وكم من مدن وقرى فجعت فى عائلاتها وأطفالها ونسائها . وكم من حجاج وتجار فجعوا فى أنفسهم وأموانهم ،وكم من دماء زكية بريئة سفكت فى سبيل الشيطان لارتكاب هذا الفساد .

لقد أعد القرآن لهؤلاء العابثين الفاسدين عقابا شـــديدا صارما . وعد أعمالهم مثل الكفر بالله ومحاربتهم له ورسوله . فقال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسونه ويسعون فى الأرض فسـادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

ان هذه العصابات تهدد الأمن العام ، وتتسبب فى وقف دولاب الأعمال التجـارية والصناعية والزراعية وتشـيع الرعب والخوف فى قلوب الافـراد والجماعـات وتهدر آدمية الآدميين باسترقاقهم وســوقهم كالانعام للتجـارة « وتفـرق بين الأزواج ، وتبعد الآباء عن أسرهم والأمهات عن أبنائهن وما الذى يحملها على ذلك ؟ انها الرغبة فى الشر والحقد على الانسانية ، والكراهية للأمن والسلام . لقد كانوا قبل اقتراف جرائمهم محل العطف والرحمة من المجتمع ، يأخذون حقوقهم ، ويجدون العدل والعدالة والتكريم والتفضيل من الله والناس جميعا ، فأساءوا الى من أحسن اليهم ، وارخصوا أنفسـهم فأرخصهم الله وجعل عقابهم شديدا صارما ، ليخزيهم فى الدنيا ، ويعظ الناس بهم ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم

وهذا العقاب الصارم الذى شرعه الله ليرتدع به المفسدون ، من يقوم بتطبيقه ؟ تقوم بتطبيقه الحكومة الرشيدة التى ضمنت لمجتمعها كل حقوقه عليها ، وأعطتها كاملة غير منقوصـــة . أما الحكومة الفاسدة التى تستخدم كل ما أوتيت من سلاح وقوة وسلطان لتشيع مايشيعه المفســدون من اســترقاق الأفراد والجماعات بل والشــعوب . فان جزاءها جزاء هــذه العصابات . وعقوبتها ، أى عقوبة القائمين على راس مثل هذه الحكومة ، هى نفس العقوبة التى تنزل بعصابات الافساد . وللناس أن يخرجوا

على حكومة لا تؤدي ضمانات الاسلام وتسرق الحقوق والواجبات، وتفتك بالناس سرا وعلانية ، لأنهم انما يخرجون على عصابة تهزأ بكتاب الله وتشوه شريعته. ولذلك جاء في بعض التفاسير عند تفسير هذه الآية الكريمة قوله: ولأمر ما قال النص: « الذين يحاربون الله ورسوله » ، والخارجون بالقوة المسلحة على نظام الجماعة لايحاربون الله على ظاهر النص ، لأن الله لايحاربه العباد بالسيف وقد لا يحاربون رسول الله بشخصه صلى الله عليه وسلم انما أراد بحرب الله ورسوله حرب شريعة الله وشعائره وحرماته ، وتهديد الجماعة الاسلامية التي كفلت لها الشريعة حرماتها الا بحقها . وانما أراد بهذا النص أن السلطان الذي يحق له أن يعاقب الخارجين بعقوبة الله ، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله وينفذ شريعة الله ورسوله . فأما الذين يخرجون على نظام غير نظام الله ورسوله فليس لأحد ان يأخذهم باسم هذه الشريعة . ولا أن يعاقبهم بعقوبات هذه الشريعة . . .

نقرر هذا بوضوح لأن بعض أذناب السلطة في كل زمان ، كانوا يفتون لحكام لا يستمدون وجودهم من شريعة الله : ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة . يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بتلك العقوبات باسم شريعة الله . وهؤلاء الخارجون لم يكونوا يحاربون الله ورسوله ، لأنهم انما كانوا يحاربون سلطة خارجة على شريعة الله ورسوله .انه ليس لسلطة لا تقوم على تنفيذ شريعة الله أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله .لهذا كان النص : « الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا » . يسعون في الأرض فسادا بمحاربتهم الله ورسوله ، وبانتهاكهم بالقوة حرمات الله ورسوله ، وباعتدائهم المسلح على امن الجماعة القائمة بشريعة الله ورسوله . انما جزاء هذه العصابات المسلحة التي تروع الناس وتسلبهم أموالهم وارواحهم ، وتعتدي على أعراضهم وحرماتهم ، جزاؤهم أن يقتلوا أو أن يصلبوا حتى يموتوا ، أو أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو أن ينفوا من الأرض .

اذن فقد تساوت — كما سبق أن قلنا — جماعة الحكام المزيفة المفسدة وعصابات الافساد ، وأصبحت جريمة هؤلاء وهؤلاء واحدة ، فعقابهم يكون واحدا لا شك .

والعقاب مهما كان شديدا ومريعا اذا نزل بالحاكم المنحرف عن دين الله المفسد لشئون الجماعة المعتدى على حقوقها هو كفاء افساده وانحرافه وعدوانه . لأن الأثر الذى يتركه فى المجتمع ، اشد وأعمق سوءا من الأثر الذى تتركه عصابات الافساد من الناس العاديين .

لأن العصابة اذا استرقت عشرات الأفراد بمـــا لديها من قوة مسلحة محدودة فان الحاكم المنحرف يسترق شعبا بأكمله لأن لديه من أدوات العدوان أضعاف أضعاف مالدى العصـــابة . فجريمة أشـــد خطرا وأعمق غورا ، وأبلغ جرحا للانســـانية التى كرمها الله .

فاذا أراد الناس أن يعيشــوا أحرارا كراما معززين محتفظين بآدميتهم وحقوقهم التى شرعها الله لهم فعليهم ألا يمكنوا العصابات المفسدة الضالة من العبث بهم ، ويدافعوا عن ذلك ما وســـعهم الدفاع فان ماتوا ألحقهم الله بالشهداء والصديقين ، وان عاشوا فعيشة انســـانية حرة كريمة . أما ان استخذوا فانهم يفعون فى الرق لا محالة . والرق يأباه كل من كان فى نفسه ذرة من ايمان بالله بارىء الأنفس والنســـمات . لأن الله يقــول : (والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون) وتلك هى صفة المؤمنين . واذا حرص كل مجتمع على حقوقه ، ودافع عنها وجاهد فى سبيلها تنبثق عنه حكومة صالحة ، تحمى مجتمعهـــا من أن تنجم فيه عصـــابات شريرة تخيف الانفس . وتعتدى على الآمنين واذا نجمت مثل تلك العصابات الضارة كان فى امكانها أن تنزل بها العقاب الذى شرعه الله .

ان مثل تلك العصابات لا تنجم غالبا الا من انحراف السياسة الصالحة ، اقتصادية كانت أو قضائية أو اجتماعيـــة فاذا استقامت الشئون لا تنجم تلك العصابات الا بدوافع اجراميـــة شريرة فيجب حينئذ أخذها بالصرامة والشدة ، كما هو المنصوص فى القرآن . ان أخذ المفسدين بالشـــدة فى القرآن دليل على غيرة الله على آدميـــة الآدميين وأمنهم وسلامتهم وليست هى دليل القسوة والهمجية كما يقول الجاهلون والمفترون .

وان تعجب فاعجب لأولئك الذين يزعمون أن الاســـلام لم

يضبط أجهزة الدولة كما ضبطتها التشريعات الغربية . وهل يجدون فى التشريعات الاوربية ضبطا لاجهزة الدولة مثل هـذا الضبط الذى شرعه الاسلام ؟؟ ومن المؤسف أن القائلين مسلمون ، ويزعمون انهم مستنيرون ، ولو أنهم قالوا لم يوجد فى المسـلمين من يضبط أجهزة الدولة التى يريدها الاسـلام بتشريعاته بعد الخلفاء الراشـدين لكان ذلك صـحيحا ، ولجاء قولهـم آية على أستنارتهم .

ان التشريعات الاسلامية فى حاجة الى مؤمنين بها ذوى غيرة عليها ، ولو أتيح لها فريق من المخلصين يصفونها من كل ما علق بها من أدران العصور المظلمة ، وما شابها من الأهواء الضـالة والتخريجات السخيفة وينقونها من شوائب السياسات المنحرفه والتى أغرت كثيرا من الفقهـاء والمفسرين والمحدثين بالانحـراف تحقيقا لأغراض الحكام وميولهم لرأينا من العدل والعدالة والصعود بالانسانية الى مدارج الكمال ماتنبهر له الانفاس اعجابا ... ولو أتيح لتشريعات الاسلام علماء يصوغونها فى صورة دستور مبسط لوجدنا العالم يقرر تطبيقه فى كل مجتمع لو استطاع الخلاص من العناد والمكابرة . ولو أتيح لنا حكام قواموں على تنفيذ هـدى الله وهدى رسوله ، وما توخاه السلف الصالح ـ لا السلف الفاسد ـ لاصبحت مجتمعاتنا مصدر اشعاع قوى باهر للعالم كله ، ولاصبحت بلادنا قبلة أنصار الحق والعلم والانسانية من كل أركان الارض .

ان فى هدى القرآن وهدى الرسول كنوزا مخبوءة لو نبشنا عنها لأحدثت انقلابا عظيما فى الافكار وفى التشريع وفى المفاهيم وفى المسلك . وفى كل مايهم الانسانية كلها فى كل مرافقها ومختلف الوان نشاطها ولسلم من تهديد الاخطار المحدقة بها الآن .

لقد ابتلينا بمن عماها علينا ، وصرفنا عنهـا حتى تركناها وراء ظهورنا ، وانصرفنا نتطاب المخرج من أدوائنا فيما لدى الناس ، فزادت مشاكلنا ، وتضاعفت شقوتنا ، لاننا رحنا نتلمس العلاج بما لا يتفق مع طبائعنا . بل أن هؤلاء الذين رحنا نتلمس المخرج بما لديهم هم فى حاجة الى مخرج ، لانهـم انما يضربون فى بيداء التجارب لعلهم يجدون فى احدى تجاربهم المخرج من واقعهم الذى أرهقه القلق ، واضر به الخوف من المصـير الفاجع الذى يرون أنفسهم مدفوعين اليه دون رضا منهم أو اختيار .

والغريب اننا نجد التحمس عند الذين يقومون بالتجارب المختلفة والنظريات المتضاربة شديدا ، والغيرة على المضى لتحقيق نظرياتهم وتجربتها بالغة • ولا نجد عند المسلمين التحمس الكافى لتحقيق نظريات الاسلام التى قررها ، والتى شهد الواقع أنها صالحة لكل زمان ولكل بيئة .. قليلا من التحمس لدينكم أيها المسلمون !! وقليلا من الاصرار على تنفيذ ماشرعه الله !

ان قوانين بعض الامم الغربية أو كلها تمنع تظاهر الطوائف المختلفة اذا ما وقع عليها حيف او ظلم وان منحتها التظاهر فانما تمنحها الى حد ، وغالبا ما يكون هذا الحد الممنوح لا يحقق عدلا مطلوبا ، ولا يعطى حقا مسلوبا • وان أعطى فلا يعمد الا لانصاف الحلول ، لان قوانين أوربا انما يصدرها ويشرعها ذوو المنافع من أصحاب الاقطاعيات ، ورؤوس الاموال الكبيرة ، والحكومات الرأسمالية خاضعة خضوعا اما لهذه الطبقة ، فهى تنفذ ارادتها ولا تنفذ ارادة المطالبين بحقوقهم .

اما تشريع الاسلام فهو تشريع أسمى . تشريع الهي لم ينزل لارضاء فريق على حساب الفريق الآخر . فهو يضمن حقوق الجميع على قدم المساواة والحكومة ليست خاضعة لفريق من الناس أو لطبقة من الطبقات . وانما هى خاضعة لقانون ليست لها فيه يد ، وانما هى أداة تنفيذ للقانون الذى بين يديها • وهذه الشريعة فرضت على الحكومة ضمانات لجميع الافراد ولجميع الطبقات فاذا لم تف بضمانات هذه الشريعة أو جبت على المجتمع تنحية الحاكمين عن كراسى الحكم ، ولو أدى ذلك الى حمل السلاح واشهاره فى وجوههم • وأعطت لكل ذى حق لم يصل الى حقه أن يقاتل حتى يناله •

هذه الحقوق الممنوحة شرعا للافراد جعلت عقابهم شديدا صارما اذا أعطتهم الدولة حقوقهم كاملة غير منقوصة ثم لم يكتفوا بها ، وراحوا يعبثون بالامن ، ويهددون المجتمع فى سلامته واستقراره بارتكاب الجرائم المختلفة من سرقة وسفك للدماء وانتهاك للاعراض وقطع للطرق ..

فهل يجد القوالون ضبطا مثل هذا الضبط لاجهزة الدولة فى أى تشريع آخر ؟؟

ان حق الافراد فى مقاتلة من منعهم حقهم أكبر ضمان يضمن عدم انحراف الحاكم عن الخطوط المرسومة فى الشريعة الاسلامية

وخوف الحاكم من ثورة الافراد عليه يجعله دائما متحريا للحق والانصاف مبتعدا عن الظلم والانحراف .

وخوف الفرد من العقاب الشديد المعدله ، اذا هو انحرف حبا فى الاجرام واثارة الشر وشيوع الفساد أكبر ضمان لعدم عبثه بأمن الجماعة واستقرارها .

انه ضبط فذ لأجهزة الدولة .

اما أن المسلمين — حاكمين ومحكومين — لم يحرصوا على التقيد بشريعة القرآن فتلك مسألة لا يحمل اثمها القرآن . وانما يحتمل اثمها العابثون بشريعة القرآن .

رواسب الرق :

لقد رأينا فيما سلف كيف عالج القرآن الكريم المشاكل المختلفة التى كانت تدع منابع الرقيق تتفجر باستمرار فى المجتمعات الانسانية . وكانت حلوله حلولا عبقرية فذة . لم تسبقه شريعة من الشرائع الى مثلها . لقد نظر الى مشكلة الرقيق فوجدها — كما قلنا — مشكلة متولدة من عدة مشاكل وليست هى مشكلة قائمة بذاتها مستقلة عما سواها .

من تلك المشاكل ما هو فكرى ، وما هو اقتصادى ، وما هو اجتماعى ، وماهو كهنوتى ، وما هو عنصرى ، وما هو طبقى . الخ ... فعمد الى المشاكل الفكرية والفلسفية والروحية . فحرر العقول والافكار والارواح من كل فكرة خاطئة ، ومن كل عقيدة فاسدة . وقضى على الفلسفات المنحرفة التى تجعل من الناس فريقا لهم السلطة والسيادة ، وفريقا عليهم الرق والاستعباد .

وقضى على الخرافات الكهنوتية التى كان رجال الدين يروجونها ، ويستغلون سذاجة الناس فيسترقون أرواحهم ، ويتحكمون فى حياتهم ومصائرهم ، ويستلبون عن هذا الطريق أموالهم وحرياتهم . وضرب روح الغلظة والقسوة التى كانت

سائدة فى الشرائع والقوانين التى تحكم بها المجتمعات الانسانية حتى قضى عليها ، وأقام بدلها روح الرحمة والتعاطف ، واصلح الاوضاع الاقتصادية الفاسدة . فوزع الثروات توزيعا عادلا ، وحـــدد ملكية الارض وملكية النقـــد ، ومنع الاحتـــــكار والاكتناز ، وحرم الربا والقمار والرشوة والقرصنة واللصوصية . وجعل من حق الجماعة أن تشترك فى الضرورات الاولية للحياة . ومنع الافراد والجماعات من احتكارها واستغلالها فكل الناس فيها سواء . ووضع معايير جديدة توزن بها اقدار الناس ، وساوى بين الذكى والغبى ، والعالم والجاهل ، والاسود والابيض أمام القانون ، وأطلق الحريات جميعها ، فكل الناس أحرار فى عقائدهم واعمالهم وتجـاراتهم وتفـكيرهم وتصرفاتهم فى حـــدود الاطار الاسلامى العام .

وحرم الحروب العدوانية ، واعد لكل عدوان عقوبة ، واحاط الانسانية بسياج من آدابه وتشريعاته ووصاياه . يضمن لها العزة والكرامة والحرية والعدل . ووضع لكل مشكلة من المشـــاكل الانسانية حلا حاسما ترتضيه النفوس ، وتقتنع به العقول ، وتصلح به الحياة ، وتطمئن له القلوب والارواح .

وقد بقيت فى المجتمع الاسلامى رواسب للرقيق من عصور الجاهلية . ورواسـب من أسرى الحــروب التى كانت مشتعلة بين الاسلام وأعدائه . وبقيت أمم وشعوب ما زالت مصرة على معاداة المسلمين ، والتربص لهم ، وشن الحروب عليهم ، والاغارة على بلادهم . وقد أبان لنا القرآن الكريم الحـــكم فى أسرى الحـروب المشروعة . وقد سبق أن أبنا ذلك تفصيلا . ولم يقر القرآن سرقة الناس من بلادهم أو الاغارة عليهم بغيا وعدوانا . ثم استرقاقهم ، وجعل عقوبة من يفعل ذلك عقوبة صارمة . فاما أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهــم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض وجفف كل المنابع التى كانت تتفجر بالرقيق فحرم الربا والميسر ، وقضى على عصابات القراصنة واللصوص . . وكل ذلك بيناه فيما سلف .

أما مارسب من الرقيق من عصور الجاهلية . فكل الآيات القرآنية الخاصة به دعت الى تحريره من ربقة الاسترقاق ،

ولم تجرده من آدميته . ولم تعتبره شيئا لا شخصا كما كانت تعتبره الشرائع القديمة ، وجعلته يقف مع غيره أمام القضاء موقف الندللند فى جميع الحقوق والواجبات . أما فى الجرائم فقد خففت عنه العقوبة فىمقابل مانقص من حريته لا كما كانت تفعل الشرائع القديمة التىتتخذ من سلبه الحرية مدعاة للاجحاف به والقسوة عليه ، وانزال كل أنواع الفظاعة والوحشية والجبروت به .

ان الشرائع القديمة كانت تتجاوز عن اخطاء السادة الأحرار ولا ترحم الارقاء ، وتقسو عليهم ٠ مع ان المنطق السليم يقضى بأن نتجاوز عن اخطاء من لايملك حريته ، ولا يملك من أمر نفسه شيئا ، اذ ربما يكون الدافع لجريمته اغراء مالكه على ارتكاب الجريمة أو مشايعته المفروضة له ٠ أو أن ما يلقاه من جحود ونكران وارهاق ، أثار نفسه فارتكب جريمته ، وهذه هى الآيات البينات التى وردت فى القرآن الكريم خاصة بالرقيق نوردها ، ليقتنع من يقتنع عن بينة ، وليفكر من يفكر عن بينة أيضا . وحتى لا تكون له حجة يستند عليها فى كفره بالقرآن ، وافترائه على تشريعه السمح الاغر .

ما جاء فى القرآن : يقول الله تعالى ٠

١ ـ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) سورة البقرة آية ١٧٧ ٠

٢ ـ (وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) النساء ٣ .

٣ ـ (والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم) النساء ٢٣ .

٤ ـ « ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات

فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنـــات والله أعلم بإيمانكم بعضـكم من بعض . فانـكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجـورهن بالمعروف محصنات غير مســـافحات ولا متخـذات أخدان فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) النساء ٢٥ .

٥ ـ (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لايحب من كان مختالا فخورا) النساء ٣٦ .

٦ ـ (وما كان لمؤمن أن يقتـــل مؤمنا الا خطأ ومن قتـــل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما) النساء ٩٢ .

٧ ـ لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بمـا عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) المائدة ٨٩ .

٨ ـ انما الصدقات للفقراء والمســاكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) التوبة ٦٠ .

٩ ـ (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت ايمانهم فهم فيه سـواء أفبنعمة الله يجحدون) (١) النحل ٧١

---

(١) جاء تفسير الخازن لهذه الآية قوله : فلا تحسبن الموالى يردون رزقهم على ممانيكهم من عند أنفسهم . بل ذلك رزق الله أجراه على أيدى الموالى للماليك ، والمقصود منه بيان أن الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وأن الموالى والمماليك فى الرزق سواء =

١٠ - (قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) المؤمنون ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .

١١ - قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات

= ويقول النسفى فى تفسيره : فكان ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا فى الملبس والمطعم .

ويقول فريد وجدى : فما الذين فضلهم الله فى الرزق على غيرهم بمعطى مماليكهم الرزق المقسوم لهم بل معطيهم رزقهم هو الله نفسه وانما جعل رزقهم تحت أيديهم فهم وسطاء لاغير . فاستوى اذن المالك والمملوك كلاهما عيال الله . »

والخلاصة أن الكفار كانوا يأبون المساواة مع عبيدهم ، ويأبون مشاركتهم فى الرزق ولا يردون عليهم فضل أموالهم . بل كانوا يبعثرون أموالهم فى الضلال والكفر وشهوات النفس .

لقد كان الرقيق يقومون بتنمية الثروات التى كانت للسادة كما يفعل العمال الآن سواء كان ذلك بالتجارة أو بالصناعة أو بالزراعة . فيستأثر السادة بالارباح ويعيشون عيشة ناعمة مترفة . ويعيش العبيد عيش الشظف والحرمان . كما هو حال العمال الآن فى البلاد المستعمرة وغيرها .

وقد عد الله ذلك جحودا بالنعمة . لان الشكر على النعمة والاحتفاظ بدوامها لا يأتيان عن هذا الطريق . وانما يأتيان عن طريق المساواة والمشاركة . والبر بالناس .

وبهذه الآية الكريمة وضع الله لنا مبدأ الاشتراكية أو المشاركة فى الاموال والارباح بين صاحب المال وبين العامل . فلعل مجتمعاتنا الاسلامية تتفطن لما شرع الله لها من حقوق وتعمل على نوالها . ولعل الفقهاء والمشرعين يفيئون الى أمر الله وتشريعاته المحكمة العادلة البارة . ويحققون ماشرعه الله لعباده وحينذاك يحق لنا أن نقول : اننا ندين بالقرآن ونهتدى فى حياتنا بهديه .

يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن او اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيهـا المؤمنون لعلكم تفلحون) النور ٣٠ ، ٣١ .

١٢ ـ (وأنكحوا الآيامى منكم والصالحين من عبادكم واماثكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) النور ٣٢ .

١٣ ـ (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) النور ٣٣ .

١٤ ـ (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) النور ٥٨ .

١٥ ـ (ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) الروم ٢٨ .

١٦ ـ (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الارحام

بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا) الاحزاب ٤ . ٥ ، ٦ .

١٧ ــ (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) الأحزاب ٥٠ .

١٨ ــ (ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم مافى قلوبكم وكان الله عليما حليما . لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا) الاحزاب ٥١ ، ٥٢ .

١٩ (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله ان الله كان على كل شى شهيدا) الاحزاب ٥٥

٢٠ ــ (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) المجادلة ٣ .

٢١ ــ (والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) المعارج ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

٢٢ ــ (فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة) البلد ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

***

هذا كل ما جاء فى القرآن الكريم مما هو مختص برواسب الرقيق من العصور المنحدرة ، ومن بقايا الحروب التى كانت

مشتعلة بين المسلمين وغيرهم من أعداء الاسلام . ومما هو جدير بالملاحظة أن ملك اليمين لم يأت فى القرآن الا بصيغة الفعل الماضى وهذا يرجح ما نذهب اليه من ان المقصود بملك اليمين هو مارسب من زمن الجاهلية ، ومن أسرى الحروب الاسلامية . ولم نجد آية واحدة جاءت بصيغة فعل المضارع فليتنبه لهذا المتنبهون .

ان الآية الاولى (رقم ١) تلزم الاغنياء أن يخصصوا من أموالهم حصة لفك الرقاب المسترقة فى المجتمع الاسلامى ، ليكون مجتمعا حرا . كل الناس فيه أحرار متساوون . وجعل الله ذلك هو البر الحقيقى الذى يريده . أما المجـالات والمناقشـات فيما لا يعود على المجتمع بفائدة فليس ذلك من البر فى شىء . « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » . أعبـدوا الله كما تشاءون ولا تزعموا أنكم بارون الا اذا أنفقتم المال فى الوجوه التى بينها الله لكم فى هذه الآية الكريمة . تلك هى الانسانية السامية ، وذلك هو البر الانسانى الجدير بالتمجيد والخلود . أما المناقشـات البيزنطية فى شأن العبادات والتمحكات البدوية الجاهلية فلا لزوم لها ، لأن العبادات انما هى وسائل لغايات أسمى .

وفى الآية الثانية (رقم ٢) يحظر الله على الناس تعـداد الزوجات الحرائر عند خشية العدل بينهن . أما ماملكت الايمان فانه لم يحـدد لهن عددا ، وترك التعـداد مباحا من غير قيـد ولا شرط . والحـكمة فى ذلك واضحة فان الأمة اذا حملت من زوجها ، وأصبحت أم ولده تحررت . فالقرآن لم يحدد العدد ، ولم يحظره ، ولم يقيده بقيـد لتحـرر اكبر كميـة من النساء الرقيقات فى المجتمع . وحكمـة أخرى ذكرها الله تعالى فى هـذه الآية الكريمة فقال : (ذلك أدنى ألا تعولوا) أى لاتجوروا وتثقلوا فنكاح الحرائر له تكاليف مثقلة . اما نكاح ما ملكت أيمانكم فهو لايثقلكم بتكاليف تبهظكم . وفى ذلك حث للرجال على نكاح الاماء لينتقلن من الرق الى الحرية . وهـذا التشريع الكريم بعكس ما كانت عليه الشرائع السابقة ، اذ كان بعضهـا ينزل العقاب الشديد بمن يطأ المسترقة ، وبعضها يلحقه بزمرة الرقيق . أما القرآن الكريم فهو يحث عليـه ليلحق المسترقة بالحرائر فأين هذا من ذاك ؟

وفى الآية الثالثة (رقم ٣) تأكيد للمعنى الموجود فى الآية الثانية وهو أن المحصنات من النساء محرم نكاحهن حتى يخلصن من أزواجهن اما بموت أو طلاق. اما سبايا الحرب فان أزواجهن قد قتلوا فى المعركة ، أو أن أزواجهن ما زالوا محاربين لله ولرسوله وربما يكون لديهم سبايا من المسلمات فالمعاملة بالمثل فى هذه الحالة واجبة . فنكاح السبايا مباح لمن هن فى حوزته وفى ذلك حكمتان : الاولى أنها معاملة بالمثل . والثانية أن نكاحهن وسيلة لتحريرهن اذا أصبحن أمهات أولاد . كما ذكرنا ذلك آنفا .

وفى الآية الرابعة (رقم ٤) حض من الله تعالى على نكاح ملك اليمين نكاحا مماثلا لنكاح الحرائر باذن أولياء أمورهن ، وبصداق مدفوع ، وعقد مشروع . وسمى أولياء أمورهن أهلهن لئلا يشعرهن بالاهانة ولايسميهن اماء وانما يسميهن فتيات . ويقول الله تعالى : « بعضكم من بعض » . فليس هناك ميزة لكم عليهن فى شيء فأنتم منهن ، وهن منكم ، وكلكم من آدم عليه السلام .

ثم انظر الى سماحة الاسلام وكرم القرآن فانه بعد أن يرتفع بهن الى مرتبة النساء الحرائر يخفف عنهن العقوبة اذا أتين بفاحشة بعد كل ذلك فيقول تعالى : (فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) . يضع القرآن الكريم فى حسابه عند استحقاقهن العقوبة حالتهن الشعورية . فشعورهن مازال غير مستقر بأنهن اصبحن حرائر . فلهذا الشعور النفسى الذى يكمن فيهن خفف عنهن العقوبة .

ذلك هو القرآن ، وهذا هو شرعه الرحيم العادل .

وفى الآية الخامسة (رقم ٥) يأمر بالاحسان الى ماملكت الايمان . ويجعلهم فى مصاف الوالدين وذوى القربى والاصحاب الذين لابد من الاحسان اليهم والعناية بهم وعدم اهمالهم ، ويجعل هذا الاحسان مرادفا لعبادة الله وحده وعدم مشاركة أحد معه سبحانه فى العبادة ، على الا يكون هذا الاحسان مشوبا بالاختيال أو بالفخر ، لأن الله تعالى لايحب من كان مختالا فخورا

وفى الآية السادسة (رقم ٦) جعل الله كفارة القتل الخطأ

تحرير رقبة مؤمنة الى جانب الدية ، وسـواء وقع القتل الخطأ في نفس المجتمع الاسـلامى أو فى غيره ان كان المؤمن قتل خطأ رجلا من الاعداء ولكنه مؤمن ، أو أن القتل الخطأ وقع من مؤمن فى قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق ، ففى كل تلك الاحوال لابد من تحرير رقبة مؤمنة على القادر على التحرير .

وفى الآية السابعة (رقم ٧) جعل الله كفارة الايمان تحرير رقبة ، وفى هذه لم يشترط رقبة مؤمنة فيكفى أن يكون تحرير رقبة مؤمنة أو غير مؤمنة (والمراد بالمؤمنة المؤمنة بدين الاسلام)

وفى الآية الثامنة (رقم ٨) فرض على الدولة اخراج ثمن وارداتها لتحرير الرقاب ويؤكد الله ذلك بأنه فريضة من الله اذ يقول : « فريضة من الله والله عليم حكيم

فأين الحكومات التى قامت باسم الدين بأداء هذه الفريضة ولماذا لاتؤديها ؟ أين دعواها الدين ؟ وأين دعواها الطويلةالعريضة فى الحرص على شعائره وأداء فرائضه ؟ فلتعلم تلك الحـكومات انها خادعة مضـللة أو انها لا تعرف عن الاسـلام الا إسمه . وحسبها ذلك خزيا فى الدنيا وفضيحة بين الناس ولها فى الآخرة عذاب اليم .

وفى الآية التاسعة (رقم ٩) ينعى الله تعـالى على الذين فضـلوا في الرزق عدم مشاركة ماملكت أيمانهم فيمـا لديهم من سعة الرزق ، فلايجعلون انفسهم وماملكت أيمانهم فيه سواء ، لأنهم جحدوا نعمة الله عليهم . ولذلك يقول الله تعالى : «أفبنعمة الله يجحدون »

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسالة الى أبى موسى الاشعرى يقول فيها : واقنع برزقك من الدنيـا فان الرحمن فضل بعض عباده فى الرزق بلاء يبتلى به كلا ، فيبتلى من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله .

فأين قول الله تعـالى هـذا من معاملة الأمم الأخرى للعبيد ، أولئك الذين كانوا يتركون للعبيد الاعمال الشـاقة ويستمتع

السادة بعرقهم وجهودهم . ويقسون عليهم فى المعاملة ولايؤدون لهم من الطعام والشراب والملبس والمأوى مايكفيهم ، ان هؤلاء وأمثالهم يجحدون نعمة الله ويظلمون اخوانهم فى الانسانية ، أما شريعة القرآن فهى تفرض على الدولة أن تحــرر الارقاء وتحض الاغنياء على تحريرهم والاحسان اليهم كما هو مبين بأفصح بيان وفى الآية العاشرة (رقم ١٠) يبشر الله المؤمنين الذين يخشعون فى صلاتهم ويعرضون عن لغو الكلام ، ويؤدون الزكاة ، ويحفظون فروجهم عن النكاح الا على أزواجهم وما ملكت أيمانهم . يبشر الله المؤمنين الذين يفعلون ذلك بالفــلاح فيقول : (قــد أفلح المؤمنون) الخ أما من يبتغى ما وراء ذلك (فأولئك هم العادون) وقد سبق بيان نكاح ملك اليمين ، مفصلا فى الآيات السابقـة فلا حاجة الى اعادة ماتكلمنا عنه فى مواضعه السالفة . ولكنا نقول ان التكرار فى اباحة تعدد السرارى واباحة نكاحهن فيــه حكمة أخرى غير الحكم التى أبنا عنها . فأسيرات الحرب نساء كالنساء ، ولهن رغبــات طبيعية بدافع من الغريزة الانسـانية فلابـد من اشباعهــا . فان لم يبح المشرع هذا النكـاح فانهن يضطررن لاشباع غرائزهن من طريق الفحشاء . فيقع المجتمع فى مساوىء وأمراض اجتماعية . اذ يكثر نتيجة لذلك الفساد الجنسى ، ويكثر اللقطاء الذين يكونون عالة على المجتمع . والقرآن يريد تجنيب المجتمعات هــذه الامراض . فيلتحق الابناء باباحة نكاح الاماء بآبائهن ، وتتحرر الاماء عن هذا الطريق اذ يصبحن أمهات أولاد .

وفى الآية الحــادية عشرة (رقم ١١) أمر بغض البصر ، وحفظ الفرج عن المحارم للرجال ، وأمر مثله مع عــدم ابداء الزينة للنساء ، ولهن أن يبدين زينتهن أمام من ذكرهم الله فى الآية الكريمة ومنهم ما ملكت ايمانهن من الرجال .

وفى الآية الثانية عشرة (رقم ١٢) حث على انكــاح ملك اليمين من الرجال ، ونكاح ملك اليمين من النساء . فلا يمنعكم فقرهم من انكاحهم ، ولافقرهن من نكاحهن فان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم .

وفى الآية الثالثة عشرة (رقم ١٣) يأمر الله بمكاتبة من

أرد تحرير نفسه من الذكور والاناث ، ويأمر الله كذلك بمساعدتهم فى انجاز هذه المكاتبة وتيسيرها عليهم ، واعطائهم من المال مايسهل لهم اجراءات التحرير . وينهى عن اكراه الفتيات ، كما يسميهم القرآن وهن الاماء ، عن مزاولة البغاء كما كانوا يفعلون فى زمن الجاهلية . ومن يكرههن على ذلك يعد معرضا عن أمر الله مرتكبا للمعاصى . أما من أكرهها مالكها على ارتكاب الرذيلة فان الله يعدها مجبرة على فعل فاحشة لم تردها فيتولاها الله بمغفرته ، ولا يوجب عليها عقابا ولا يعدها آثمة .

وفى الآية الرابعة عشرة (رقم ١٤) من ادب القرآن الكريم جاء الامر بالاستئذان للك اليمين وللذين لم يبلغوا الحلم فان هؤلاء وأولئك فى داخل البيوت لا يستأذنون فى دخولها ، لانهم اصحابها أو كأصحابها . ولكن هناك أوقاتا لابد فيها من الاستئذان ، تلك الاوقات هى : وقت الظهيرة حيث يتخفف الانسان من ثيابه ، ويستمتع بقيلولة هادئة مع أهله . وكذلك بعد صلاة العشاء ، اذ يتهيأ الانسان فيها للنوم ولمضاجعة أهله . وفى آخر الليل حيث يقوم الانسان من نومه وهو بملابس النوم هذه الاوقات الثلاثة يأمر الله فيها بالاستئذان . وهو أدب تحتمه الضرورة ، ويدعو اليه الخلق الفاضل ، وترتاح اليه النفوس المهذبة .

وفى الآية الخامسة عشرة (رقم ١٥) ضرب الله مثلا للكافرين من انفسهم فان هؤلاء الكافرين لايرضون أن يشاركهم ارقاؤهم فى أموالهم فضلا عن أن يساووهم فيها . فكيف يجعلون لله مالك الكائنات كلها شركاء يشاركونه فى عبادته . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ثم جعلهم هم وما ملكت أيمانهم فى الرزق سواء وليس لهم أن يردوهم عنه .

وفى الآية السادسة عشرة (رقم ١٦) ابطال لعادة قديمة ينشأ من جرائها ارتباك فى المواريث والانساب . اذ كان بعض الناس يتبنى ابنا ليس من صلبه فيلحقه بنسبه وميراثه . فأمر الله بترك هذه العادة وأمر بأن يدعى الابناء لآبائهم الحقيقيين . ومن لم يعرف له أب فهو أخ فى الدين . ومولى ، له ماللناس جميعا من الحقوق والواجبات ، وعليه ماعليهم فى ظل مجتمع

لا خلخلة ولا اضطراب فيه . وفى هذه الآية ايضا ابطال لاجراء مؤقت اتخذه الرسول الكريم فى مطلع الدعوة حين آخى بين المهاجرين والانصار . وأعاد المواريث الى أولى الارحام كما أعاد التكافل فى الديات الى الأقرباء . الا أن يصنع الانسان باختياره معروفا الى من يشاء ، ففعل المعروف والاحسان لاحظر عليه .

وفى الآية السابعة عشرة (رقم ١٧) خاصة بما أحل الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم من النساء . وأحكامها خصوصية بالرسول وحده . وأما غير النبى صلى الله عليه وسلم فأحكامهم معروفة فيما يحل لهم من النساء ومالايحل . فهى آية تشريع لنكاح من يحل نكاحها من النساء للنبى خاصة . ولمن يحل نكاحها من النساء لغير النبى . وما ذكرناها الا لما جاء فيها من ملك اليمين .

وفى الآية الثامنة عشرة (رقم ١٨) حرم الله على النبى صلى الله عليه وسلم الزواج بغير نسائه اللواتى فى عصمته الا أن ينكح ماملكت يمينه . وقد روت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها أن هذا التحريم ألغى قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتركت له حرية الزواج ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج غيرهن فكن هن أمهات المؤمنين .

وفى الآية التاسعة عشرة (رقم ١٩) استثناء لمن لايحتجب النساء عنهم من الرجال المحارم المذكورين فى الآية الكريمة . وفيها ان ملك اليمين لاتحتجب عن مالكها .

وفى الآية العشرين (رقم ٢٠) كفارة الظهار تحرير رقبة . ولم يشترط هنا رقبة مؤمنة فأى رقبة كافية فى هذه الكفارة .

وفى الآية الحادية والعشرين (رقم ٢١) أمر بحفظ الفروج الا على الازواج وما ملكت الايمان . أما من لم يحفظ فرجه فانه يتعدى حدود الله .

وفى الآية الثانية والعشرين (رقم ٢٢) حض من الله على اقتحام العقبة النفسية التى تقف حائلا بين المرء وفعل الخير ، واقتحامها لايكون الا بفك الرقبة ، أو باطعام الطعام كما هو مذكور فى الآية .

تلك هي جملة الآيات التى وردت فى القرآن الكريم فيما يختص بالرقيق الراسب من زمن الجاهلية ومن أسرى الحروب والذى بقى فى أيدى المسلمين .. وكان نظام الرقيق نظاما شائعا فى جميع الامم والشعوب .

فهل وجدنا بعد هذه الدراسة واستعراض آيات القرآن ، آية قرآنيــة أو حديثـــا نبويا يفرض الرق على أحد ؟ أو ينزل بالرقيق الذى كان موجودا الى الدرك التى نزلت به اليه ، الشرائع والنظم والقوانين التى كانت سائدة قبل القرآن ؟!

ان كل ما جاء فى القرآن انمـــا هو لتصفية الرقيق وانهاء نظامه .

ان القرآن أعاد لهذه الفئـــة المنكوبة آدميتها ، واعطاها كل حرياتها المفقودة ، وضرب بالفلسفات المنحرفة والقوانين الجائرة عرض البحر وعرض الصحراء ، وارتفع بكل انسان ذكرا أو أنثى الى مراقى الحرية ومدارج الكمال وجعل كل الناس فى مستوى واحد، فكلهم لآدم وآدم من تراب . ولا فضل لأحد على أحد الا بالتقـوى فلا أجناس ، ولا الوان ، ولا طبقات تفضل بعضها بعضا ، وكلهم فى الانسانية اخوان .

ان الذين يتهمون القرآن بضرب الرق على فئـــة من الناس يفترون على القرآن ، ويضـــللون الناس ، والقرآن يتحدى بآياته المضللين والمفترين .

ما جاء في السنة :

أما ما جاء فى السنة فالأحاديث والأعمـــال الخاصة بالرقيق انما جاءت مطابقة لآيات القرآن وكلها للتحرير وليست للاستعباد والاسترقاق . فمن ذلك قول الرســـول الكريم : « أطعموا الجائع وفكوا العانى » . والعانى هو الأسير . وجاء فى صحيح البخارى فى (كتاب المـــكاتب) : وقال دوح عن ابن جريج قلت لعطـــاء : أواجب على اذا علمت أن له مالا ــ أى غلامى ــ أن أكاتبـــــه ؟ ، قال . ما أراه الا واجبا ، وقال عمر بن دينار قلت لعطاء أتأثره عن أحد قال : لا ، ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره أن ســـــيرين

سأل انسا المكاتبة وكان كثير المال فأبى ، فانطلق عمر رضى الله عنه فقال : كاتبه ، فأبى فضربه بالدرة ويتلو عمر « فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا » فكاتبه .

وهذه القصة المأثورة ترينا أن الحاكم له أن يجبر الممتنع عن المكاتبة بالمكاتبة تحقيقا للحرية التى ضمنها الله لعباده ، وروى مسلم عن أبى مسعود البدرى قال : « كنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفى » « اعلم أبا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب . فلما دنا منى اذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود ، اعلم أبا مسعود » فألقيت السوط من يدى ، وفى رواية قلت يا رسول الله : هو حر لوجه الله . فقال : « أما لو لم تفعل للفحتك النار ، أو لمستك النار » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ايما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها . وأعتقها وتزوجها فله أجران . »

وجاء فى صحيح البخارى : قال عروة : قالت عائشة رضى الله عنها : ان بريرة دخلت عليها تستعينها فى كتابتها وعليها خمسة آواق نجمت عليها فى خمس سنين . فقالت بها عائشة — ونفست فيها — أرأيت أن عددت لهم عدة واحدة ، أيبيعك أهلك فأعتقك فيكون ولاؤك لى ؟ فذهبت بريرة الى أهلها فعرضت ذلك عليهم . فقالوا : لا الا أن يكون لنا الولاء . قالت عائشة : فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال لهارسول الله صلى الله عليه وسلم : اشتريها فاعتقيها فانما الولاء لمن اعتق ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال رجال يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ من اشترط شرطا ليس فى كتاب الله فهو باطل . شرط الله أحق وأوثق » .

فهذا الحديث يرينا حرص المشرع الكريم على التعجيل بتحرير المسترق بدون شرط ولا قيد الا ما اشترطه الله سبحانه وتعالى فان شرطه أحق وأوثق . ذلك هو هدى الله وسنة رسوله .

ان شريعتنا السمحة لا تدع فرصة تمر الا وتغتنمها لالقضاء

على الرق . فقد راينا فى القرآن الكريم أن كفارات القتل الخطأ والظهار والأيمان تحرير الرقاب . ورأينا الرســول الكريم يقول لمن ضرب غلامه « الله أقدر منك » فلما أعتقه قال له : « أما انك لو لم تفعل للفحتك النار » ورأينا عمر يضرب بالدرة من يمتنع عن مكاتبة غلامه حتى كاتبه ٠ ان شريعتنا شريعة الحرية وليست كما يقـــول الجاهلون والمبطلون انها شريعة الاســترقاق . وأما المسلمون الذين يسترقون عباد الله من ذكور واناث فانهم ضــلوا شريعة الاســلام أو أن لهم اسلاما غير دين الاسلام الذى جــاء به محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

خلاصة ما جاء فى القرآن والسنة

والذى نستخلصه مما مر بنا من الآيات والأحاديث . هو

اولا : الحق للمسترق فى طلب الحرية بالمكاتبة ، والزام القضاء باجبار سيده على ذلك . كما فرض على المجتمع معاونته بالمال . حتى يحقق حريته وينالها بأسرع وقت ممكن .

ثانيا : من قال لعبده : انت حر بعد وفاتى فليس له أن يبيعه .. وليس له أن يرجع فيما قال وذلك هو المدبر ومن أعتق عبده بأى لفظ كان سواء كان جادا أو مازحا سكران أو صاحيا ينفذ العتق .

ثالثا : فرض على الدولة اخراج ثمن وارداتها من الزكاة لتحرير الرقاب .

رابعا : جعل كفارات المآثم عتق الرقاب .

خامسا : اذا لطم السيد عبده أو جلده فكفارته عتقه .

سادسا : يقتل السيد بعبده ويقطع بقطعه . ويجدع بجدعه .

سابعا : الترغيب بتزويج الأرقاء والمسترقات من الاحرار والحرائر .

ثامنا : أمر بأن يطعم السادة مواليهم مما يأكلون ، ويكسونهم مما يكتسون ونهاهم من كل ما يجرح شعورهم ويمس آدميتهم بالفعل أو بالقول » جدا أو مزاحا .

تاسعا : من جاء من المسترقين الى جماعة المسلمين حرروا حالا وليس لأحد الحق فى اعادتهم للرق .

عاشرا ـ حث القرآن على الاعتاق ، وجعله من أعظم القربات عند الله .

حادى عشر ـ كل مسترقة تنال حريتها بمجرد انجابها من سيدها ٠

ثانى عشر ـ حرم اباحة المسترقة لكل من أرادها وجعل عقوبة من يفعل ذلك شديدة صارمة ٠

ثالث عشر ـ من ارتكبت الفاحشة من المسترقات فعليها نصف العقوبة لا العقوبة الكاملة كما هو الشأن مع الحرائر ٠

رابع عشر ـ اذا أنكر السيد عتق عبده يحلف المسترق ويقضى له بذلك وفى ذلك مخالفة للقاعدة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ٠

خامس عشر ـ ولاء المكاتب لمن دفع المال وهيأ له فرصة التحرر وحرمان مالكه من الولاء لئلا يتقاعد الناس عن تسهيل أمر الحرية لمن يطلبها ٠

ذلك ماصنعه الاسلام لظاهرة لا يد له فيها ونظام لم يضعه ٠ ولم يرتح اليه بل نقض قواعده من الأساس وسد منابعه ، وقضى على أسباب تفجرها في وقت كان هذا الوضع سائدا فى كل الشعوب وتعترف به كل القوانين ، وتحبذه وتدعو اليه كل الفلسفات ٠ ولم ينكره أحد من المنتسبين للأديان السابقة للاسلام ٠

اننا نكتفى الآن بما سردناه تحت هذا العنوان (ما جاء في السنة) ولندع أعلام المسلمين من علماء وأدباء ومفكرين يتحدثون عن التحرير ٠ فى القرآن والسنة ، فان أعلام المسلمين الذين فهموا دين الله وشريعته واستشفوا روح الاسلام ٠ واستحقوا أن يكونوا متصدرين مجالس الافتاء لم تمل بهم الاهواء الى تغطية وجه الحق ٠ انهم قالوا الحق وجهروا به حبا فى الله ، واخلاصا لشريعته السمحة البيضاء ٠

أولئك هم المنارات التى تضىء ظلمات الجهل ، وتحطم الغرور والتعالى والاستكبار ، وتصيب الجاهلين والمغرورين اصابة تجعلهم سخرية الساخرين وعبرة المعتبرين ٠

الامام محمد عبده :

اذا نظرنا فى تفسير « جزء عم » للامام المجتهد الذى هـــدم جدار الجمود والرجعية ، وجعل الجامدين والرجعيين يتوارون عن أعين الناس خزيا وخوفا من أن يضربهم الناس بالحجـــارة • ورفع لواء التحرر من التقليد الأعمى ، وخلص العقول والأفكار من أوهـــام المقلدين حجة الاسلام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه •

وجدناه يقول : عند تفسير قوله تعالى (فك رقبة) من سورة (البلد) : « فأراد منها ــ أى العقبة ــ الطريق التى يصعب سلوكها الى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة ، وانما كانت صعبة السلوك لمعارضة الهوى ومغالبة الشهوة لسالكها • وفك الرقبة عتقها أو المعاونة عليه ، وقد ورد فى فضل العتق ما بلغ معناه حد التواتر فضلا عما ورد فى الكتاب • وهو يرشد الى ميل الاسلام الى الحرية وجفوته للأسر والعبودية » •

فالاسلام ــ كما يقول الامام ــ يجافى الأسر والعبودية • وهذا القول مستخلص من المبادىء الأولى فى الاســـلام ، والتى بيناها بوضوح فيما سلف من هذا الكتاب • ولو أن الاسلام شرع الرق لما خفى على الامام وهو الحجة الضليع بشرع الله وهدى رسوله •

واذا نظرنا فى « كتاب التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر، وهو من كتب « اخترنا لك » لمؤلفه الفريد بلنت وجـــدنا للامام الشيخ محمد عبده كتابا بعث به الى هذا المؤلف الانجليزى (ألفريد بلنت) وكان صديقا للامام يقول فيه : « أما عن تجـــارة الرقيق فنبلغكم بأن الوزارة الراهنة تعمل بجد فى الغائها • والدين الاسلامى لا يعارض فى هذا الالغاء بل بالعكس نرى أن أوامر الدين تمنع من اتخاذ الرقيق الا من الكفار الذين يقاتلون المسلمين • فالعبد فى الواقع أسير أخذ فى حرب مشروعة ، أو هو أحد أفراد أمة ليست على صفاء فى علاقاتها بأمراء المسلمين ، وليست بينها وبينهم معاهدات أو محالفـــات تحميها ، زد على ذلك أن الكافـــر الذى ينتمى الى أمـــة متحالفة مع أمير مسلم لا يمكن أن يؤخذ فى الرق • ومن هنا يتبين لكم أن الدين الاسلامى لايعارض فى الغاء الرقيق ، كما هو الحادث فى هذه الأيام ، بل هو لا يوافق على استمراره • وأولئك العلماء الذين

لا يوافقون على هذا الرأى فى انجلترا أو غيرها ، عليهم أن يأتوا الينا ويعلمونا نحن شيوخ الأزهر أصول ايماننا ، فان هذا العمل يصير من الأمور المدهشة والعالم الاسلامى سيصعق ، وينعقد لسانه عندما يعلم أن مسيحيا قد أخذ على نفسه تعليم علماء أكبر جامعة اسلامية أصول ديانتهم وكيفية شرح القرآن ٠

هذا وستصدر فتوى من شيخ الاسلام اعلانا بأن الغاء الرقيق يوافق روح القرآن والسنة ، وستجتهد الحكومة المصرية فى ازالة جميع العوائق فى سبيل هذا الالغاء ، ولن يهدأ بالنا حتى تمحى هذه التجارة من جميع الأراضى المصرية » ٠

والمفهوم من كتاب الامام هذا أن الرقيق الذى كان موجودا بمصر لا يتفق مع روح القرآن والسنة وأن روح القرآن تتفق مع الغاء الرقيق ٠

ورحم الله الامام ماذا يقول لو أنه رأى الآن ـ وبعد مضى مايزيد على نصف قرن من وفاته ـ أن هناك فى غير انجلترا وفى بلاد اسلامية علماء ليسوا من المسيحيين ولكنهم من المسلمين تمتلىء دورهم بما لا يتفق مع روح القرآن والسنة ، ولهم دعوى طويلة تقول انهم مسلمون ومن علماء المسلمين أيضا ٠

الشيخ محمد رشيد رضا :

واذا تركنا الامام الشيخ محمد عبده ، وانتقلنا الى تلميذه صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله وجدناه يقول فى كتابه (الوحى المحمدى) تحت عنوان (المقصد العاشر من مقاصد القرآن) « تحرير الرقبة » ان استرقاق الأقوياء للضعفاء قديم فى شعوب البشر ٠ ثم يقول : « كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق ، وتستخدمه فى أشق الأعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرق مشروعا عند الافرنج الى أن حررت الولايات الأمريكية المتحدة رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وتلتها انكلترا

باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر .
ولم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر العامة ـ فان لهم فيها مصالح خاصة ـ ولا جنوحا للمساواة بينهم ، فان الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوروبى المتغلب على الجنس الأحمر الوطنى الأصلى بما يقرب من الاستعباد السياسى المباح عند جميع الأفرنج للشعوب ، بل يستبيح الشعب الأبيض تعذيب المخالف له في لونه فى الولايات المتحدة على كل ذنب بما لا يبيحه القانون . فيتخطفه دعارهم من أيدى الحكام والشرطة ، وينكلون به أشد تنكيل ، ويمثلون به أفظع تمثيل ، كما أن انكلترا تحتقر الهنود وتستذلهم ، ولكن النهضة الهندية فى هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ... وطمأنت من كبريائهم ، وغيرهما من الافرنج المستعمرين شر منهما ظلما وقسوة وكل منهم يأبون أن يصلوا فى كنائس مستعمراتهم مع أبناء البلاد فيتناوبون الصلاة فيها . فلما ظهر الاسلام وأشرق نوره الماحى لكل ظلام كان مما أصلحه من فساد الأمم ، أبطال ظلم الرقيق وارهاقه ، ووضع الأحكام الممهدة لزوال الرق بالتدريج الممكن بغير ضرر ولا ضرار ، ولا بغى ولا استكبار اذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذرا فى نظام الاجتماع البشرى من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين وناحية معيشة الارقاء المستعبدين .

فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب فى الأرض يلتمس وسيلة الرق فلا يجد ما يحسنه أو يقدر عليه ، فيرجع الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم كما كان .

وكذلك جرى فى السودان المصرى . فقد جرب الحكام من الانجليز أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستقلين فيه مكتفين به فلم يكن فاضطروا الى الأذن لهم بالرجوع الى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا تسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم .

وتعليقنا على ما جاء فى كلام الشيخ رشيد رضا من تصرف الأمريكان والانجليز لتحرير الأرقاء . انهم لم ينظروا لمشروع الرق نظرة عميقة ، كما نظر اليها الاسلام . فهم عمدوا لتحرير الرقيق دون أن يعمدوا الى اصلاح النظرة الفلسفية المنحرفة التى تقول : ان بعض الناس خلقوا للحكم والسيادة ، وبعضهم خلقوا للأسترقاق

وهى النظرية القديمة التى كان يقولها أفلاطون وأرسطو من اليونان، ومنو من الهنود ، ولم ينظر الانجليز والامريكان الى الفساد الاقتصادى ، الذى تقوم عليه مجتمعاتهم . فان الرأسمالية فى كلتا الدولتين مهيمنة على السياسة الاقتصادية ، كما أن الاحتكارات (الامتيازات) قائمة لديهم . أما الاسلام فقد نظر الى الفساد الاقتصادى فأصلحه بما فصلناه فى فصول هذا الكتاب ، وقضى على كل ألوان التمايز ، كما قضى على جميع الفلسفات المنحرفة ، كما بيناه فى مواضعه من هذا الكتاب .

وبذلك استطاع الاسلام أن يحرر الرقيق وأن يبطل الرق ويسد منابعه حتى لم يعد لها أثر فى التنظيم الاسلامى لحياة الجماعة .

ونعود الآن لما جاء فى (الوحى المحمدى لمؤلفه السيد رشيد رضا) يقول السيد رشيد فى صفحة ٢٩٠ تحت عنوان (هداية الاسلام فى تحرير الرقيق) .

« منع الاسلام جميع ماكان عليه الناس من استرقاق الاقوياء للضعفاء بكل وسيلة من وسائل البغى والعدوان وقيده باسترقاق الأسرى والسبايا فى الحرب التى اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة»(١) وهى شروط لم تكن قبله مشروعة عند المليين ولا عند أهل الحضارة فضلا عن المشركين الذين لاشرع لهم ولا قانون ولست أعنى باستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ماكانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل بل شرع لأول الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر فى امضائه وابطاله بأن خيرهم فى أسرى الحرب الشرعية بين أمرين (أولهما) المن عليهم بالحرية فضلا واحسانا ورحمة (ثانيهما) الفداء بهم وهو نوعان : فداء بالمال ، وفداء بالأنفس اذا كان لنا أسارى أو سبى من قومهم .

ثم يقول : « ولما كنا مخيرين فيهم بين اطلاقهم بغير مقابل

---

(١) راجع المقصد الثامن من مقاصد القرآن فى كتاب الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا .

والفداء بهم جاز أن يعدهذا أصلا شرعيا لابطال استئناف الاسترقاق في الاسلام ، فان ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذى هو الاسترقاق غير جائز » . انتهى ما نقلنـــاه عن الشيخ رشيد رضا .

وانى اكتفى بما نقلته عنه ولكن الشيخ رشـــيد أفاض فى الموضوع بما أرانى لست فى حاجة الى نقل افاضـــــته ، فمن أرادها فليرجع اليها فى كتابه الوحى المحمدى ص (٢٩٠) وما بعدها.

والذى يحسن أن أقوله ان كلمات : رق ، واسترقاق ، ورقيق لم تأت فى القرآن الكريم ، ولم تذكر فى أحاديث الرسول ويغلب على ظنى أن هذه الكلمات لم تتسرب الى كتب الفقهاء والمحـــدثين والمفسرين الا من القانون الرومانى .

الشيخ محمد محمد المدنى :

وننقل أيضا رأى الشيخ محمد محمد المدنى عميد كليـــة الشريعة بالقاهرة من كتابه «المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء» .

يقول الاستاذ محمد محمد المدنى فى صفحة ٢٨١ وما بعدها من كتابه المذكور تحت عنوان : « ليس فى القرآن الكريم أمـــر بالرق ولا بالتسرى » .

بيان ذلك أن القرآن يتحدث عما ملكت الأيمان فى نحو خمسة عشر موضعا فلا يقول أكثر من «ملكت أيمانكم» أو «ماملكت يمينك» أو « ما ملكت أيمانهن » .

نعم قد عبر فى بعض الآيات بقوله تعالى «والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين» .

ولكن هذا لم يزد عن كونه نفيا للوم عنهـــم ملاحظة على أنهم على واقع فعلى(١) تقضى الحكمة بمسايرته حتى يغير .

---

(١) قد سبق أن قلنا أن هذه التشريعات لرواسب الرقيق من زمن الجاهلية للحروب التى كانت مشتعلة بين المسلمين وأعـــداء الدعوة الاسلامية ، وهاهو ذا الأستاذ محمد محمد المدنى يؤيدنا فيما ذهبنا اليه . لقوله «واقع فعلى» .

للاسلام خطة يجرى عليها لتصفية الاسترقاق والتسرى ·

كل ذلك ـ كما ترى ـ يحدث عن الواقع وليس فيه تعرض قولى للأمر به · وأقول : ليس فيه تعرض دولى لانى أعلم أن السكوت عليه أو الحديث عنه كواقع يستلزم اقراره ، وأنا لا أعارض ذلك بل أقرر أنه يستلزم هذا الاقرار ، ولكنه اقرار لاعموم له لا فى كل الأحوال ولا فى كل الأزمان · فان من الجائز أن يكون هذا الأقرار السكوتى ملاحظا فيه ظروف خاصة يومئذ والدلائل تدل على ذلك· فقد كان العالم كله معترفا بالرق ، وكان التعامل العام قائما على الاعتراف به ، فلم يكن من صالح المسلمين يومئذ أن يبطلوا هذا اللون من التعامل العام دفعة واحدة ، أو أن ينفردوا عن العالم بذلك فلا يعاملوا بالمثل فيتخذوا الأسرى أرقاء كغيرهم من الأمم ، فقضت الحكمة الالهية بأن يتدرج فى هذا الالغاء ورسمت لذلك خطة محكمة تتألف من النقط الآتية :

(١) لم يرد فى القرآن الذى هو النصوص الأصلية الأساسية أى نص يدل على الامر بالاسترقاق أو اتخاذ الاماء سرارى · وان كان ذلك لايمنع أن يتحدث القرآن عن هذا حديث من يعرفه ويقره كواقع ويرتب الاحكام التشريعية على أساس واقعيته التى تقضى الحكمة أن تترك مؤقتا ·

(ب) تتكفل النصوص من الكتاب والسنة ببيان أن الرق واقع مكروه وبتشريع مايكفل تصفيته من العتق فى مناسبات متعددة كالكفارات وألوان القرب والزكاة والصدقات وعقوبة من يمثل بعبده بعنفه عليه ونحو ذلك ·

(ح) يقصر مورد الرق على الأسر فى حرب لاعلاء كلمة الله تعالى وفى هذه الحرب لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا أسرى حتى يثخنوا فى الارض أى حتى يظهروا فيها ويعلوا كلمة الحق والتوحيد فاذا أثخنوا فى حرب وانتصروا كان لهم أن يأسروا حينئذ · ثم كان لأولياء الأمر الخيار المقرر بقوله تعالى «فاما منا بعد واما فداء» أى فأما أن تمنوا عليهم منا فتطلقوهم تفضلا عليهم واحسانا بغير مقابل واما أن تأخذوا منهم فداء أى تطلقوهم بمقابل · وعلى هذا فلا ذكر صراحة للاسترقاق وانما يتكلف بعضهم فيجعل الاسترقاق داخلا

المن ، لان المن اما أن يكون كاملا باطلاقهم دون مقابل ، واما أن يكون جزئيا باعفائهم من القتل مع استرقاقهم ، وبعضهم يحاول ادخال الاسترقاق تحت الفداء فيقول : ان فداء حيـاتهم · اما أن يكون بمقابل يبذلونه · أو بنفس الأسير حيث يستعبد ويسترق ثمنـا لابقائه حيا دون قتله ، ولا يخفى أن هذا وذاك تكلف يراد به تبرير الاسترقاق ، ومحاولة اثبات أنه مخير فيه بنص القرآن(١) ·

تلك هي الخطة التي وضعها الاسلام لتصفية الرق : وتضييق في مداخله ، وتوسيع في مخارجه · ولا ينبغي أن يؤخذ الاسـلام بفعل المسلمين فيما بعـد حينما كان الاسترقاق خارجا على هذه الخطة ، أو كان الخلفـاء من أمويين وعباسيين وغيرهم من الاغنياء يتخذون السراري بغير تقيد بل بتوسع واسراف ، فان ذلك مناف لروح الاسلام (٢) وان أدخل على النصوص بالآراء والاقوال وتأويل الرجال ·

والآن وقد اتفق العالم على منـع الرق فليس في نصوص الشريعة مايمنع من مجاراة الدنيا في هذا الاتفاق الانساني ، بل ان المسلمين اذا أبوا الا استمراره والتعامل به فيما بينهم يكونون قد أساءوا الى أنفسهم والى تعاليم شريعتهم لقاء التمسك بأمر لم يوجبه الله ولم يقره تشريعا دائما كما أوضحنا · انتهى مانقلناه عن الأستاذ محمد محمد المدني ·

الاستاذ ابراهيم أبو الخشب :

وهذا أستاذ من أساتذة كلية الشريعـة بالقاهرة يقول في

---

(١) لاشك انه تكلف سخيف لايقوله الا مغرض يدفعه الغرض الدنيء لمثل هذا السخف وما أكثر السخفاء والمغرضين الذين شوهوا ديننا وحملوا لغتنا مالا تحتمل· ولوثوا الأفهام وأبعدوها عن الصفاء والاستقامة ·

(٢) وما زالت هذه المخازي التي يكرهها الاسلام ويحاربهـا القرآن جارية في قصور بعض الحكام باسراف كاسراف العباسيين والأمويين · وما زال بعض الذين يدعون أنهم علماء الدين يبيحون ذلك لانفسهم ولأولياء أمورهم ، وما زال في تلك المجتمعات الجاهلة من يقلدهم ويتأسى بهم وبئست الأسوة السيئة ·

كتابه « الاسلام المظلوم (ص (١٩) وما بعـــدها) ومن مفتريات خصوم الاسلام ودعواهم انه في الوقت الذى ينادى محمـــد فى البشرية كلها بأن الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى كان الاسترقاق عنده مشروعا وعبودية الناس بعضهم لبعض قائمة وهو تمويه للحق وبهتان على التاريخ ، لان الاسلام جاء والرق ضارب أطنابه لا فى البلاد العربية وحدها ولكن فيما حولها ـ كذلك ـ من الممالك والامصار ، ولم يـكن له طريق واحد وأسلوب خاص ، وانما كانت طرقه متنوعة كلها يحمل عليها الحاجة » أو يلجأ اليها السلطان الغاشم ، والجبروت الظالم ، والحاكم المسلط ، والمستبد الجائر الذى كان يرى من حقه على الرعية أن يكونوا عبيدا له من دون الله .

كما قال فرعون «ماعلمت لكم من اله غيرى» والويل كل الويل لمن يشذ عن الخضوع له والتفانى فى طاعته ، ولذلك أمثـلة يطول شرحها ، ويتراخى بنا الحديث عنها والتعرض لها .

وقد كان فى كثير من الاوقات الحاح الضرورة على الفقير المعوز، والبائس المعدم ، يسوقه الى أن يبيع نفسه بيع السلعة ، ويبذل كرامته بذل الصفقة لانه لا يجد مخلصا من الضيق ، ولا فكاكا من الكرب ، ولا سبيلا الى الخروج من المآزق التى تورط فيها سوى أن يعرض آدميته هـذا العرض الذليـــل . وكان الرق الذى يجىء من الحروب وينجم عن أسرى القتال أقل من أن يذكر . والحـــــديث عن احساس الارقاء بالحياة . وشعورهم بوجودهم وتقديرهم لمعنى آدميتهـــم ينهدى له الجبين . وتنقطع له نياط القـــلوب ، وتتفتت من هوله الأحشاء . وهذا تصوير يدل على أن الناس كانوا يعيشون فى هذه الدنيا عيشة الوحوش الكاسرة ، والجراثيم التى لا يجدر بها سوى الاستئصال . فقـد أخبرنا القـرآن الكريم عن لون من تلك الالوان البغيضة التى كانت فى الجزيرة حينئذ (١) مما يظهر منـه

---

(١) ليس فى الجزيرة وحدها بل فى كل العالم وقد مر بنا فى الفصول السابقة ما كان يصنعه الرومان والاسبرطيون والاثينيون وغيرهم من أنواع البغاء الذى كانوا يدفعون اليه الفتيات والنساء ومنه ما كان يسمى بالبغاء الدينى عند الاغريق وغيرهم .

أن النفوس خلت من الشعور النبيل ، والذوق السليم . ذلك أنهم كانوا يسخرون الجارية لاحتراف الزنا طمعا في الحطام الفاني ، والمال الحقير . على الرغم من كراهيتها له ونفورها منه وعدم رغبتها فيه ونزلت الآية (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) تندد بهم وتسفه أحلامهم وتعلن اليهم أنهم انحدروا الى أقصى ما تنزل اليه العقول الوضيعة ، والأفكار الحقيرة ، والميول المسفهة .

ولما آذن الله لهذه الانسانية المعذبة أن تخرج من الظلمات الى النور . وجاء محمد صلى الله عليه وسلم لانقاذ البشرية من ذلك الموت الذى كانت تعانيه ، كانت تعاليمه الرشيدة وآدابه الحميدة تجعل هؤلاء الارقاء اخواننا فى الدين وشركاءنا في الحياة وزملاءنا فى الانسانية ولايصح أن تكون الظروف التى أحاطت بهم ؛ والنوازل التى أصابتهم جريمة يؤاخذون بها ووزرا يحاسبون عليه « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون » وهناك أخذ الاسياد يعاملونهم معاملة أخرى . ويزنونهم بميزان كونهم بنى آدم وبنات حواء بصرف النظر عن غير ذلك من الملابسات التى ليس لهم فيها يد متصرفة ، أو حيلة موجهة ، أو اختيار متسبب .. وجعلت الشريعة الغراء تحرير الرقبة ، وعتق العبد أو الجارية بابا من أبواب الطاعة ، ومعنى من معانى الزلفى الى الله سبحانه حيث قبلها جزاء لبعض أنواع القتل (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله » ورغب المولى فى أن يفتح باب الحرية واسعا لينقذ منه الرقيق على أى شكل أراد من طريق المكاتبة أو غير ذلك من الطرق والجهات .

وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل يدخلنى الجنة فقال له « عتق النسمة وفك الرقبة » . والاسلام يشدد النكير على من ينادى العبد أو الجارية بهذا الوصف الذى يشعر بالذلة .. وينبىء عن المهانة « يا عبد أو يا جاريه » ويجعل مكانهما يا فتى أو يافتاة . وينبغى على من يبالغ فى العنف معهما « من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته أن يعتقه » .

ولو أننا رحنا نستقصى الفرص التى أتاحها الدين للعبد أو

للامة لتنتهى حياتهمـا بالحرية المحبوبة والانطلاق من اسـار الرق البغيض لوجدناها أكثر من فرصة ولكننا ننتقـل الى أسلوب آخر من الاساليب لجعل ما بين السيد والمملوك من صلة لا تقل عن الصلة التى تكون بين اثنـين يجمعهما نسب واحد ذلك أنه يجعـل المولى مسئولا عن بعض مغارمه وجناياته ، ومطالبا بتسديد ديونه أن كان عاجزا عن سدادها ، ووليا له فى عقد النكاح وفى القصاص والمطالبة بالدية وغير ذلك من الاسـباب التى تدل على تمكن الوشائج وقوة الروابط .

وعلى هذا فان الاسلام لم يشرع الرق بل قضى عليه وأزاله .

السيد عبد الحميد الخطيب :

وهذا أحد علمـاء الحجاز الاعلام ، وأحد المدرسين بالمسـجد الحرام « السيد عبد الحميد الخطيب » يقول فى كتابه القيم « أسمى الرسالات » تحت عنوان (نظام الرق) ص « ٥٥٠ وما بعدها » :

فسر علماء الاسـلام الرق بمعنى استعباد الانسـان لفريق من اخوانه فى الانسانية وبينـوا أحكامه ، ولم يتعرضوا لحقيقة ذلك والغاية منه ، فاتخذ الغربيون من ذلك سبيلا للطعن فى الاسلام وفاتهم أن الاسلام الذى جاء لتحرير الانسان من رق العبودية لغير الله لايمكن أن يقر استعباد شخص لآخر . وقد قال سيدنا عمر : «متى استعبدتم الناس وقد جعلهم الله أحرارا » والاسـلام الذى قام على احترام الحقوق واقـامة العدل لا يتصور أن يقر الظلم بأى حال من الأحوال خصوصا اذا علمنا أن تملك الانسان لأخيه الانسان أمر كان شائعا فى العصور الأولى ، وكان فى الأمم المتوحشـة أناس يسرقون بعض الناس من الامم المستضعفة ويمتلكونهم بهذه السرقة ويبيعونهم فى الأسواق . حتى كان المصريون ، والبابليون ، والفرس والهنود واليونان والروم ، والعرب يتخذون المماليك، ويستخدمونهم فى أشق الاعمال ، وكان من عادة بعض الامم الفقيرة أن يبيع الرجل بعض أبنائه ليشترى بثمنه ما ينفق على نفسه، فجاء الاسلام محرما كل هذا .

هذه حقيقة اذا سلمنا بها وجب أن نبحث عن السر فيما يسمونه

الرق في الاسلام وقبل أن نبحث في هذا الموضوع نريد أن نشرح كلمة الرق في لغة العرب • فالرق مشتق من رق الشيء ضد غلظ وثخن يقال : رق له قلبه أي رحمه وعطف عليه ، ومعنى نظام الرقيق نظام الرحمة أو شفقة الانسان على أخيه الانسان (١) • أما كيف ذلك ؟ فهذا ما ينجلي من ايضاح الرق وما يجب أن يعامل به الأرقاء •

لقد جاء الاسلام يدعو الى الحرية ، ولكنه مني بجماعة تصدوا لمقاومته وحربه فأمر الله نبيه بحربهم حتى يلقوا سلاحهم ، وعندئذ يؤخذون أسرى حرب • والحرية بعد ذلك أن يعفو عنهم من القتل أو يطلق سراحهم مقابل أخذ الفداء منهم حيث قال تعالى : «فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها (٢) » ، وتنفيذا لهذا الامر الالهي جمع الرسول الأسرى ، وشد وثاقهم ، ووزعهم على المسلمين ليطعموهم ويأووهم لديهم الى ما بعد انتهاء المعركة • وجمع الرسول صحبه واستشارهم فأشار عليه في أمرهم سيدنا عمر بقتلهم أجمعين ، ليأمن المسلمون من شرهم وكيدهم • وقال أبو بكر : بل نمن عليهم فنتركهم أحياء ونستبقيهم ، ونطالبهم بفداء أنفسهم بالمال مقابل تعويضات الحرب المشروعة حيث أن المسلمين في أشد الحاجة الى المال ، ونكون بهذا قد أحسنا اليهم بالابقاء على حياتهم التي هي أغلى شيء عندهم ، ولربما أسلموا فكانوا جنودا للاسلام وأعوانا للمسلمين فارتضى عليه الصلاة والسلام هذا الرأي ، ولما لم يكن هنالك خزينة للدولة ينفق منها على الاسرى ، ولم يكن هناك حكومات تفدي أسراها أو تقوم بتعويضات الحرب لم ير النبي بدا من توزيع الاسرى على رجاله وأن يملكهم رقابهم على أن يقوموا بجميع نفقاتهم ، ويستخدموهم

---

(١) ان نظام الرقيق لم يخترعه الإسلام حتى يمكن موافقة السيد عبد الحميد على ذلك وانما هو من مخلفات الشرائع والفلسفات القديمة في اليونان والرومان والهنود وغيرهم • وقد قلنا : ان كلمة رق ورقيق دخيلة على الفقه الاسلامي أما القرآن والسنة فليس فيهما شيء اسمه الرق والرقيق •

(٢) سورة محمد •

فى أعمالهم الخاصة الى أن يتسنى لهم دفع الفدية المطلوبة منهم ، أو يرق قلب مخدوميهم فيحرروهم من الاسر ·

فسر الأسرى بهذا الحكم ، وفدى كثير منهم نفسه بالمال حتى أنه كان من ضمن الاسرى زوج ابنته فأرسلت زوجته للرسول بفدائه فأطلق سراحه ، وأمر بفك ابنة حاتم الطائى نظرا لما كان عليه أبوها من مكارم الاخلاق · وعاد صلى الله عليه وسلم · فلم تقبل نفسه الشريفة أن يسوى بين ذوى العلم والجهلاء من الاسرى فأمر بفك أسرى العلماء على أن يعلم كل أسير عشرة من المسلمين مما علمه الله وكان من أهم العلوم لديه القراءة والكتابة ، لكى يقضى على الأمية بين قومه ، ثم عاد فقدر ضعف المرأة وحاجتها الى الرحمة فأباح للرجل الاستمتاع بها بدون عقد ليكون من هنا وسيلة لتبادل الالفة والمحبة واحكام روابط القربى والرحم والاخوة، وجعل من استيلادهن سبيلا لتحريرهن من رق الاسر ، وأخذ يدعو الى تحرير من بقى من الأسرى بمختلف الوسائل فشرع مكاتبتهم على شىء معين يتحررون بأدائه من حالة الاسر ، وحض على معونتهم عليه حتى أن جويرية بنت الحارث وقعت فى الاسر ، وكانت من نصيب ثابت بن قيس ابن شماس ، فكاتبها على نفسها · فذهبت الى النبى صلى الله عليه وسلم تسأله أن يعينها بما يمكنها من دفع ما تعاقدت عليه من فداء، فأجابها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى طلبها ، وقال لها : بل لك ما هو خير من هذا · فقالت : وما هو يا رسول الله قال أقضى عنك كتابك ، واتزوجك ؟ فقالت : نعم · فقال : لقد فعلته ،ودفع عنها ما عليها وتزوجها · فلما علم الناس بهذا قالوا : لقد أصبح بنو المصطلق أصهار النبى وسارعوا الى تحريرهم من الاسر · وفى هذا يقول تعالى : «والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (١) ولم يكتف بهذا » بل أخبر الناس بأن الاحسان اليهم بالعتق من أهم القربات الى الله المنجية من عذابه » حيث قال : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسغبة » (٢) ·

---

(١) سورة النور

(٢) البلد ·

وجعله تعالى كفارة لكثير من الجرائم والآثام وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما رجل أعتق امرأ مسلما استنقذ الله بكل عضو عضوا منه من النار » .

وأخذ يوضح للناس معنى الرق وما يجب أن يعامل به الارقاء حيث قال : « هم اخوانكم وعونكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ،ولاتكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم عليه » ونهى أن يلقبوا بالعبيد حيث قال صلى الله عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولا يقولن المملوك ربى وربتى ، وليقل المـــالك فتاى وفتاتى ، وليقل المملوك سيدى وسيدتى فانكم المملوكون والرب الله تعالى » .

وأمر بالعفو عنهم فى حالة ما اذا بدا منهم قصـور فى عملهم يوجب المؤاخذة اذ جاء رجل وقـال : يا رسول الله كم أعفـو عن الخادم فصمت ثم قال: اعف كل يوم سبعين مرة ، ونهى عن ضربهم، وقال من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته أن يعتقه .

وروى ابن مسعود، قال : كنت أضرب غلاما لى بسوط فسمعت صوتا من خلفى يقول : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . فالتفت فوجدت القائل رسول الله صلى الله عليه وسلم فحرمت أن أضرب مملوكا بعد ذلك أبدا (١) .

وقال أيضا : « من قذف مملوكه وهو برىء مما قال أقام الله الحد عليه يوم القيامة . »

لقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى معاملة الموالى اذ قرب اليه زيدا عتيقه وزوجه بابنة عمته ،وولاه قيادةجيش الشام ، ولما بلغه خبر موته بكى عليه وعطف على ابنه أسامة وقال « من أحبنى فليحب أسامة » ثم ولاه قيادة الجيش مكان والده ، وهو فتى فى العشرين من عمره وجعل أكابر الصحابة منجنده ، وقد سمى الله أولئك الارقاء باسمهم الحقيقى وهو (الاسرى) وأمر رسوله أن

---

(١) قد تقدم نقلنا لهذا الحديث وقد أعتق ابن مسعود غلامه وقال الرسول لولا أنك لم تفعل للفحتك النـار أو لمستك النـار . راجعه فى موضعه .

يطيب خواطرهم حيث قال : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى ان يعلم الله فى قلوبهم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفـــور رحيم) (١) والمعنى أنكم ان تؤمنوا بقلوبكم بالله يثبكم على الايمان والرضاء بقضاء الله أكثر مما انتزع منكم من الحرية التى كنتم فيها مع التردى فى الضلال . هذه هى حقيقـة الرق فى الاسلام ، وتلك هى تعاليمه فى معاملتهم ، أين منها ما نراه اليوم من معاملة الاسرى لدى الامم التى تدعى الحضارة والمدنية ، وتمقت الرق وتحـاربه من أنواع التعسـف والاضطهاد والتنـكيل بهم ، واستخدامهم فى الاعمال الشاقة دون رحمة أو شـفقة ؟ لا بل أين هذا مما تقدم عليه الدول المستعمرة من استعباد الشعوب الضعيفة ، وامتصاص دمائهم ، والتحكم فى مقدراتهم بما يتنافى وحق الانسان على أخيه الانسان .

أما استرقاق العبيد والجوارى فى عصرنا هـذا عن غير طريق الجهاد بوسائل أخرى غير مشروعة وبوساطة القراصنة ، فهذا ما لا يقره الاسلام،ولاتنطبق عليه أحكامه خصوصا فيما يتعلق بالاستمتاع بالجوارى منهن فلا يكون عمل المسلمين فيه حجة على الاسلام. شأنهم فى ذلك كشأنهم فى جميع تعاليم الاسلام التى أهملوا اتباعها ، وأتوا ضدها نتيجة تقليدهم لأقوال بعض العلماء (٢) دون الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله .

الشيخ عبد العزيز جاويش :

والشيخ عبد العزيز جاويش أشهر من أن يعرفه مثلى ، فهو من العلماء الاحرار الذين جاهدوا فى الله حق جهـــاده ،وممن فهموا

---

(١) سورة الانفال .

(٢) ان الذين يبيحون الرق والاستمتاع بالجوارى ليسوا علماء وانما هم من أجهل الجاهلين . ولـكنهم من سوء الحظ استطاعوا فى غفلة من الزمن أن يرتفعوا الى مقام العلمـاء ، وأن يضللوا بلحاهم وسواكاتهم كثيرا من المسلمين . فاصـــابوا المسلمين فى مقـاتلهم. فكانوا الثغرة التى نفذ منها أعداء الاسلام لطعن الاسلام والمسلمين

الاسلام على حقيقته ، ووقفوا حياتهم للذب عنه ، وتخليص الافهام مما علق بها من اعوجاج وانحراف ٠

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش فى كتابه (الاســلام دين الفطرة) ص ٥٨ وما بعدها ٠

(١) سوى الاسلام بين الامم من غير اعتبار اختلاف أصنافهــا وألوانها فسوى بين الأسود والأبيض ، والبدوى والمتحضر، والرعايا والمرعيين ، والرجال والنساء، والمسلمين والنصارى واليهود ماداموا فى سلم ٠ أنظر الى المسلمين فى المسجد يؤدون الصلاة ، أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر ، أو من فاضل ومفضول ؟٠

كيف والله تعالى جعل المؤمنين اخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا الا بقدر ما يتفاضلون به من الحق فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع :

« أيها الناس ، انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفــارا يضرب بعضــكم رقاب بعض، فانى قد تركت فيــكم ما ان أخـــذتم به لن تضلوا بعدى ، كتاب الله أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى فضــل على عجمى الا بالتقوى ٠ »

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا حتى الآن وهم فى مقدمه الامم حضارة وعلما ؟؟٠

ازدرى البيض منهــم الســود ٠ وامتهنوهم لســواد ألوانهم ، وتجنبوهم ؛ وحرموهم كثيرا من المزايا التى استمتع بها البيض ؛ ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك، والمقت والتجافى عن مخالطتهم حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم لا يجوز أن يتجاوزوها الى غيرها ٠

زعم كثير من الناس لا سيما من غير المسلمين أن الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض مستدلين على ذلك بما

كان يفعله النخاسون من أهل البادية وأهل السودان وكثير من الاتراك ـ وقد تقدم لنا (١) أنه لا ينبغي «الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله ، فان هذا من العبث الذى ينبغي أن تصان عقول العقلاء عنه ·

ان الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا · ثم انه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية ، لم تقم الا لاعلان كلمة الله تعالى مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم · فمن هنا يؤخذ أن أسرى الحروب التى أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم لا لغرض سوى السلب والنهب والبطش مع العدوان على الغير لا يجوز استرقاقهم بحال سواء أكانوا مسلمين أم كتابيين أم وثنيين أم مجوسا ·

أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبه كتاب كعبدة الاوثان فقد قال مالك والشافعي وأحمد فى احدى روايتيه ان ذلك لا يجوز مطلقا ··

فماذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ، ويختطفون ما وصلت اليه أيديهم من السودان وغيرهم (٢)، ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع فيعرضونهم فى الاسواق عرض الحيوانات العجماء، وكثير منهم مسلمون ؟؟ وماذا ترى فى كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسام المتاع ، ثم يسوقونهم الى بيوتهم اما للخدمه ، واما للافتراش ؟·

وماذا ترى فى الذريه التى ينتجها افتراش ابتنى على هذا الاسترقاق الفاسد ؟·

---

(١) راجع كتابه «الاسلام دين الفطرة» فان به مباحث اسلامية قيمة ·

(٢) ممن يسمونهم بلوشيات وكرجيات ويفترشونهن ويهدونهن الى ضيوفهم يفترشونهن أيضا · ان ذلك واقع أناس يزعمون الاسلام ويتبجحون عند كل مناسبة أنهم حماة الاسلام والمسلمين ·· هل هؤلاء يخادعون أنفسهم أم يخادعون خالقهم ، أم يخادعون الناس ؟ دعهم فى ضلالتهم وجهالتهم حتى تأتيهم القارعة ·

ان الدين لبرىء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة ، وطاهر مما ألصقوه به من ذلك الدنس والرجس • قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسول فافتاتوا على الله ، ونسبوا اليه ما نسبوا متقولين عليه ، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم •

واعلم أن هناك نوعا من الاسترقاق فشا فى المسلمين أيضا وهو لا يبيحه الشرع أيضا• ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم قد يحدو بهم الفقر المدقع (١) الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق المدن الاسلامية ــ وهن صغار جدا ــ ليبيعوا الى الامراء والمترفين من الرجال ، ولقد يكون منهن المراهقات والنساء حتى اذا صارت احداهن فى ملك أحد استباح منها واتخذها فراشا ، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة • وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر • فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ، ويدخل فى دينه ما أملته عليه الوساوس والاوهام •

هذا ولنعد بك الى ما يتعلق بالرقيق فى الاسلام • فنقول :

١ ــ كل من أسلم من الاسرى عصم نفسه وماله •

٢ ــ مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبى عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل •

٣ ــ للرقيق فى الاسلام أن يتزوج بنت سيده فينقلب بذلك سيد البيت •

أين هذا مما سبق لنا نقله (٢) من قوانين أوربا فى القرن الثالث عشر من تحريم الزواج بين الارقاء، وكذا بينهم وبين الاحرار، وأنه يجب قتل المرأة التى يتزوجها عبد كما يجب احراقه حيا •

ولنكتف بما نقلناه من كتاب الشيخ عبد العزيز الجاويش بهذا

---

(١) ان سبب ذلك فساد النظام الاقتصادى الذى أصلحه الاسلام • ولكن المسلمين لم يستجيبوا لله ولرسوله ، فكانوا سبة على الاسلام •

(٢) راجع كتاب (الاسلام دين الفطرة) •

القدر ، فانه أتم بحثه بالأحاديث الواردة عن معاملة الاسرى ، وقد تقدم ذكرها في غير موضع من هذا الكتاب ·

الاستاذ سيد قطب :

والاستاذ سيد قطب داعية اسلامي مشهور يقول في تفسيره المسمى « في ظلال القرآن » (ج ٢ ص ٦١ وما بعدها) عندما يتعلق الأمر أو النهي بمسألة اعتقادية أو أخلاقية فان الاسلام يقضي فيها بما يريد قضاء حاسما منذ اللحظة الاولى ·

ولكن عندما يتعلق بعادة شعورية ، أو بوضع اجتماعي ، فانه يتريث ويأخذ الامر باليسر والتدرج حتى يبلغ الى الهدف الذي يرمي اليه في رفق وهوادة ·

فعندما كانت المسألة مسألة عقيدة كالشرك أمضى أمره بتحريمه في خطوة جازمة قاطعة ، كذلك صنع في تحريم الزنا والسرقة والغش والخيانة ·· الخ لأن التحريم البات هنا ابطال لأمر ليس عميق الجذور في أعماق النفس أو أعماق المجتمع ، ولا يترتب عليه انتقال مفاجيء من عادة الى عادة ، أو من وضع الى وضع ·

فأما في الخمر والميسر فقد كان الأمر أمر عادة شعورية والف وعرف ، والعادة تحتاج أحيانا الى التدرج في تركها · فبدأ بتحريك الوجدان الديني ، والمنطق التشريعي في نفوس المسلمين بأن الاثم في الخمر والميسر أكبر من النفع وفي هذا اشارة الى أن تركها أولى ·· ثم جاءت الخطوة التالية بتحريم الصلاة على السكارى حتى يعلموا ما يقولون · « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ·

والصلاة تقع في خمسة أوقات معظمها متقارب لا يكفي مابينها للسكر والافاقة · وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب بعد تضييق الفرص الشعورية بما قدم من أن الاثم أكبر من النفع ·· حتى اذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الحازم والاخير بتحريم الخمر والميسر « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ·

وأما فى الرق فقد كان الأمر أمر وضع اجتماعى ، وعرف دولى فى استرقاق الاسرى ، وفى استخدام الرقيق ! والاوضاع الاجتماعية تحتاج الى تعديل شامل لمقوماتهـــا وارتباطاتها . والعرف الدولى يحتاج الى اتفاقات دولية ، ومعاهدات جماعيه ، ولم يأمر الاســلام بالرق قط ، ولم يرد فى القرآن نص على استرقاق الاسرى ، ولكنه جاء فوجد الرق نظاما عالميا ، ووجد استرقاق الأسرى عرفا دوليا . فلم يكن بد أن يتريث فى علاج هذا الوضع الاجتماعى القائم والنظام الشامل ، وقد اختار أن يجفف منابع الرق وموارده حتى ينتهى بهذا النظام كله مع الزمن الى الالغاء دون احداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها ولا قيادتها .

بدأ بتجفيف موارد الرق ومنابعه كلهـا فيما عدا أسرى الحرب الشرعية ذلك أن المجتمعات المعادية للاسلام كانت تسترق الأسرى المسلمين حسب العرف الدولى العـــام فى ذلك الزمان . وما كان الاسلام قادرا يومئذ على أن يجبر المجتمعات على مخالفة ذلك العرف الدولى . ولو أنه قرر ابطال استرقاق الاسرى لكان هذا اجراء مقصورا على الاسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين .

بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيىء فى عالم الرق هناك . وفى ذلك أطماع للمعادين للاسلام فى أهل الاسلام .

لهذا الوضع الاجتمـاعى القائم لم ينص القرآن على استرقاق الأسرى بل قال « فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ولكنه كذلك لم ينص على عدم استرقاقهم . وترك الدولة المسـلمة تعامل اسراها حسب ماتتفق عليه مع محاربيها فتفدى من تفدى من الاسارى من الجانبين ، وتتبادل الاسرى بين الفريقين ، وتسترق من يسترقون المسلمين كى لا يصـــبح الاسارى من المسلمين أرقاء والاسارى من الكفار طلقاء وذلك الى أن يتسنى تنظيم هـذا العرف باتفاق .

وبتجفيف موارد الرق كلها فيما عدا هذا المورد الذى لا اختيار للاسلام فيه يقل العدد ، وهذا العدد القليل أخذ يعمـل على تحريره بمجرد أن ينضم الى الامة الاسلامية ويقطع صلته بالكفار المحاربين . فجعل للرقيق حقه كاملا فى طلب الحرية بدفع فدية عنه يكاتب عليها

سيده • ومنذ هـذه اللحظة يملك حرية العمـل ، وحرية الـكسب والتملك ، فيصبح أجر عمله له • وله ان يعمل فى غير خدمة سيده ليحصـل على فديته • ثم له نصـيبه من بيت المـال فى الزكاة ، والمسلمون مكلفون فوق هـذا أن يسـاعدوه بالمـال على اسـترداد حريته • وذلك غير الكفارات التى لا تقضى الا بعتق رقبـة كالقتل الخطأ ، وفدية اليمين والظهار وما اليه • وبذلك ينتهى وضع الرق نهاية طبيعية مع الزمن لأنه عميق الجـذور فى التنظيم الاجتماعى والعرف الدولى •

وعلى هذه الطريقة سار الاسلام فى أوامره ونواهيه وفى علاج انحرافات النفس ، وانحرافات المجتمع ، وتقويم الفطرة البشرية وردها الى سواء السبيل •

ثم يقول سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن) (ج ٤ ص ٨٣) عند تفسير قوله تعالى « ان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم » •

ان الزواج عن أمة لا يحتاج الى القول بأنه رد لاعتبارها وكرامتها الانسانية فأما التسرى ففيه اهانة لآدميتها ما فى ذلك شك أيضا • ولـكن الضرورة التى أباحت اسـترقاق الاسرى والتى عرضـناها هناك (١) هى ذاتها التى اقتضت اباحة التسرى، لان مصير المسلمات حين يؤسرن كان كذلك بل هو شر من ذلك (٢) فهى اذن المعاملة بالمثل (٣) اذن حتى يمكن الاتفاق على نظام لأسرى الحرب خير من ذلك النظام الذى كان يسود العالم يومذاك •

على أنه يحسن ألا ننسى أن هؤلاء الأسيرات المسترقات لهـن مطالب فطرية يحسب حسـابها فى حياتهن فاما أن تتم عن طريق

---

(١) يقصد ما قدمناه من قوله الذى نقلناه من الجزء الثانى •

(٢) ان غـير المسـلمين يبحن الاسيرة لـكل من أرادها • أما الاسـلام فيحرم ذلك ولا يبيحها الا لمن هى فى يده •

(٣) ان عدم اباحتها لمن أرادها أشرف من اباحتهـا لـكل من أرادها فهى معاملة بالمثل مع الفارق •

الزواج حين يتحررن ، وإما أن تتم عن طـريق التسرى ما دام نظام استرقاق الاسرى بضروراته قائما .

أما ما حدث فى أيام بنى أمية وبنى العبـاس ومن بعدهم من تلك الحيوانيـة الشـهوانية حيث كانت تزدحم القصـور بالجوارى والسرارى عن طريق الشراء فقـد لعبت فيه النخاسـه دورا هاما ، والاسلام برىء منه وهو مخالف لروح الشريعة بلا جدال .

الأستاذ محمد قطب :

والاستاذ محمد قطب شاب عربى مثقف ، يمتـاز بذهنية نيرة وخلق قويم وهو يلتهب غيرة على الاسلام ويمتلىء اخلاصا له ولمبادئه ونظمه وتشريعاته . وله مؤلفات قيمةفى هذا الشأن ومن بينهاكتابه « شبهات حول الاسلام » وقد كتب فيه تحت عنوان (الاسـلام .. والرق) بحثا قوى الحجة . شائق الاسلوب رأيت أن أنقـله حرفيا بجملته . من صفحة (٢٧) الى صفحة (٦٣) .

يقول الاستاذ محمد قطب :

الاسلام .. والرق :

ربما كانت هذه الشبهه أخبث ما يلعب به الشيوعيون لزلزلة عقائد الشباب ! . يقولون :

لو كان الاسلام صالحا لـكل عصر ـ كما يقول دعاته ـ لما أباح الرق .. وان اباحته للرق لدليل قاطع على أن الاسلام قد جاء لفترة محدودة ، وأنه أدى مهمته وأصبح فى ذمة التاريخ !.

وان الشباب المؤمن ذاته لتساوره بعض الشكوك ! كيف أباح الاسلام الرق ؟ هذا الدين الذى لا شك فى نزوله من عند الله ولاشك فى صدقه ، وفى أنه جاء لخير البشرية كلها فى جميع أجيالهـا .. كيف أباح الرق ؟ الدين الذى قام على المساواة الـكاملة ، الذى رد الناس جميعا الى أصل واحد ، وعاملهم على أساس هذه المساواة فى الاصل المشترك .. كيف جعل الرق جزءا من نظامه وشرع له ؟.

أو يريد الله للناس أن ينقسموا أبدا الى سادة وعبيد ؟ أو تلك

مشيئته في الارض ؟ أو يرضى الله للمخلوق الذى كرمه اذ قال : « ولقد كرمنا بنى آدم » أن يصير طائفة منه سلعة تباع وتشترى كما كان الحال مع الرقيق ؟ واذا كان الله لا يرضى بذلك ، فلماذا لم ينص كتابه الكريم صراحة على الغاء الرق ، كما نص على تحريم الخمر والميسر والربا وغيرها مما كرهه الاسلام ؟

وان هذا الشاب المؤمن ليعلم أن الاسلام دين الحق ، ولكنه كابراهيم : « قال : أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ! » .

أما الشباب الذى أفسد الاستعمار عقله وعقائده ، فانه لايلبث حتى يتبين حقيقة الامر ، وانما يميل به الهوى فيقرر دون مناقشة أن الاسلام نظام عتيق قد استنفد أغراضه ! .

وأما الشيوعيون خاصه فأصحاب دعاوى « علميه » مزيفه ، يتلقونها من سادتهم هناك فينتفشون بها عجبا ، ويحسبون أنهم وقعوا على الحقيقة الابدية الخالدة التى لا مراء فيها ولا جدال ، وهى المادية الجدليه التى تقسم الحياة البشرية الى مراحل اقتصادية معينة لا معدى عنها ولا محيص : وهى الشيوعية الاولى ، والرق والاقطاع ، والرأسمالية والشيوعية الثانية (وهى نهاية العالم !) وأن كل ماعرفته البشريه من عقائد ونظم وأفكار ، انما كانت انعكاسا للحالة الاقتصادية ، أو للطور الاقتصادى القائم حينئذ ، وأنها صالحة له ، متلائمة مع ظروفه ، ولكنها لا تصلح للرحلة التالية التى تقوم على أساس اقتصادي جديد . وأنه — من ثم — لا يوجد نظام واحد يمكن أن يصلح لكل الاجيال . واذا كان الاسلام قد جاء والعالم فى نهاية فترة الرق ومبادىء فترة الاقطاع فقد جاءت تشريعاته وعقائده ونظمه ملائمة لهذا القدر من التطور ، فاعترفت بالرق ، وأباحت الاقطاع(١) ولم يكن فى طوق الاسلام أن يسبق التطور الاقتصادى أو يبشر بنظام لم تتهيأ بعد امكانياته الاقتصادية لان كارل مركس — سبحانه قال ان هذا مستحيل !! .

ونريد هنا أن نضع المسألة فى حقيقتها التاريخية والاجتماعية والسيكولوجية بعيدا عن الغبار الذى يثيره هؤلاء وأولئك فاذا حصلنا

(١) سنناقش فى الفصل التالى شبهة الاقطاع .

على حقيقة موضوعية فلا علينا حينئذ من دعاوى المنحرفين » و « العلماء » المزيفين !٠

***

نحن ننظر اليوم الى الرق بعقلية القرن العشرين ! وننظر اليه في ضوء الشناعات التي ارتكبت في عالم النخاسة ، والمعاملة الوحشية البشعة التي سجلها التاريخ في العالم الروماني خاصة فنستفظع الرق ، ولا تطيق مشاعرنا أن يكون هذا اللون من المعاملة امرا مشروعا يقره دين أو نظام ، ثم تغلب علينا انفعالات الاستبشاع والاستنكارات فنعجب كيف أباح الاسلام الرق ، وكل توجيهاته وتشريعاته كانت ترمي الى تحرير البشر من العبودية في جميع ألوانها وأشكالها ، ونتمنى في حرارة الانفعال أن لو كان الاسلام قد أراح قلوبنا وعقولنا فنص على تحريمه بالقول الصريح ٠

وهنا وقفة عند حقائق التاريخ ٠ ففظائع الرق في العالم الروماني لم يعرفها قط تاريخ الاسلام ٠ ومراجعة بسيطة للحالة التي كان يعيشى عليها الارقاء في الامبراطورية الرومانية ، كفيلة بأن ترينا النقلة الهائلة التي نقلها الاسلام للرقيق ، حتى لو لم يكن عمل على تحريره ــ وهذا غير صحيح !٠

كان الرقيق في عرف الرومان « شيئا » لا بشرا ، شيئا لا حقوق له البتة وان كان عليه كل ثقيل من الواجبات ٠ ولنعلم أولا من أين كان يأتي هذا الرقيق : كان يأتي من طريق الغزو ٠ ولم يكن هذا الغزو لفكرة ولا لمبدأ ٠ وانما كان سببه الوحيد شهوة استعباد الآخرين وتسخيرهم لمصلحة الرومان ٠ فلكي يعيش الروماني عيشة البذخ والترف ، يستمتع بالحمامات الباردة والساخنة والثياب الفاخرة ، وأطايب الطعام من كل لون ، ويغرق في المتاع الفاجر من خمر ونساء ورقص وحفلات ومهرجانات ، كان لابد لكل هذا من استعباد الشعوب الاخرى وامتصاص دمائها ٠ ومصر مثل لذلك حين كانت في قبضة الرومان ، قبل أن يخلصها من نيرهم الاسلام ، اذ كانت حقل قمح للامبراطورية ، وموردا للاموال ٠٠٠

في سبيل هذه الشهوة الفاجرة كان الاستعمار الروماني ، وكان الرق الذي نشأ من ذلك الاستعمار ٠٠ أما الرقيق فقد كانوا

كما ذكرنا ـ أشياء ليس لها كيان البشر ولا حقوق البشر . كانوا يعملون في الحقول وهم مصفدون في الاغلال الثقيلة التي تكفي لمنعهم من الفرار . ولم يكونوا يطعمون الا ابقاء على وجودهم ليعملوا، لا لان من حقهم ـ حتى كالبهائم والاشجار ـ أن يأخذوا حاجتهم من الغذاء . وكانوا ـ في أثناء العمل ـ يساقون بالسوط لغير شيء الا اللذة الفاجرة التي يحسها السيد أو وكيله في تعذيب هذه المخلوقات. ثم كانوا ينامون في « زنزانات » مظلمة كريهة الرائحة تعيث فيها الحشرات والفئران ، فيلقون فيها عشرات عشرات قد يبلغون خمسين في الزنزانة الواحدة ـ بأصفادهم ـ فلا يتاح لهم حتى الفراغ الذي يتاح بين بقرة وبقرة في حظيرة الحيوانات .

ولكن الشناعة الكبرى كانت شيئا أفظع من كل ذلك ، وأدل على الطبيعة الوحشية التي ينطوي عليها ذلك الروماني القديم ، والتي ورثها عنه الاوروبي الحديث في وسائل الاستعمار والاستغلال .

تلك كانت حلقات المبارزة بالسيف والرمح ، وكانت من أحب المهرجانات اليهم ، فيجتمع اليها السادة وعلى رأسهم الامبراطور أحيانا ، ليشاهدوا الرقيق يتبارزون مبارزة حقيقية ، توجه فيها طعنات السيوف والرماح الى أي مكان في الجسم بلا تحرز ولا احتياط من القتل . بل كان المرح يصل الى أقصاه ، وترتفع الحناجر بالهتاف والاكف بالتصفيق ، وتنطلق الضحكات السعيدة العميقة الخالصة حين يقضي أحد المتبارزين على زميله قضاء كاملا ، فيلقيه طريحا على الارض فاقد الحياة !!.

كذلك كان الرقيق في العالم الروماني . ولا نحتاج أن نقول شيئا عن الوضع القانوني للرقيق عندئذ ، وعن حق السيد المطلق في قتله وتعذيبه واستغلاله دون أن يكون له حق الشكوى ، ودون أن تكون هناك جهة تنظر في هذه الشكوى أو تعترف بها ، فذلك لغو بعد كل الذي سردناه .

ولم تكن معاملة الرقيق في فارس والهند وغيرها ، تختلف كثيرا عما ذكرنا من حيث اهدار انسانية الرقيق اهدارا كاملا ، وتحميله بأثقل الواجبات دون اعطائه حقا مقابلها ، وان كانت تختلف فيما بينها قليلا أو كثيرا في مدى قسوتها وبشاعتها .

ثم جاء الاسلام ...

جاء ليرد لهؤلاء البشر انسانيتهم . جـاء ليقول للسادة عن الرقيق : « بعضكم من بعض (١) » . جاء ليقول : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه (٢) » . جاء ليقرر وحدة الاصل والمنشأ والمصير : « أنتم بنو آدم وآدم من تراب (٣) » . وأنه لا فضل لسيد على عبد لمجرد أن هذا سيد وهذا عبد ، وانما الفضل للتقوى : « ألا لا فضـل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسـود الا بالتقوى (٤) » . وليقرر ان السادة ليسوا أصحاب فضل حـين ينفقون على عبيدهم ، لأنهم جميعا فى وضع واحد بالنسبة لله خالق الجميع وحده ، ورازق الجميع وحده : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فمـا الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء» (٥) » . جاء ليأمر السادة أمرا أن يحسنوا معاملتهم للرقيق : « وبالوالدين احسانا ، وبذى القربى واليتـامى والمساكين والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختـالا فخورا (٦) » . وليقرر أن العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد ، أو التسخير والتحقير ، وانما هى علاقة القربى والاخوة . فالسادة « أهل » للجارية يستأذنون فى زواجها : «... فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنـات ... بعضكم من بعض ، فانكوحهن باذن أهلهن ، وأتوهن أجورهن بالمعـروف (٧) » . وهم اخوة للسادة : « اخوانكم خولكم ... فمن كان « أخوه » تحت يده

(١) سورة المائدة (٢٥) .
(٢) حديث رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٣) حديث رواه مسلم وأبو داود .
(٤) أخرجه الطبرى فى كتاب « آداب النفوس » (باسناده عمن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى) .
(٥) سورة النحل (٧١) .
(٦) سورة النساء (٣٦) .
(٧) سورة النساء (٢٥) .

فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم (١) » . وزيادة فى رعاية مشاعر الرقيق يقول الرسول الكريم : « لا يقل أحدكم : هذا عبدى وهــذه أمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى (٢) » . ويستند على ذلك أبو هريرة فيقول لرجل ركب وخلفه عبده يجرى : « احمله خلفك ، فانه أخوك وروحه مثل روحك » .

ولم يكن ذلك كل شيء . ولكن ينبغى قبل أن ننتقل الى الخطوة التالية أن نسجل القفزة الهائلة التى قفزها الاســـلام بالرقيق فى هذه المرحلة .

لم يعد الرقيق « شيئا » . وانما صـــار بشرا له روح كروح السادة ، وقد كانت الامم الاخرى كلها تعتبر الرقيق جنسا آخر غير جنس السادة ، خلق ليستعبد ويستذل ، ومن هنا لم تكن ضمائرهم تتأثم من قتله وتعذيبه وكيه بالنــــار وتسخيره فى الاعمال القذرة والاعمال الشاقة (٣) . ومن هنالك رفعه الاسلام الى مستوى الاخوة الكريمة ، لا فى عالم المثل والاحلام فحسب ، بل فى عالم الواقــع كذلك . ويشهد التاريخ ــ الذى لم ينكره أحد ، حتى الصليبيون المتعصبون من أهل أوروبا ــ بأن معاملة الرقيق فى صدر الاســلام بلغت جدا من الانسانية الرفيعة لم تبلغه فى أى مكان آخر . حدا جعل الرقيق المحررين يأبون مغادرة سادتهم السابقين ــ مع أنهم يملكون ذلك ــ لانهم يعتبرونهم أهلا لهم ، يربطهم بهم ما يشــــبه روابط الدم ! .

وأصبح الرقيق كائنا انسانيا له كرامة يحميها القانون ، ولا

---

(١) حديث رواه البخارى .

(٢) رواه أبو هريرة .

(٣) يعتقد الهنود ان الرقيق (المنبوذين) خلقوا من أقدام الاله ، ومن ثم فهم بخلقتهم حقراء مهينون ، ولا يمكن أن يرتفعوا عن هـــذا الوضـــع المقسوم لهم ، الا بتحمل الهوان والعذاب عسى أن تنسخ أرواحهم بعد الموت فى مخلوقات أفضل ! وبذلك تضاف الى لعنـــة الوضع السيىء الذى يعيشون فيه لعنة أخرى روحية تقضى عليهم أن يرضوا بالذل ولا يقاوموه .

يجوز الاعتداء عليها لا بالقول ولا بالفعل . فأما القول فقد نهى الرسول السادة عن تذكيرأرقائهم بأنهم ارقاء ، وأمرهم أن يخاطبوهم بما يشعرهم بمودة الاهل ، وينفى عنهم صفة العبودية ، وقال لهم فى معرض هذا التوجيه : « ان الله ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم (١) » فهى اذن مجرد ملابسات عارضة جعلت هؤلاء رقيقا ، وكان من الممكن ان يكونوا سادة لمن هم اليوم سادة ! وبذلك يغض من كبرياء هؤلاء ، ويردهم الى الآصرة البشريه التى تربطهم جميعا . والمودة التى ينبغى أن تسود علاقاتهم بعضهم ببعض . واما الاعتداء الجسدى فعقوبته الصريحة هى المعاملة بالمثل : « من قتل عبده قتلناه ... » وهو مبدأ صريح الدلالة على المساواة الانسانية الكاملة بين الرقيق والسادة ، وصريح فى بيانات الضمانات التى يحيط بها حياة هذه الطائفة من البشر ــ التى لا يخرجها وضعها العارض عن صفتها البشرية الاصلية ــ وهى ضمانات كاملة ووافية .. تبلغ حدا عجيبا لم يصل اليه قط تشريع آخر من تشريعات الرقيق فى التاريخ كله ، لا قبل الاسلام ولا بعده ، اذ جعل مجرد لطم العبد فى غير تأديب (وللتأديب حدود مرسومة لايتعداها ، ولايتجاوز على أى حال ما يؤدب به السيد أبناءه) مبررا قانونيا لتحرير الرقيق !! .

ثم ننتقل الى المرحلة التالية ، مرحلة التحرير الواقعى .

لقد كانت الخطوة السابقة فى الواقع تحريرا روحيا للرقيق ، برده الى الانسانية ، ومعاملته على أنه بشر كريم لا يفترق عن السادة من حيث الاصل ، وانما هى ظروف عارضة حدت من الحرية الخارجية للرقيق فى التعامل المباشر مع المجتمع ، وفيما عدا هذه النقطة كانت للرقيق كل حقوق الآدميين .

ولكن الاسلام لم يكتف بهذا ، لان قاعدته الاساسية العظمى هى المساواة الكاملة بين البشر ، وهى التحرير الكامل لكل البشر . ولذلك عمل فعلا على تحرير الارقاء ، بوسيلتين كبيرتين : هما العتق والمكاتبة .

---

(١) ذكره الامام الغزالى فى كتاب احياء علوم الدين فى الكلام عن حقوق المملوك ،فى حديث طويل قال انه آخر ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم .

فأما العتق فهو التطوع من جانب السادة بتحرير من في يدهم من الارقاء . وقد شجع الاسلام على ذلك تشجيعا كبيرا، وكان الرسول الكريم القدوة الاولى في ذلك ، اذ أعتق من عنده من الارقاء ، وتلاه في هذا أصحابه وكان أبو بكر ينفق أموالا طائلة في شراء العبيد من سادة قريش الكفار ، ليعتقهم ويمنحهم الحرية ، وكان بيت المال يشترى العبيد من أصحابهم ويحررهم كلما بقيت لديه فضلة من مال . قال يحيى بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فجمعتها ثم طلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيرا ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها عبيدا فأعتقتهم » .

وكان النبى يعتق من الارقاء من يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، أو يؤدى خدمة مماثلة للمسلمين . ونص القرآن الكريم على أن كفارة بعض الذنوب هى عتق الرقاب . كما كان النبى يحث على العتق تكفيرا عن أى ذنب يأتيه الانسان ، وذلك للعمل على تحرير أكبر عدد ممكن منهم ، فالذنوب لا تنقطع . وكل ابن آدم خطاء كما يقول الرسول . ويحسن هنا أن نشير خاصة الى احدى هذه الكفارات لدلالتها الخاصة فى نظرة الاسلام الى الرق ، فقد جعل كفارة القتل الخطأ دية مسلمة الى أهل القتيل وتحرير رقبة : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله (١) » . والقتيل الذى قتل خطأ هو روح انسانية قد فقدها أهلها كما فقدها المجتمع قبل أوانها ، لذلك يقرر الاسلام التعويض عنها من جانبين : التعويض لاهلها بالدية المسلمة لهم ، والتعويض للمجتمع بتحرير رقبة مؤمنة ! فكأن تحرير الرقيق هو احياء لنفس انسانية تعوض النفس التى ذهبت بالقتل الخطأ . والرق على ذلك هو موت أو شبيه بالموت فى نظر الاسلام ، على الرغم من كل الضمانات التى أحاط بها الرقيق ، ولذلك فهو ينتهز كل فرصة « لاحياء » الارقاء بتحريرهم من الرق (٢) .

ويذكر التاريخ أن عددا ضخما من الارقاء قد حـرر بطريق العتق ، وأن هذا العدد الضخم لا مثيل له فى تاريخ الامم الاخرى

---

(١) سورة النساء (٩٢) .

(٢) عن « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » .

لا قبل الاسلام ، ولا بعده بقرون عدة حتى مطلع العصر الحديث . كما أن عوامل عتقهم كانت انسانية بحتة ؛ تنبع من ضمائر النـاس ابتغاء مرضاة الله ، ولا شيء غير مرضاة الله .

أما المكاتبة فهي منح الحرية للرقيق متى طلبها بنفسه ، مقابل مبلغ من المال يتفق عليه السيد والرقيق . والعتق هنا اجبارى لايملك السيد رفضه ، ولا تأجيله بعد أداء المبلغ المتفق عليه ، والا تدخلت الدولة (القاضى أو الحاكم) لتنفيـــذ العتق بالقوة ، ومنح الحرية لطالبها .

وبتقرير المكاتبة فتح فى الواقع باب التحرير فى الاسلام ، لمن أحس داخـــل نفسه برغبة التحرر ، ولم ينتظر أن يتطوع سيده بتحريره فى فرصة قد تسنح أو لا تسنح على مر الايام .

ومنذ اللحظة الاولى التى يطلب فيها الرقيق المكاتبة - والسيد لايملك رفض المكاتبة متى طلبها الرقيق ولم يكن فى تحريره خطر على امن الدولة الاسلاميه - يصبح عمله عند سيده بأجر ، أو يتاح له - اذا رغب - أن يعمل فى الخارج بأجر ، حتى يجمع المبلغ المتفق عليه .

ومثل ذلك قد حدث فى أوربا فى القرن الرابع عشر - أى بعد تقرير الاسلام له بسبعة قرون-مع فارق كبير لم يوجد فى غير الاسلام، وهو كفالة الدولة للارقاء المكاتبين وذلك الى جانب مجهود الاسـلام الضخم فى عتق الارقاء تطوعا بلا مقابل ، تقربا الى الله ووفاء بعبادته. تقول الآية التى تبين مصارف الزكاة : « انما الصـــدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ... وفى الرقاب ... (١) » فتقـــرر أن الزكاة تصرف من بيت المال - وهو وزارة المالية فى العرف الحديث - لمعاونة المكاتبين من الارقاء لاداء ثمن التحرير ، اذا عجـزوا بكسبهم الخاص عن أدائه .

وبهذا وذاك يكون الاسلام قد خطا خطوات فعلية واســعة فى سبيل تحرير الرقيق ، سبق بها التطور التاريخى كله بسبعة قرون على الاقل ، وزاد على هذا التطور عناصر - كرعاية الدولة - لم يفيء اليها العالم الا فى مطلع تاريخه الحديث . وعناصر أخرى لم يفيء اليها

---

(١) سورة التوبة (٦٠)

أبدا ، سواء فى حسن معاملة الرقيق ، أو فى عتقه تطوعا ، بغير ضغط من التطورات الاقتصادية أو السياسية التى اضطرت الغرب اضطرارا لتحرير الرقيق كما سيجىء .

وبهذا وذاك تسقط حذلقة الشيوعيين ودعاواهم « العلمية » الزائفة ، التى تزعم أن الاسلام حلقة من حلقات التطور الاقتصادى جاءت فى موعدها الطبيعى حسب سنة المادية الجدلية ــ فهاقد سبقت موعدها بسبعة قرون ــ والتى تزعم ان كل نظام ــ بما فى ذلك الاسلام ــ ان هو الا انعكاس للطور الاقتصادى القائم وقت ظهوره ، وأن كل عقائده وأفكاره تلائم هذا التطور وتستجيب له ، ولكنها لا تسبقه ، ولا تستطيع أن تسبقه ، كما قرر العقل الذى لا يخطىء ولا يأتيه الباطل من فوقه ولا من تحته ، عقل كارل ماركس تقدست ذكراه ! فها هو ذا الاسلام لم يعمل بوحى النظم الاقتصادية القائمة حينئذ فى جزيرة العرب وفى العالم كله ، لا فى شأن الرقيق ، ولا فى توزيع الثروة ، ولا فى علاقة الحاكم بالمحكوم أو المالك بالاجير (١) ، وانما كان ينشىء نظمه الاجتماعية والاقتصادية تطوعا وانشاء على نحو غير مسبوق ، ولا يزال فى كثير من أبوابه منفردا فى التاريخ .

***

وهنا يخطر السؤال الحائر على الافكار والضمائر : اذا كان الاسلام قد خطا هذه الخطوات كلها نحو تحرير الرقيق ، وسبق بها العالم كله متطوعا غير مضطر ولا مضغوط عليه ، فلماذا لم يخط الخطوة الحاسمة الباقية ، فيعلن فى صراحة كاملة الغاء الرق من حيث المبدأ ، وبذلك يكون قد أسدى للبشرية خدمة لا تقدر ، ويكون هو النظام الاكمل الذى لا شبهة فيه ، والجدير حقا بأن يصدر عن الله الذى كرم بنى آدم ، وفضلهم على كثير ممن خلق ؟ .

وللاجابة عن هذا السؤال ينبغى أن ندرك حقائق اجتماعية وسيكلوجيه وسياسية أحاطت بموضوع الرق ، وأخرت هذا الاعلان المرتقب بالغاء الرق ، وان كان ينبغى أن ندرك أنه تأخر فى الواقع

---

(١) انظر الفصول التالية .

كثيرا جدا عما أراد له الاسلام ، وعما كان يمكن أن يحدث لو سار الاسلام فى طريقه الحق ، ولم تفسده الشهوات والانحرافات ٠

يجب أن نذكر أولا أن الاسلام جاء والرق نظام معترف به فى جميع أنحاء العالم ، بل كان عملة اقتصادية واجتماعية متـــداولة ، لا يستنكرها أحد ، ولا يفكر فى امكان تغييرها أحد ٠ لذلك كان تغيير هذا النظام أو محوه أمرا يحتاج الى تدرج شديد وزمن طويل ٠ وقد احتاج ابطال الخمر الى بضع سنوات ٠ والخمر عادة شخصية قبــل كل شيء ، وان كانت ذات مظاهر اجتماعية ، وكان بعض العرب أنفسهم فى الجاهلية يتعففون عنها ، ويرون فيها شرا لا يليق بذوى النفوس العالية ٠

والرق كان أعمق فى كيان المجتمع ونفوس الافراد ، لاشتماله على عوامل شخصيه واجتماعية واقتصادية ٠ ولم يكن أحد يستنكره كما أسلفنا ٠ لذلك كان ابطاله فى حاجة الى زمن أطول مما تتسع له حياة الرســـول ، وهى الفترة التى كان ينزل فيها الوحى بالتنظيم والتشريع ، والله أعلم بمن خلق ٠ فلو كان الله يعلم أن ابطال الخمر يكفى فيه اصدار تشريع ينفذ لساعته ، لما حرمها ــ سبحانه وتعالى ــ فى بضع سنوات .

ولو كان يعلم أن ابطال الرق يكفى له مجرد اصدار «مرسوم» بالغائه لما كان هناك سبب لتأخر هذا المرسوم ! وقد ظل الرق نظاما معمولا به فى أوربا ألف سنة بعد الاسلام،حتى ألغته الثورة الفرنسيه من حيث المبدأ ٠ وظل فى أمريكا بعد ذلك حتى ألغاه ابراهام لنكولن من حيث المبدأ أيضا سنة ١٨٦٣ ٠ وكان موجودا فى الحبشة الى ما قبل الغزو الايطالى الاخير ٠ ولا يزال موجودا بصفة رسمية فى بعض أجزاء العالم التى لم تصلها الاديان ، ولم تنفذ اليها الحضارة ٠ فلم يكن فى وسع الاسلام أن يتخطى هذه الاجيال كلها ، ويصدر تشريعا يحتاج تنفيذه الى ألف سنة ! وليس معنى قولنا ان الاسلام قد نزل للبشرية جميعا وللاجيال جميعا ، وانه يحمل العناصر الصالحة للبقاء والاستمرار ، انه قد وضع التشريعات التفصيلية « لكل » مايجد من الملابسات فى جميع الاجيال ، فهو يصنع ذلك فقط فى المسائل التى لا تتغير فى جيل عن جيل ، لانها تتعلق بالكيان البشرى فى أعماقه ،

والنزعات الفطرية فى منبتها . أما الملابسات المتغيرة على الدوام فحسبه فيها أن يضع الاسس العامه التى ينبغى أن تتطور البشرية فى حدودها . وكذلك صنع فى مسألة الرق ، اذ وضع الاسس الكاملة للتحرير ، عتقا ومكاتبة ، وأشار الى الطريق الذى ينبغى أن تسلكه الانسانية للخلاص من هذه المشكلة القديمة ، حتى يجىء الوقت المناسب للقضاء عليها نهائيا .

والاسلام لم ينزل لتغيير طبائع البشر . وليس فى وسع أى نظام مهما يكن مصدره أن يغير طبائع الناس بالقوة وانما نزل الاسلام لتهذيب البشر فى حدود واقعهم السيكلوجى ، والارتفاع بهم — دون كبت ولا قهر — الى أقصى ما يستطيعونه من ارتفاع . وقد وصل الى حد الاعجاز فى تهذيب بعض الافراد فكأنهم ملائكة لا بشر . ووصل فى ذلك من حيث النوع والكم الى ما لم يصل اليه نظام آخر فى التاريخ ولكنه مع ذلك كله لم يكن مكلفا أن يحول جموع الناس الى ملائكة . ولو أراد الله ذلك لخلق الناس منذ البدء ملائكة ، وكلفهم تكاليف لانضاجهم . ويكفى الاسلام على أى حال أن يكون هو الذى بدأ حركة التحرير فى العالم ، قبل أن تفىء اليها البلاد التى لم تعتنق الاسلام بسبعة قرون ، وأنه فى الواقع قد جفف منابع الرق القديمة كلها فى الجزيرة العربية ، وكان قمينا أن يلغيه بالنسبة للمستقبل فى العالم الاسلامى ، لولا منبع جديد ظل يفيض بالرق من كل مكان ، ولم يكن فى وسع الاسلام يومئذ القضاء عليه ، لانه لا يتعلق به وحده ، وانما يتعلق بأعدائه الذين ليس له عليهم سلطان . ذلك هو رق الحرب ، وسنتحدث عنه بشىء من التفصيل بعد قليل .

ويجب أن نذكر ثانيا ان الحرية لا تمنح وانما تؤخذ . وتحرير الرقيق باصدار مرسوم لم يكن ليحرر الرقيق ! والتجربة الامريكية فى تحرير الرقيق بجرة قلم على يد ابراهام لنكولن خير شاهد لما نقول فالعبيد الذين حررهم لنكولن — من الخارج — بالتشريع ، لم يطيقوا الحرية ، وعادوا الى سادتهم يرجونهم أن يقبلوهم عبيدا لديهم كما كانوا ، لانهم — من الداخل — لم يكونوا قد تحرروا بعد .

والمسألة على غرابتها ليست غريبة حين ينظر اليها على ضوء الحقائق النفسية . فالحياة عادة . والملابسات التى يعيش فيها الانسان هى التى تكيف مشاعره وتصوغ احاسيسه وأجهزته

النفسية (١) . والكيان النفسى للعبد يختلف عن الكيان النفسى للحر ، لا لانه جنس آخر كما ظن القدماء ، ولكن لان حياته فى ظل العبودية الدائمة جعلت أجهزته النفسية تتكيف بهذه الملابسات ، فتنمو أجهزة الطاعة الى أقصى حد ، وتضمر أجهزة المسئولية واحتمال التبعات الى أقصى حد .

فالعبد يحسن القيام بكثير من الامور حين يأمره بها سيده . فلا يكون عليه الا الطاعة والتنفيذ . ولكنه لا يحسن شيئا تقع مسئوليته على نفسه ، ولو كان أبسط الاشياء ، لا لان جسمه يعجز عن القيام بها ، ولا لان فكره — فى جميع الاحوال — يعجز عن فهمها ، ولكن لان نفسه لا تطيق احتمال تبعاتها ، فيتخيل فيها اخطارا موهومة ، ومشكلات لا حل لها ، فيفر منها ابقاء على نفسه من الاخطار ! .

ولعل الذين ينعمون النظر فى الحياة المصرية — والشرقية — فى العهود الاخيرة يدركون أثر هذه العبودية الخفية التى وضعها الاستعمار الخبيث فى نفوس الشرقيين ليستعبدهم للغرب . يدركونها فى المشروعات المعطلة التى لا يعطلها — فى كثير من الاحيان — الا الجبن عن مواجهة نتائجها ! والمشروعات المدروسة التى لا تنفذها الحكومات حتى تستقدم خبيرا انجليزيا أو أمريكيا .. الخ ، ليتحمل عنها مسئولية المشروع ويصدر الاذن بالتنفيذ ! والشلل المروع الذى يخيم على الموظفين فى الدواوين ويقيد انتاجهم بالروتين المتحجر ، لان احدا من الموظفين لا يستطيع أن يصنع الا ما يأمره به « السيد » الموظف الكبير وهذا بدوره لا يملك الا اطاعة « السيد » الوزير ، لا لان هؤلاء جميعا يعجزون عن العمل ، ولكن لان جهاز التبعات عندهم متضخم ، فهم أشبه شىء بالعبيد ، وان كانوا رسميا من الاحرار .

هذا التكيف النفسى للعبد هو الذى يستعبده وهو ناشىء فى أصله من الملابسات الخارجية بطبيعة الحال ، ولكنه يستقل عنها ،

---

(١) يقول دعاة المذهب المادى ان الملابسات الخارجية هى التى « تخلق » المشاعر . ونحن لا نؤمن بذلك لان فيه مغالطة صارخة . فهناك رصيد نفسى سابق فى وجوده لهذه الملابسات ، وهى « تكيف » هذا الرصيد ولكنها لا تخلقه من العدم .

يصبح شيئا قائما بذاته ، كفرع الشجرة الذى يتدلى الى الارض ثم يمد جذورا خاصة به ويستقل عن الاصل • وهذا التكيف النفسى لا يذهب به اعلان تصدره الدولة بالغاء الرقيق بل ينبغى أن يغير من الداخل ، بوضع ملابسات جديدة تكيف المشاعر على نحو آخر ، وتنمى الاجهزة الضامرة فى نفس العبد ، وتصنع كيانا بشريا سويا من كيانه المشوه الممسوخ •

وذلك ما صنعه الاسلام •

فقد بدأ أولا بالمعاملة الحسنة للرقيق •ولا شىء كحسن المعاملة يعيد توازن النفس المنحرفه ، ويرد اليها اعتبارها ، فتشعر بكيانها الانسانى ؛ وكرامتها الذاتية ؛ وحين ذلك تحس طعم الحرية فتتذوقه، ولا تنفر منه كما نفر عبيد أمريكا المحررون •

وقد وصل الاسلام فى حسن المعاملة ورد الاعتبار الانسانى للرقيق الى درجة عجيبة ضربنا أمثلة منها من قبل فى آيات القرآن وأحاديث الرسول ، ونسرد هنا أمثلة أخرى فى التطبيق الواقعى •

كان الرسول يؤاخى بين بعض العبيد وبعض الاحرار من سادة العرب ، فآخى بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة الخثعمى ، وبين مولاه زيد وعمه حمزة ، وبين خارجة بن زيد وأبى بكر ، وكانت هذه المؤاخاة صلة حقيقيه تعدل رابطة الدم ، وتصل الى حد الاشتراك فى الميراث !•

ولم يكتف بهذا الحد •••

فقد زوج بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد ، والزواج مسألة حساسه جدا وخاصة من جانب المرأة ، فهى تقبل أن تتزوج من يفضلها مقاما ، ولكنهاتأبى أن يكون زوجها دونها فيالحسبوالنسب والثروة ، وتحس أن هذا يحط من شأنها ويغض من كبريائها • ولكن الرسول كان يهدف الى معنى أسمى من كل ذلك ، وهو رفع الرقيق من الوهدة التى دفعته اليها البشرية الظالمة الى مستوى أعظم سادة العرب من قريش •

ولم يكتف كذلك بهذا الحد •••

فقد أرسل مولاه زيدا على رأس جيش فيه الانصار والمهاجرون من سادات العرب ، فلما قتل ولى ابنه أسامة بن زيد قيادة الجيش، وفيه أبو بكر وعمر وزيرا الرسول وخليفتاه من بعده ، فلم يعط الرقيق بذلك مجرد المساواة الانسانية ، بل أعطاه حق القيادة والرياسة على « الاحرار » • ووصل فى ذلك الى أن يقول : «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى (١) » • فأعطى العبيد بذلك الحق فى أرفع مناصب الدولة كلها ، وهو خلافة المسلمين • وقد قال عمر وهو يستخلف : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته » فيسير على نفس المبدأ الذى سنه الرسول •

ويضرب عمر مثلا آخر من الامثلة الرائعة على احترام الرقيق، اذ يعارضه بلال بن رباح فى مسألة الفيء فيشتد فى معارضته ، فلا يجد سبيلا فى رده الا أن يقول : « اللهم اكفنى بلالا وأصحابه » !ذلك وهو الخليفة الذى كان يملك — لو أراد — أن يأمر فيطاع ! •

هذه النماذج التى وضعها الاسلام كان المقصود بها تحرير الرقيق من الداخل — كما قلنا فى مبدأ هذا الفصل — لكى يحس بكيانه فيطلب الحرية ، وهذا هو الضمان الحقيقى للتحرير •

وصحيح أنه شجع على العتق واستحث عليه بكل الوسائل ، ولكن هذا نفسه كان جزءا من التربية النفسية للرقيق ، لكى يشعروا أن فى امكانهم أن يحصلوا على الحرية ويتمتعوا بكل ما يتمتع به السادة من حقوق ، فتزداد رغبتهم فى الحرية ، ويتقبلوا احتمال التبعات فى سبيلها ؛ وهنا يسارع فى منحها لهم ؛ لانهم حينئذ مستحقون لها ، قادرون على صيانتها •

وفرق كبير بين النظام الذى يشجع على طلب الحرية ويهيىء لها الوسائل ثم يعطيها لهم فى اللحظة التى يطلبونها بأنفسهم ، وبين النظم التى تدع الامور تتعقد وتتحرج ، حتى تقوم الثورات الاقتصادية والاجتماعية ، وتزهق الارواح بالمئات والالوف ؛ ثم لا تعطى الحرية لطلابها الا مجبرة كارهة •

---

(١) رواه البخارى •

وقد كان من فضائل الاسلام الكبرى فى مسأله الرقيق ، أنه قد حرص على التحرير الحقيقى له من الداخل والخارج ، فلم يكتف بالنية الطيبة كما فعل لنكولن باصدار تشريع لا رصيد له فى داخل النفوس ، مما يثبت عمق ادراك الاسلام لطبيعة البشرية ، وفطنته الى خير الوسائل لمعالجتها • وهذا الى جانب تطوعه باعطاء الحقوق لاصحابها ؛ مع تربيتهم على التمسك بها واحتمال تبعاتها على أساس الحب والمودة بين جميع طوائف المجتمع ، قبل أن يتصارعوا من أجل هذه الحقوق كما حدث فى أوربا ، ذلك الصراع البغيض الذى يجفف المشاعر ويؤرث الاحقاد ، فيفسد كل ما يمكن أن تصيبه البشرية من الخير فى أثناء الطريق •

وأخيرا نعود الى العامل الاكبر الذى غل يد الاسلام عن تحريم الرق قبل أربعة عشر قرنا من الزمان •

قلنا ان الاسلام قد جفف منابع الرق القديمة كلها ، فيما عدا منبعا واحدا لم يكن فى طوقه أن يجففه ، وذلك هو رق الحرب • والآن نأخذ فى شيء من التفصيل •

كان العرف السائد يومئذ هو استرقاق أسرى الحـــرب أو قتلهم (١) وكان هذا العرف قديما جدا ، موغلا فى ظلمات التاريخ يكاد يرجع الى الانسان الاول • ولكنه ظل ملازما للانسانيـــة فى شتى أطوارها •

وجاء الاسلام والناس على هذا الحال • ووقعت بينه وبين أعدائه الحروب فكان الاسرى المسلمون يسترقون عند أعداء الاسلام، فتسلب حرياتهم ، ويعامل الرجال منهم بالعسف والظلم الذى كان يجرى يومئذ على الرقيق ، وتنتهك أعراض النساء لكل طالب ، يشترك فى المرأة الواحدة الرجل وأولاده وأصدقاؤه من يبغى الاستمتاع منهم ،

---

(١) جاء فى الموسوعة التاريخية المسماة « تاريخ العـــالم » Universal History of the World • فى ص٢٢٧٣ ماترجمته : « وفى سنة ٥٩٩ رفض الامبراطور (الرومانى) موريس ــ بسبب رغبته فى الاقتصاد ــ أن يفتدى بضع ألوف من الاسرى وقعوا فى يد الآوار ، فقتلهم خان الآوار عن بكرة أبيهم » •

بلا ضابط ولا نظام ، ولا احترام لانسانية أولئك النساء أبكارا كن أم غير أبكار . أما الاطفال — ان وقعوا أسرى — فكانوا ينشأون فى ذل العبودية البغيض .

عندئذ لم يكن فى وسع الاسلام أن يطلق سراح من يقع فى يده من أسرى الاعداء . فليس من حسن السياسة أن تشجع عدوك عليك باطلاق أسراه ، بينما أهلك وعشيرتك وأتباع دينك يسامون الخسف والعذاب عند هؤلاء الاعداء . والمعاملة بالمثل هنا هى أعدل قانون تستطيع استخدامه ، أو هى القانون الوحيد .

وقد مرت على الاسلام أربعة عشر قرنا ، وتقلبت البشرية فى نظم شتى ؛ ودخلت فى حروب لا نهاية لها ، ثم ها هى ذى فى نهاية المطاف لا تجد قانونا ترجع اليه فى مسألة الاسرى،غير قانون المعاملة بالمثل ! والحرب الكورية الاخيرة ما تزال ماثلة للاذهان ؛ والمشكلة القائمة بشأن أسراها لا تزال موضع النزاع .

واذن فقد كانت ضرورة لا فكاك للاسلام منها ، ما دام العدو مصرا على استرقاق الاسرى ، والاسلام لا سلطان له عليه . ضرورة تظل قائمة حتى يتفق العالم على مبدأ آخر فى معامله هؤلاء الاسرى غير مبدأ الاسترقاق . ومع ذلك فينبغى أن نلاحظ فروقا عميقة بين الاسلام وغيره من النظم فى شأن الحرب وأسرى الحرب .

كانت الحروب — وما تزال — فى غير العالم الاسلامى لا يقصد بها الا الغزو والفتك والاستعباد . كانت تقوم على رغبة أمة فى قهر غيرها من الامم ، وتوسيع رقعتها على حسابها أو لاستغلال مواردها وحرمان أهلها منها ، أو لشهوة شخصية تقوم فى نفس ملك أو قائد حربى ؛ ليرضى غروره الشخصى وينتفش كبرا وخيلاء ، أو لشهوة الانتقام ... أو ما الى ذلك من الاهداف الارضية الهابطة . وكان الاسرى الذين يسترقون لا يسترقون لخلاف فى عقيدة ، ولا لانهم فى مستواهم الخلقى أو النفسى أو الفكرى أقل من آسريهم ، ولكن فقط لانهم غلبوا فى الحرب .

وكذلك لم تكن لهذه الحرب تقاليد تمنع من هتك الاعراض أو تخريب المدن المسالمة أو قتل النساء والاطفال والشيوخ ، وذلك منطقى مع قيامها لغير عقيدة ولا مبدأ ولا هدف رفيع .

فلما جاء الاسلام أبطل ذلك كله ، وحـرم الحروب كلها • الا ان تكون دفعا لعدوان أو مخافة الفتنة من المفرقين : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم،ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين (١) » • « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (٢) » •

وعلى ذلك لا يبدأ المسلمون الحرب العدوانية أبدا ، ولايكونون هم المعتدون أبدا • أما نشر الدعوة فلا يقوم على الحـــرب بادىء ذى بدء ، فهى دعوة سلمية لا تكره أحدا : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى (٣) » • وبقاء اليهود والمسيحيين فى العالم الاسلامى على دينهم حتى اللحظة • برهان قاطع لا يقبل الجدل ولا المماحكة ، يثبت أن الاسلام لم يكره غيره على اعتناقه بقوة السيف (٤) •

فاذا قبل الناس الاسلام ، واهتدوا الى دين الحق • فلا حرب ولا خصومة ، ولا خضوع من أمة لأمة ، ولا تمييز بين مسلم ومسلم على وجه الارض ؛ ولا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى •

فمن أبى الاسلام وأراد أن يحتفظ بعقيدته ــ مع ايمان الاسلام بأنه خير من هذه العقيدة وأقوم سبيلا ــ فله ذلك دون اكراه ولا ضغط ، على أن يدفع الجزية مقابل حماية الاسلام له ، بحيث تسقط الجزية أو ترد ان عجز المسلمون عن حمايته (٥) • فاذا أبوا الاسلام

---

(١) سورة البقرة (١٩٠) •

(٢) سورة الانفال (٣٩) •

(٣) سورة البقرة (٢٥٦) •

(٤) شهد بذلك مسيحى أوربى هو السير ت • و•أرنولد فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) •

(٥) الامثلة على ذلك كثيرة ، منها مثالان وردا فى كتاب أرنولد (الدعوة الى الاسلام) ص ٥٨ : قال : «وكذلك حدث أن ســـجل فى المعاهدة التى أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة: فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا ، وقال : «••• فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك (بتجهيز هرقل لمهاجمته) كتب الى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ماجبى من الجزية من هذه المدن ، وكتب الى الناس يقول : «انما رددنا عليكم أموالكم لإنه بلغنا ماجمع لنـــا مس

والجزية فهم اذن معاندون متبجحون ، لايريدون للدعوة السلمية أن تأخذ طريقها ، وانما يريدون أن يقفوا بالقوة المادية فى طريق النور الجديد يحجبونه عن عيون قوم ربما اهتدوا لو خلى بينهم وبين النور .

عند ذلك فقط يقوم القتال ، ولكنه لايقوم بغير انذار واعلان ، لاعطاء فرصة أخيرة لحقن الدماء ونشر السلم فى ربوع الارض : «وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (١) » .

تلك هى الحرب الاسلامية ، لاتقوم على شهوة الفتح ولا رغبة الاستغلال ولا دخل فيها لغرور قائد حربى أو ملك مستبد ، فهى حرب فى سبيل الله ، وفى سبيل هداية البشرية حين تحقق الوسائل السلمية كلها فى هداية الناس .

ولها مع ذلك تقاليد ، الرسول فى وصيته :

اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا (٢) » .

فلا قتل لغير المحارب الذى يقف بالسلاح ليقاتل المسلمين ، ولا تخريب ولا تدمير ، ولا هتك للأعراض ، ولا اطلاق لشهوة الشر والافساد : «ان الله لايحب المفسدين» .

وقد راعى المسلمون تقاليدهم النبيلة هذه فى كل حروبهم ، حتى فى الحروب الصليبيه الغادرة ، حين انتصروا على عدوهم الذى كان فى جولة سابقة قد انتهك الحرمات واعتدى على المسجد الأقصى فهاجم المحتمين فيه بحمى الله -رب الجميع- وأسال دماءهم فيه أنهارا ، فلم ينتقموا لانفسهم حتى جاءهم النصر وهم يملكون الاذن من الدين ذاته بالمعاملة بالمثل : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى

= الجموع . وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وانالانقدرعلى ذلك . وقد رددنا عليكم ماأخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم أن نصرنا الله عليهم .

(١) سورة الانفال (٦١) .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

عليكم(١) » . ولكنهم ضربوا المثل الأعلى الذى يعجزعنه غير المسلمين فى كل الارض حتى العصر الحديث .

ذلك فارق أساسى فى أهداف الحرب وتقاليدها بين المسلمين وغير المسلمين . وقد كان الاسلام يملك لو أراد ــ والحق يسنده فى ذلك ــ أن يعتبر من يقع فى يديه من الأسرى ، ممن وقفوا بالقـــوة المسلحة يعاندون الهدى ، ويصرون على وثنيتهم الهابطة ، وشركهم المخرف ، قوما ناقصى الآدمية ، ويسترقهم بهذا المعنى وحده . فمـا يصر بشر على هذه الخرافة ــ بعد اذ يرى النور ــ الا أن يكون فى نفسه هبوط أو فى عقله انحراف ، فهو ناقص فى كيانه البشرى ، غـــير جدير بكرامة الآدميين ، وحرية الأحرار من بنى الانسان .

ومع ذلك فلم يلجأ الاسلام الى هـــذا الطريق . ولم يسترق الأسرى لمجرد اعتباره انهم ناقصون فى آدميتهم . وانما لجأ الى المعاملة بالمثل فحسب ، فعلق استرقاقه للأسرى على اتفاق الدول المتحاربة على مبدأ آخرغير الاسترقاق ، ليضمن فقط ألا يقع الأسرى المسلمون فى ذلك الرق بغير مقابل .

ومما هو جدير بالاشارة هنا . أن الآية الوحيدة التى تعرضت لأسرى الحرب : «فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها(١)» لم تذكر الاسترقاق للاسرى ، حتى لايكون هذا تشريعا دائما للبشرية . وانما ذكرت الفداء ، أو اطلاق السراح بلا مقابل ، لان هذا وذاك هما القانونان الدائمان ، اللذان يريد القرآن للبشرية أن تقصر عليهمـا معاملتها للاسرى فى المستقبل القريب أو البعيد . وانما كان أخـذ المسلمين بمبدأ الاسترقاق خضوعا لضرورة قاهرة لافكاك منها ، وليس خضوعا لنص فى التشريع الاسلامى .

ومع هذا فلم يكن تقليد الاسلام الدائم هو استرقاق الأسرى ، فحيثما أمن لم يسترقهم . وقد أطلق الرسول أسرى المشركين فى بدر منا بغير فداء ، واخذ من نصارى نجران جزية ورد اليهم أسراهم ، ليضرب بذلك المثل لما يريد أن تهتدى اليه البشرية فى مستقبلها ، حين تتخلص من وراثاتها الكريهة ، وتستطيع أن تضبط شهواتها .

---

(١) سورة البقرة (١٩٤) .

(٢) سورة محمد (٤) .

وترتفع الى الانسانية حتى فى القتال ، وحينئذ يكون الاسلام أول مرحب وأول مستجيب ·

يضاف الى ذلك أن الأسرى الذين يقعون فى يد الاسلام كانوا يعاملون تلك المعاملة الكريمة التى وصفناها من قبل ، ولا يلقــون الهوان والتعذيب ، وكان يفتح أمامهم باب التحرر حين تسعى نفوسهم اليه وتحتمل تبعاته ، وان كان معظمهم في الواقع لم يكن حرا قبــل أسره ، وانما كان من الرقيق الذى استرقه الفرس والرومان ودفعوه الى قتال المسلمين ·

أما النساء فقد كرمهن ــ حتى في رقهن ــ عما كن يلقين فى غير بلاد الاسلام ، فلم تعد أعراضهن نهبا مباحا لكل طالب على طريقــة البغاء (وكان هذا مصير أسيرات الحروب فى أغلب الأحيان) وانما جعلهن ملكا لصاحبهن فقط ، لايدخل عليهن أحد غيره ، وجعل من حقهن نيل الحرية بالمكاتبة ، كما كانت تحرر من ولدت لسيدها ولدا ، ويحرر معها ولدها ، وكن يلقين من حسن المعاملة ما أوصى به الاسلام ·

* * *

تلك قصة الرق فى الاسلام : صفحة مشرفة في تاريخ البشرية فالاسلام لم يوافق على هذا الرق من حيث المبدأ ، بدليل أنه ســعى الى تحريره بشتى الوسائل ، وجفف منابعه لكى لايتجدد · وانمــا كانت هناك ضرورة لايملك الاسلام الخلاص منها ، لانها لا تتعلق به وحده ، وانما تتعلق بدول وأقوام لاسلطان للاسلام عليهم ، يسترقون الأسرى المسلمين ويسومونهم سوء العذاب ، فلا بد من معاملتهم بالمثل فى مبدأ الاسترقاق على الأقل وان لم يكن فى طريقة معاملة الرقيق ، والمعاملة بالمثل قانون دولى لايزال قائما الى اليوم بعد نزول الاسلام بما يقرب من ألف وأربعمائة عام ·

وظل الاسلام مضطرا الى عدم الغاء الرق حتى يتفق العالم كله على تجفيف هذا المنبع الوحيد الذى يعترف به الاسلام مبررا للرق ، وفى اللحظة التى يحدث فيها هذا الاتفاق يرجع الاسلام الى قاعدته العظمى التى قررها بصراحة كاملة لامواربة فيها : وهى الحرية للجميع والمساواة للجميع ·

أما ماحدث فى بعض العهود الاسلامية من الرق فى غير أسرى الحروب الدينية ، ومن نخاسة واختطاف وشراء لمسلمين لا يجوز استرقاقهم أصلا ،فان نسبته الى الاسلام ليست أصدق ولا أعدل من نسبة ملوك المسلمين اليوم الى الاسلام ، بما يرتكبونه من موبقات وآثام !

وينبغى أن نجعل فى بالنا عدة أمور فى هذا الموضوع ·

الاول : هو تعدد منابع الرق عند الدول الاخرى بغير ضرورة ملجئة سوى شهوة الاستعباد ، من استرقاق أمة لأمة ، وجنس لجنس واسترقاق للفقر ، واسترقاق بالوراثة من الميلاد فى طبقة معينة ، واسترقاق بسبب العمل فى الارض الخ · والغاء هذه المنابع كلها فى الاسلام ، فيما عدا المنبع الواحد الذى لم يكن يملك أمره ، وانما كان خاضعا فيه للضرورة ، وريثما تنتهى هذه الضرورة ·

والثانى : ان أوروبا مع تعدد موارد الرق فيها بغير ضرورة ، لم تلغ الرق حين ألغته متطوعة — ، وكتابهم يعترفون بأن الرق ألغى حين ضعف انتاج الرقيق — لسوء أحوالهم المعيشية وفقدان الرغبة أو القدرة على العمل — بحيث أصبحت تكاليف العبد من اعاشة وحراسة أكثر من انتاجه ! فهى اذن حسبة اقتصادية لاغير ، يحسب فيها المكسب والخسارة ، ولا ظل فيها لاى معنى من المعانى الانسانية التى تشعر بكرامة الجنس البشرى ، فتمنح الرقيق حريته من أجلها ! هذا بالاضافة الى الثورات المتتابعة التى قام بها الرقيق فاستحال معها دوام استرقاقه ·

ومع ذلك فان أوربا حينئذ لم تمنحه الحرية · ولكنها حولته من رقيق للسيد الى رقيق للأرض ، يباع معها ويشترى ، ويخدم فيها ، لايجوز له أن يغادرها ، والا اعتبر آبقا وأعيد اليها بقوة القانون مكبلا بالسلاسل مكويا بالنار · وهذا اللون من الرق هو الذى بقى حتى حرمته الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، أى بعد أن قرر الاسلام مبدأ التحرير بما يزيد على ألف ومائة عام !

والأمر الثالث : أنه لا يجوز أن تخدعنا الأسماء · فقد ألغت الثورة الفرنسية الرقيق فى أوربا ، وألغى لنكولن الرقيق فى أمريكا ثم اتفق العالم على ابطال الرق ·· كل ذلك من الظاهر · والا فأين

هو الرق الذى ألغى ؟ وما اسم مايحدث اليوم فى كل أنحاء العالم ؟ ماسم الذى تصنعه فرنسا فى المغرب الاسلامى وفى الهند الصينية ؟ وما اسم الذى تصنعه أمريكا فى الزنوج ؟ وانجلترا فى الملونين فى جنوب افريقيا ؟ .

أليس الرق فى حقيقته هو تبعية قوم لقوم آخرين ، وحرمان طائفة من البشر من الحقوق المباحة للآخرين ؟ أم هو شىء غير ذلك ؟ وماذا يعنى أن يكون هذا تحت عنوان الرق ، أم تحت عنوان الحرية والاخاء والمساواة ؟ ماذا تجدى العناوين البراقة اذا كانت الحقائق التى وراءها هى أخبث ماعرفته البشرية من الحقائق فى تاريخها الطويل ؟

لقد كان الاسلام صريحا مع نفسه ومع الناس فقال : هذا رق ، وسببه الوحيد هو كذا ، والطريق الى التحرر منه مفتوح ، والطريق الى الغائه كذلك موجود ، ولكن فتحه مرهون باتفاق العالم على عدم استرقاق أسرى الحرب .

أما الحضارة الزائفة التى نعيش اليوم فى أحضانها فلا تجد فى نفسها هذه الصراحة ، فهى تصرف براعتها فى تزييف الحقائق وطلاء اللافتات البراقة . فقتل مئات الألوف فى تونس والجزائر ومراكش لغير شىء سوى أنهم يطالبون بالحرية والكرامة الانسانية وحريتهم فى أن يعيشوا فى بلادهم بلا دخيل ، وأن يتكلموا لغتهم ، ويعتقدوا عقيدتهم ، ولا يخدموا الا أنفسهم ، وحريتهم فى التعامل المباشر مع العالم فى السياسة والاقتصاد .. قتل هؤلاء الأبرياء وحبسهم فى السجون القذرة بلا طعام ولا ماء . وانتهاك أعراضهم والسطو على نسائهم ، وقتلهن بلا مبرر ، وشق بطونهن للتراهن على نوع الجنين .. هذا اسمه فى القرن العشرين حضارة ومدنية ونشر لمبادىء الحرية والاخاء والمساواة . أما المعاملة المثالية الكريمة التى كان يمنحها الاسلام للرقيق قبل ثلاثة عشر قرنا تطوعا منه واكراما للجنس البشرى فى جميع حالاته ، مع اعلانه العملى بأن الرق وضع مؤقت وليس حالة دائمة ، فهذا اسمه تأخر وانحطاط وهمجية .

وحين يضع الأمريكان على فنادقهم ونواديهم لافتات تقول : «للبيض فقط» أو تقول فى وقاحة كريهة «ممنوع دخول السود

«الكلاب» . وحين يفتك جماعة من البيض «المتحضرين» بواحـــد من الملونين فيطرحونه أرضا ، ويضربونه بأحذيتهم حتى يسلم الروح . ورجل البوليس واقف لايتحرك ولايتدخل ، ولا يهم لنجدة أخيه في الوطن ، وفي الدين واللغة ، فضلا عن الاخوة في البشرية . كل ذلك لانه ــ وهو ملون ــ تجرأ فمشى الى جانب فتاة أمريكية بيضاء لا عرض لها ــــ وباذنها لا كرها عنها ــ يكون هذا أقصى ما وصل اليه القرن العشرون من التحضر والارتقاء .

أما حين يتهدد العبد المجوسي عمر بالقتل ، ويفهم عنه عمـــر ذلك ، ثم لايحبسه ولا ينفيه من الارض ، ولا نقول يقتله ، وهو مخلوق ناقص الآدمية حقا لانه يعبد النار ويصر على عبادتها تعصبا منه للباطل بعد أن رأى الحق بعينيه ، فما أشد همجية عمر ، وما أشد ازدراءه لكرامة الجنس البشري لانه قال : «تهددني العبد» ! ثم تركه حرا حتى قتله وهو خليفة المسلمين ، لانه لم يكن يملك عليه سلطانا قبـــل أن يقترف الجريمة .

وقصة الملونين في أفريقيا ، وحرمانهم من حقوقهم البشرية ، وقتلهم أو « اصطيادهم » حسب تعبير الجرائد الانجليزية الوقحة ، لانهم تجرأوا فأحسوا بكرامتهم وطالبوا بحريتهم ، هذا هو العـــدل البريطاني في قمته ، والحضارة الانسانية في أوجها ، والمبـــادىء السامية التي تجيز لاوربا الوصاية على العالم . أما الاسلام فهـــو همجي جدا لانه يسترق أسرى الحرب معاملة بالمثل لا اقـــرارا لمبدأ الرق . وهو متأخر جدا لانه لم يتعلم «اصطياد» البشر والتلهي بقتلهم لانهم سود البشرة ، بل وصل توغله في التأخر والانحطاط أن يقول: «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» .

* * *

أما المرأة فلها حساب آخر :

كان الاسلام قد أباح للسيد أن يكون عنده عدد من الجواري من سبي الحرب[1] يستمتع بهن وحده ، ويتزوج منهن أحيانا اذا

---

(١) بذلك يخرج من دائرة الاسلام كل ماكان في قصور «الخلفاء» والأمراء والأغنياء من الجواري المشتريات من أسواق النخاسة .

شاء • وأوربا تستنكر هذا اليوم ، وتتعفف عن هذه الحيوانية البشعة التى تعتبر الجوارى متاعا مباحا ، وأجسادا لاحرمة لها ولا كرامة ، كل مهمتها فى الحياة اشباع لذة بهيمية بغيضة ، لرجل لا يرتفع عن مستوى الحيوان •

وجريمة الاسلام الحقيقية فى هذا الأمر أنه لم يستطع أن يبيح البغاء ! فقد كانت أسيرات الحرب فى البلاد الاخرى يهوين الى حمأة الرذيلة بحكم أنه لاعائل لهن ، ولان سادتهن لايشعرون نحوهن بحمية العرض ، فيشغلونهن فى هذه المهمة البغيضة ، ويكسبون من هذه التجارة القذرة — تجارة الأعراض • ولكن الاسلام — المتأخر — لم يقبل البغاء ، وحرص على حفظ المجتمع نظيفا من الجريمة ، فقصر هؤلاء الجوارى على سيدهن ، عليه اطعامهن وكسوتهن وحفظهن من الجريمة ، وارضاء حاجتهن الجنسية — عرضا — وهو يقضى حاجته •

ولكن ضمير أوربا لايطيق هذه الحيوانية •• ولذلك أباحت البغاء ومنحته رعاية القانون وحمايته ! وراحت تنشره عامدة فى كل بلد وطئته أقدامها مستعمرة • فما الذى تغير من الرق حين تغير عنوانه ؟ وأين كرامة البغى وهى لاتملك رد طالب — أى طالب — وما يطلبها أحد الا لأقذر معنى يمكن أن تهبط اليه البشرية : دفعة الجسد الخالصة التى لا تلطفها عاطفة ، ولا ترتفع بها روح ؟ وأين من هذه القذارة الحسية والمعنوية ماكان بين السادة والجوارى فى الاسلام ؟

لقد كان الاسلام صريحا مع نفسه ومع الناس ، فقال : هذا رق ، وهؤلاء جوار ، وحدود معاملتهن فى كذا وكذا • ولكنه لم يقل ان هذا هو الوضع الدائم للبشرية ، ولا الوضع الذى يليق بكرامتها فى المستقبل ، وانما هى ضرورة حرب تنتهى حين يتفق الناس على عدم استرقاق أسرى الحرب •

ولكن الحضارة المزيفة لاتجد فى نفسها هذه الصراحة ، فهى لاتسمى البغاء رقا ، وانما تقول عنه : «ضرورات اجتماعية» !

ولماذا هو ضرورة ؟

لان الرجل الأوربى المتحضر لايريد أن يعول أحدا : لا زوجة

ولا أولادا . يريد أن يستمتع دون أن يحتمل تبعة . يريد جسد امرأة يفرغ فيه شحنة الجنس . ولا يعنيه من تكون هذه المرأة ، ولا تعنيه مشاعرها نحوه ولامشاعره نحوها. فهو جسد ينزو كالبهيمة، وهي جسد يتلقى هذه النزوة بلا اختيار ، ويتلقاها لامن واحد بعينه ولكن من أى عابر سبيل .

هذه هي «الضرورة» الاجتماعية التى تبيح استرقاق النساء فى الغرب فى العصر الحديث . وما هى بضرورة لو ارتفع الرجل الأوربى الى مستوى «الانسانية» ولم يجعل لأنانيته كل هذا السلطان عليه .

والدول التى ألغت البغاء فى الغرب المتحضر لم تلغه لان كرامتها أوجعتها ، أو لان مستواها الخلقى والنفسى والروحى قد ارتفع عن الجريمة ، كلا ! ولكن لان الهاويات قد أغنين عن المحترفات ، ولم تعد الدولة فى حاجة الى التدخل !

وبعد ذلك يجد الغرب من التبجح مايعيب به نظام الجوارى فى الاسلام ، ذلك النظام الذى كان قبل ألف وثلثمائة عام - وعلى أنه نظام مؤقت غير مطلوب له الدوام - أكرم بكثير وأنظف بكثير من النظام الذى يقوم اليوم فى القرن العشرين ، وتعتبره المدنية نظاما طبيعيا ، لايستنكره أحد ، ولا يسعى فى تغييره أحد ، ولا يمانع أحد فى أن يظل باقيا الا ماشاء الله !

ولا يقل قائل ان هؤلاء « الهاويات » يتطوعن دون اكراه من أحد ، وهن مالكات لحريتهن الكاملة . فقد كان هناك كثيرون من العبيد يردون الحرية الممنوحة لهم ، ويتطوعون بالعبودية دون اكراه . ولكنا لم نعتبر ذلك مبررا للرق فى الاسلام ولا غير الاسلام. والعبرة بالنظام الذى يدفع الناس بأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية الى قبول الرق أو الوقوع فيه ، ولا شك أن «الحضارة» الاوربية هى التى تدفع الى البغاء ونقره ، سواء كان البغاء الرسمى أو بغاء المتطوعات الهاويات ! .

***

تلك قصة الرق فى أوربا حتى القرن العشرين : رق للرجال

والنساء والامم والاجناس • رق متعدد المنابع متجدد الموارد ، فى غير ضرورة ملجئة كالتى يوجهها الاسلام ، اللهم الا خسة الغرب وهبوطه عن المستوى اللائق لبنى الانسان •

الدكتور على عبد الواحد وافى :

والدكتور على عبد الواحد وافى شخصية متميزة ببحوثها فى مشكلة الرق والرقيق ، ويكاد يكون متخصصا فى دراسة هـــذا النظام « نظام الرق » فهو دكتور فى الآداب وعضو المجمع الدولى لعلم الاجتماع ، وكان رئيسا لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعيـــة بجامعة القاهرة وقد أصدر مؤلفين بالأفرنسية فيها دراسة وافيـــة عن الرقيق • ونحن ننقل هنا ماجاء فى كتابه (حقوق الانسان فى الاسلام) تحت عنوان « الحرية المدنية » ص ١٢٥ وما بعدها •

يقول الدكتور :

«يعنون بالحرية المدنية صفة المرشد المدنى التى تجعل الشخص أهلا لان يتحمل ، الالتزامات ، ويعقد باسمه مختلف العقودالمشروعة من بيع وشراء وهبة ، ووصية ، ورهن ، وزواج • وهلمجرا • ويقابل هذه الحال من الحرية حالة الرق ، وهى التى تجعل الشخص قاصرا من الناحية المدنية ، وتحول بينه وبين مباشرة أى عقد أو القيام بأى التزام ، وتنزع عنه أهلية التملك ، وتجعله هو نفسه مملوكا لغيره وتنزله من بعض النواحى منزلة السلعة •

وقد أخذ كثير من باحثى الفرنجة على الاسلام أنه أباح الرق ، وأن فى هذا وحده هدما لاعظم ركن من أركان الحرية الانســانية • وردنا على هؤلاء يتلخص فى نقطتين :

احداهما : أن الظروف الاجتماعية التى كانت تكتنف العالم فى العصر الذى ظهر فيه الاسلام كانت تحتم على كل شارع حكيم أن يقر الرق فى صورة ما ، وتجعل كل محاولة لالغائه الغاء سريعا مقضيا عليه بالفشل والاخفاق ، وثانيتهما : أن الاسلام لم يقر الرق الا فى صورة تؤدى هى نفسها الى القضاء عليه بالتدريج •

١ ـ ظهر الاسلام فى عصر كان نظـام الرق فيه دعامة ترتكز

عليها جميع نواحي الحياة الاقتصادية ، وتعتمد عليهـــا جميع فروع الانتاج في مختلف أمم العالم . فلم يكن من الاصلاح الاجتماعي في شيء أن يحـــاول مشرع تحريمه تحريمـــا باتا لأول مرة ، لأن محاولة كهذه كان من شأنهـــا أن تعرض أوامر المشرع للمخالفة والامتهان . واذا أتيح لهذا المشرع من وسائل القوة والقهر ما يكفل به ارغام العـــالم على تنفيذ ما آمر به . فانه بذلك يعرض الحياة الاجتماعية لهزة عنيفة ، ويؤدي تشريعه الى اضرار بالغة لا تقل في سوء مغبتها عما تتعرض له حياتنا في العصر الحاضر اذا ألغي بشكل فجائي نظام البنوك أو الشركات المساهمة ، أو حرم اســـتخدام العمال ، وقضى على كل مالك أن يعمـــل بيده ، أو بطل استخدام التجار . فالرقيق كان عماد الحـــالة الاقتصادية في تلك العصور .

٢ ـ لذلك أقر الاسلام الرق ، لكنه أقره في صورة تؤدي هي نفسها الى القضاء عليه بالتدريج بدون أن يحدث ذلك أثرا سيئا في نظام المجتمع الانساني . بل بدون أن يشعر أحد بتغيير في مجرى الحياة والوسيلة التي ارتضاها للوصول الى هذه الغـــاية من أحكم الوسائل وأبلغها أثرا وأصدقها نتيجة ، وهي تتلخص في العمل على تضييق الروافد التي كانت تمد الرق وتغذيه وتكفـــل بقاءه ، وفي توسيع المنافذ التي تؤدي الى العتق والتحرير . وبذلك أصبح الرق أشبه شيء بجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه منابعه التي يستمد منها الماء . وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره الى الجفاف . وبذلك كفل الاسلام القضاء على الرق في صـــورة سليمة هادئة ، وأتاح للعـــالم فترة للانتقال يتخلص فيها شيئا فشيئـــا من هـــذا النظام .

(أ) كانت روافد الرق في العصر الذي ظهر فيه الاســـلام كثيرة متنوعة أهمها سبعة روافد :

أحدها ـ الحـــرب بجميع أنواعها : فكان الاسير في حرب أهلية أو خارجية لا يخرج مصـــيره عن القتل أو الاسترقاق . وثانيها ـ القرصنة والخطف والسبي ، فكان ضحايا هذه الاعتداءات يعاملون معاملة أسرى الحرب فيفرض عليهم الرق ، وثالثها ـ ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا ، فكان يحـــكم على مرتكب واحدة منها بالرق لمصلحة الدولة أو لمصلحة المجني عليه أو أسرته ،

ورابعها ـ عجز المدين عن دفع دينه ، فكان يحكم عليه بالرق لمصلحة دائنه ، وخامسها ـ سلطة الوالد على أولاده ، فكان يباح له أن يبيعهم بيع الأرقاء ، وسادسها ـ سلطة الشخص على نفسه لقاء ثمن معين (١) وسابعها ـ تناسل الأرقاء ، فكان ولد الأمة يولد رقيقا ولو كان أبوه حرا • وكانت هذه الروافد تقذف كل يوم فى تيار الرق بآلاف مؤلفة من الأنفس حتى أن عدد الرقيق كان يزيد فى كثير من الامم على عدد الأحرار زيادة كبيرة •

جاء الاسلام وروافد الرق على هذه الكثرة والغزارة . فحرمها جميعا ما عدا رافدين اثنين وهما رق الوراثة وهو الذى يفرض على من تلده الأمة (٢) ، ورق الحرب وهو الذى يفرض على الأسرى . وعمد الى هذين الرافدين نفسيهما فقيدهما بقيود تكفل نضوب معينها بعد أمد غير طويل •

فمن أهم القيود التى قيد بها رق الوراثة أنه استثنى منه أولاد الجوارى من أسيادهن فقرر أن من تأتى به الجارية من سيدها يولد حرا اذا اعترف به السيد • واذا لاحظنا أن الغالب فى أولاد الجوارى أن يكونوا من مواليهن أنفسهم ؛ لأن الاغنياء ما كانوا يقتنون الجوارى الا لمتعتهم الخاصة ، تبين لنا أن هذا القيد الذى قيد به الاسلام رق الوراثة كفيل بالعمل على جفاف هذا الرفد نفسه ونضوب معينه بعد أمد غير طويل •

ومن أهم القيود التى قيد بها المورد الثانى وهو رق الحرب . أنه استثنى منه الذين يؤسرون فى حرب بين طائفتين من المسلمين فهؤلاء لا يضرب عليهم الرق • سواء أكانوا من الطائفة الباغية أم من الطائفة الاخرى • أما الحروب الاخرى ـ وهى التى تكون بين المسلمين وغيرهم ـ فلا تؤدى الى رق من يؤسرون فيها الا بشروط كثيرة • من أهمها أن تكون الحرب شرعية أى يجيزها الاسلام ، وتنفذ وفق قوانينه ، ويعلنها خليفة المسلمين • ولا يكاد الاسلام

---

(١) قد سبق أن قلنا ان هذه الاسباب كان سببها الفساد الاقتصادى واباحة العدوان وقد أصلح الاسلام الفساد الاقتصادى وحرم العدوان • « المؤلف »

(٢) وهذا ما كان راسبا من زمن الجاهلية • « المؤلف »

يبيح الحرب الافى ثلاث حالات : حالة الدفاع قال الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . وحالة نكث العهد والكيد للدين الاسلامى ، قال تعالى : « وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون » . أو حيث تقتضي ذلك اعتبارات تتعلق بسلامة الدولة والقضاء على الفتنة قال تعالى : «وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

ولم تتجاوز حروب الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الحالات سواء ذلك في حروبه مع العرب وحروبه مع اليهود . وحروبه مع الروم . فاذا لم تكن الحروب مشروعة بأن أعلنت فى غير الظروف السابقة ، أو لم تنفذ وفق المناهج التى وضعها الاسلام ، أو لم تكن معلنة من قبل الخليفة فانها لا تؤدى الى رق من يؤسرون فيها . وحتى مع توافر هذه الشروط فان الاسلام لا يجعل الرق نتيجة لأزمة للاسر بل يبيح للامام أن يمن على الأسرى بدون مقابل ، أو يطلق سراحهم فى نظير فدية ، أو عمل يؤدونه ، أو فى نظير أسرى من المسلمين عند العدو ، أو فى نظير جزية تفرض على رءوسهم . بل ان القرآن تحاشى أن يذكر الرق من بين الأمور التى يباح للامام أن يعامل بها الأسرى ، واقتصر على ذكر المن والفداء قال تعالى : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) .

ومن هذا يظهر أن الاسلام قد سلك حيال الرق عن طريق الأسر المسلك نفسه الذى سلكه حيال الرق الوراثى ، فقد قيده بقيود تكفل القضاء عليه ، فهو لم يجعله نتيجة لأزمة للحرب بل جعله مسلكا من المسالك التى يصح أن يتخذها الامام ، ولم يرغب فيه ، بل رغب فى غيره ، وفضله عليه ، على أنه لم يجز الالتجاء اليه الا بشروط لا تكاد تتوافر الا فى الحروب التى اضطر اليها الاسلام فى مبدأ ظهوره . أما بعد استقراره وتنظيم العلاقات بين أممه والأمم اخرى ، فيندر أن تتوافر هذه الشروط . ومعنى هذا أن الاسلام لم يبح هذا النوع من الرق الا لأجل معلوم (١) .

---

(١) وكما قلنا انه لم يكن الا اجراء مؤقتا اتخذه الاسلام لظروف خاصة .

هذا ما فعله الاسلام حيال روافد الرق : قضى عليها جميعا ما عدا رافدين اثنين ، وقيد هذين الرافدين بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل •

(ب) وأبلغ من هـذا كله في الدلالة على حرص الاسلام على مبادىء الحرية هو ماسلكه حيال العتق وتحرير الارقاء •

كانت منافذ العتق قبل الاسلام ضيقة كل الضيق ، فلم تكن له الا سبيل واحدة وهى رغبة المولى فى تحرير عبده ، فبدون هذه الرغبة كان مقضيا على الرقيق أن يظل هو وذريته راسفين فى أغلال العبودية أبدا الآبدين •

هذا الى أن معظم الشرائع كانت تحظر على السيد أن يعتق عبده الا فى حالات خاصة وبشروط قاسية وبعد اجراءات قضائية ودينية معقدة كل التعقيد •

وبعضها كان يفرض على السيد فضلا عن هـذا كله غرامة مالية كبيرة يدفعهـا للدولة ، لان العتق كان يعد تضييعا لحق من حقوقها •

جاء الاسلام وهذه حال العتق فى ضيق منافذه وقسوة شروطه فحطم كل هذه القيود ، وفتح للارقاء أبواب الحرية على مصاريعها ، وأتاح لتحريرهم آلافا من الفرص ، وتلمس للعتـق من الاسباب ما يكفى بعضه للقضاء على نظام الرق نفسه بعد أمد غير طويل •

فجعل الاسلام من أسباب العتق أن يجرى على لسان السيد فى أى صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده سـواء أكان قاصدا معنى اللفظ أم لم يكن قاصدا له بأن جرى خطأ على لسانه ، وسواء أكان جادا فى اصداره أم كان هاذلا ، وسواء أكان مختارا أم كان مكرها عليه ، وسواء أكان فى حالة عادية أم فاقدا لرشده بفعـل الخمر أو غيرها من المحرمات • ومن هذا يظهر أن الاسلام يتلمس أو هى الاسباب لتحرير الأرقاء •

ومن أسباب العتق كذلك أن يجرى على لسان السيد فى أية صورة لفظ يفيد (التدبير) أى يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده •

فبمجرد أن تصدر من السيد عبارة تفيد هذا المعنى تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده .

وقد اتخذ الاسلام جميع وسائل الحيطة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد . فحظر على السيد فى أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر أو يرهنه أو يهبه أو يتصرف فيه تصرفا ينقل ملكيته لشخص آخر .

واذا كان (المدبر) جارية فان حكمها يسرى على ماتلده بعد تدبيرها ، فتعتق معها بعد وفاة سيدها ، أقر ذلك ورثته أم لم يقروه .

ومن أسباب العتق فى الاسلام كذلك أن يأتى السيد من جاريته بولد يعترف ببنوته . ففى هذه الحالة يعتبر الولد حرا من يوم ولادته ، وتصبح الام نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها . وقد اتخذ الاسلام لضمان الحرية لهذا النوع من الاماء الاحتياطات نفسها التى اتخذها حيال النوع السابق ، واذا جاءت أم الولد (وهذا هو الاسم الشرعى الذى يطلقه الفقهاء على كل جارية من هذا النوع) بعد ذلك بولد من غير سيدها يسرى حكمها عليه فيعتق بعد وفاة السيد .

ومن أسباب العتق فى الاسلام كذلك أن يكاتب السيد عبده أى يتفق معه على أن يعتقه اذا دفع مبلغا من المال . وقد ذلل الاسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال فى صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على الحرية . فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود حتى يستطيعوا أن يجمعوا المبالغ التى كوتبوا عليها فتحرر رقابهم . وحث جميع المسلمين على مساعدتهم ، والتصدق عليهم فقال تعالى : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) (١) .

ولم يكتف الاسلام بذلك بل خصص جزءا من ميزانية الدولة لمساعدتهم من الرق كما أشرنا الى ذلك فيما سبق ، ويدل ظاهر

---

(١) النور آية ٣٢ .

القرآن فى الآية التى ذكرناها على أنه لا يصح للسيد أن يمتنع عن قبول المكاتبة متى أبدى العبد رغبته فى تحرير نفسه لقاء مبلغ يدفعه • وقد سأل ابن جريج عطاء بن رباح فقال : (أواجب على اذا طلب منى مملوكى الكتابة أن أكاتبه ؟) فأجابه بقوله : (ما أراه الا واجبا) واستدل بالآية الكريمة السابقة •

واذا كان المكاتب جارية سرى حكمها على من تلده بعد مكاتبتها ، فيعتق معها بدون عوض بمجرد أدائها المبلغ الذى تعاقدت مع سيدها عليه سواء أرضى السيد بذلك أم لم يرض به • وفضلا عن هذا كله فقد عمد الاسلام الى طائفة كبيرة من الجرائم والاخطار التى يكثر حدوثها • وجعل كفارتها تحرير الارقاء فجعله تكفيرا للقتل الناشىء عن خطأ وما فى حكمه قال تعالى : (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) (١)

وللافطار فى رمضان ، وللحنث فى اليمين • قال تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم) (٢) •

وجعله وسيلة لمراجعة المرأة اذا أوقع عليها زوجها ظهارا أى قال لها : (أنت على كظهر أمى) أو عبارة من هذا القبيل قال تعالى : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) (٣) •

وتقرر الشريعة الغراء أن من وجبت عليه كفارة من هذه الكفارات ، ولم يكن يملك عبدا وجب عليه أن يشترى عبدا ويعتقه متى كان قادرا على ذلك (٤) •

---

(١) سورة النساء آية ٩٢ •

(٢) المائدة آية ٨٩

(٣) المجادلة آية ٣

(٤) من هذا نعلم أن كل هذه التشريعات لم تكن الا لرواسب الرقيق من زمن الجاهلية حتى يتحرر كل ما كان موجودا من الرقيق بهذه الوسائل • أما اذا خلا المجتمع من الرقيق فتكون الكفارة شيئا آخر • مما يتطلبه المجتمع الانسانى من اصلاح • (المؤلف)

وبجانب هذا كله حبب الاسلام الى الناس تحرير الرقيــق. وجعله أكبر قربة يتقرب بها المؤمن الى الله تعــالى حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم ليضرب به المثل فى جلال العمل وعظم الأجر ، فيقول : « من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة أو يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة » .

ولم يكتف الاسلام بهــذا كله بل خصص كذلك سهما من مال الزكاة أى جزءا من ميزانية الدولة فى الانفاق على تحــرير الارقاء وعتقهم ومساعدة من يحتاج منهم الى مساعدة فى سبيل تحريره كالمكاتبين ومن اليهم فقال تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب » (١) أى فى فك قيود الرق عن رقاب الارقاء .

والمقصود بالصدقات فى الآية الزكاة التى كان يتألف منها أهم جزء من موارد الدولة .

ومن هذا يظهر صدق ما قلناه من أن الاسلام لم يقر الرق الا فى صورة تؤدى هى نفسها الى القضاء عليه بالتدريج . وذلك بأن ضيق روافده . لم يسمح ببقائهــا الا لأجل معلوم . ووسع منافذ العتق الى أبعد الحدود ، وبذلك أصبح الرق كما قلنــا أشبه شيء بجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه موارده التى يستمد منهــا الماء . وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره الى الجفاف .

الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجه :

وهذا أحد علماء الازهر المناضلين الذين وقفوا جهودهم لخدمة العدل والحرية وبيان مزايا الاسلام وعدالته . وللاستاذ خفاجه مؤلفات لا تحصى فى هذا السبيل . هذا الاستاذ الفاضل يقول فى كتابه (الاسلام دين الانسانية الخالد) تحت عنوان (الاسلام ونظام الرق) ص ٢٨٨ وما بعدها :

« كان الرق ذائعا قبل الرسالة المحمــدية فى كل مكان ، وكانت أسبابه متعــددة كثيرة . فهناك أسرى الحــروب الأرقاء

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠

والارقاء بالسبى والخطف واللصوصية ، والارقاء بسبب اجرامهم ، والرق بسبب الدين ، والرقيق بالوراثة ، وكان يجوز للانسان أن يبيع نفسه وأولاده على أنهم أرقاء ، وكان بعض الاغنياء يعدون الفلاحين فى مزارعهم رقيقا مملوكا لهم ، وبعض المجتمعات تعد المرأة في منزلة الرجل المملوك ٠

وقد ظهر الاسترقاق منذ العصور القديمة ، وألفه بكثرة المصريون القدامى ، والبابليون والبراهمة ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، وأقره أفلاطون ، وأرسطو الذى ذهب الى أن أرواحهم غير مخلدة كأرواح الحيوانات ٠

واعتبرته الديانة المسيحية شرعيا ، واستمر المسيحيون على تلك الشريعة ، وكان الاوربيون يسترقون سكان أمريكا - بعد كشفها - ويعاملونهم أسوأ المعاملة ٠

أما الاسلام فقد حرم شتى أنواع الرق عدا الرق بسبب الاسر فى حرب اسلامية عامة بين المسلمين والمشركين ، وما عدا الرق بسبب الوارثة والتعامل ٠

ومع ذلك فقد قيد الاسلام - بعد ذلك - نظام الرق بقيود شديدة فجعل المملوكة بسبب الوارثة يولد ابنها من سيدها حرا اذا ألحقه بنسبه ، وتنال هى حريتها بعد وفاة السيد وجعل الرق فى الحرب قاصرا على الحرب فى سبيل الدين ، الحرب التى تحدث بين المسلمين والمشركين ، أو المسلمين وأهل الكتاب الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ، وهى الحرب التى تكون للدفاع عن الدين من اعتداء معتد أثيم ، أو مكيدة من دولة كافرة ، أو للحنث بالعهود والالتزامات ، والتى ينص القرآن الكريم على مشروعيتها بقوله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ٠
نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا
الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) ٠ وجعل للحاكم الحق فى أن يمن على الاسرى ، وفى قبول الفداء (١) ٠

---

(١) هذه القاعدة القرآنية فيما يختص بأسرى الحرب (فأمامنا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) ٠ أما ابقاء الاسرى فليس الا للمعاملة بالمثل فقط كأن نفتدى أسرانا من أيدى أعدائنا بالاسرى الذين هم فى أيدينا ٠ وليس فى القرآن رق ولا استرقاق ٠

(المؤلف)

ثم فتح الاسلام الابواب للحرية والعتق ، وحث على تحرير الأرقاء بكل طريق وسبيل ، وجعله مغنيا عن كثير من الاخطاء وفرض على الدولة أن تقوم بتحرير الأرقاء من أموال الزكاة الخ » ٠

ويقول فى مكان آخر من كتابه ٠ تحت عنوان (حقوق الانسان فى الاسلام) ص ٢٣١ ٠

«كفل الاسلام حريات الأفراد والجماعات ، وناوأ الاستعباد البشرى في جميع صوره وشتى مظاهره حتى قال عمر فيما بعد لأحد ولاته وقد اعتدى على رجل من الرعية : (كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ؟ »

الاستاذ عبد الرحمن عزام

وهذا أحد اعلام المسلمين وكان أميناً للجامعة العربية . يقول فى كتابه الرسالة الخالدة فى صفحة (٨٧) وما بعدها تحت عنوان (أدب الحرب) :

« أجازت الدعوة المحمدية الحرب فى أضيق نطاق ، كما تغاضت عن الرق لانه كان أيضا نظاما عالميا ، وعملت تدريجيا على منع الحرب ، ومنع الرق بأساليبها المختلفة ، وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير المن أو الفداء ، فصار تشريعها العام بالنسبة للأسير مانعا للرق ٠ وبالحض بجميع الوسائل على تحرير الرقيق ، وتخصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب وبالاحسان اليه وفقا لآداب خاصة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الورع ، قاومت الدعوة المحمدية الرق مقاومة كانت بالتدريج أفعل فىتهيئة الضمير البشرى للقضاء عليه من المفاجأة بالتحريم البات .

كذلك الحرب . جاءت الدعوة المخمدية والقتال نظام عام متأصل فى نفوس البشر وفى حياتهم الاجتماعية فلم يبدأ بتحريمها، ولكنه حصرها فى دفع العدوان ، ونصرة المظلوم فحدد أغراضها ، ثم أمر بوقفها بمجرد جنوح الخصم الى السلم ، وأنهاها بالعهود والمواثيق التى لها حرمة الايمان ، حتى جعل حق الميثاق فوق صلة الاسلام ، فأحاط الحرب بحدود ونظم وأسباب ، وأغراض ، وعهود ، وعرف ، فى أثناء القتال مما يقلل وقوعها ، ويخفف من

ويلها . ولو ان المسلمين وفقوا فى هذه كما وفقت الدعوة المحمدية فى مقاومة الرق لشمل العالم سلام دائم كما شمله اليوم النفور من الرق . وانا لنرجو أن تدرك هدفها فىالعصر الآتى وقد طغى شر الحرب الى درجة غير مسبوقة ، ولا يزال أمام العالم مجـــال اذا اهتدى بهدى الاسلام » .

ثم يستطر الاستاذ عبد الرحمن فى هذا الموضـــوع حتى يقول :

« وليس فى القرآن الكريم نص واحد على قتل الاسير ولا على استرقاقه ، ولم يرو عن رســول الله صــلى عليه وسلم أنه استرق أسيرا ، والنص الصريح هـــو تخيير الامام بين أمرين لا ثالث لهما : المن والفداء . يقول تعالى : « حتى اذا اثخنتموهـــم فشــــدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحــرب أوزارها » .

الاستاذ عباس محمود العقاد :

وهذا عملاق يربض على قمة الفكر العربى يقول فى كتابه (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه) صفحة ٢١٥ وما بعدها تحت عنوان (الرق) . .

« شرع الاســـلام العتق ولم يشرع الرق اذ كان الرقيق مشروعا قبل الاسلام فى القوانين الوضعية والدينية بجميــــع انواعه : رق الاسر فىالحروب . ورق السبى فىغارات القبائل بعضها على بعض ،ورق البيع والشراء ، ومنه رق الاستدانة أو الوفاء بالديون .

وكانت اليهودية تبيحه ، ونشأت المسيحية وهو مباح فلم تحرمه ، ولم تنظر الى تحريمه فى المستقبل ، وأمر بولس الرسول العبيد باطاعة ساداتهم كما يطيعون المسيح ، فقـــال فى رسالته الى اهل افسس : « أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجســـد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ،عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أو حرا » .

واوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية ، واوجبها آباء الكنيسة ، لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الاعظم ، وأضاف القديس الفيلسوف توما الاكويني رأى الفلسفة الى رأى الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرق بل زكاه لانه على رأى أستاذه أرسطو حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الايمان أن يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب » .

وبعد ان يستطرد الاستاذ العقاد فى الموضوع ، ويتحدث عن مذهب أرسطو في الرق ومذهب أفلاطون ، وبعد أن يوجز تاريخ الرق فى شتى البلاد وشتى العصور يقول :

« ونحن نحب ان نلخص ماصنعه الاسلام فى هذه المسألة قبل أربعة عشر قرنا في بضع كلمات . أنه حرم الرق جميعا ، ولم يبح منه الا ما هو مباح الى الآن ، وفحوى ذلك أنه قد صنع خير مايطلب منه أن يصنع ، وأن الامم الانسانية لم تأت بجديد فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الاسلام قبل الف ونيف وثلثمائة عام .

فالذى أباحه الاسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر الى الآن .

لأن هذه الامم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الاسر واستبقاء الاسرى الى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الاسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة .

وهذا هو كل ما أباحه الاسلام من الرق أو من الاسر على التعبير الصحيح .

وغاية ما هنالك من فرق بين الماضى قبل اربعة عشر قرنا ، وبين الحاضر فى القرن العشرين ، أن الدول فى عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الاسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة والتعويض . أما فى عصر الدعوة الاسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين . فمن وقع منهم فى الاسر بقى حتى يفتدى بعمله أو بماله اذا سمح له الآسرون بالفداء .

فماذا لو أن الدول العصرية بقيت على خطة الدول فى القرن السادس للميلاد ؟.

ماذا لو أن الحروب اليوم انتهت كما كانت تنتهى فى عصر الدعوة الاسلامية بغير اتفاق على تبادل الاسرى ، أو على افتكاكهم من الاسر بالتعويض والغرامة ؟

كانت حالة الاسرى اليوم تشبه حالة الاسرى قبل أربعة عشر قرنا فىحقوق العمل والحرية والتمتع بالمزايا الاجتماعية ، وكان كل أسير يظل فى موطن أسره رقيقا مسخرا فى الخدمة العامة أو الخاصة محروما من المساواة فى حقوق المواطنة بينه وبين الامة الغالبة .

حالة كحالة الرق التى سمح الاسلام على كره واضطرار .

ولكن الاسلام لم يقنع بها فى ابان دعوته واضاف الى شريعته فى الرق نوافل وشروطا تسبق الشريعة الدولية بأكثر من ألف سنة ، فاذا كانت الشريعة الدولية لم تعرف الدولة فى فكاك رعاياها من الاسر ، فقد سبق الاسلام الى فرض هذا الواجب على الدولة ، فجعل من مصارف الزكاة انفاقها « فى الرقاب » أى فكاك الاسرى ، وأن يحسب للاسرى حق من الفىء والغنيمة كحق غيرهم من المقاتلين .

واذا كان ارتباط الاسرى ضربة لازب فى الحروب الحديثة ، فالاسلام لم يجعله حتما مقضيا فى جميع الحروب ، وحرص على التخفيف من شدته ماتيسر التخفيف منه ، وجعل المن فى التسريح أفضل الخطتين : « فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » (سورة محمد) .

وحث المسلمين على قبول الفدية من الاسير أو من أوليائه .

« والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (سورة النور)

وقد كثرت وصايا النبى عليه السلام بالأرقاء فقال ـ فى بعض الاحاديث ـ : « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وكانت من آخر وصاياه قبل انتقاله الى الرفيق الاعلى وصيته « بالصلاة وما ملكت أيمانكم » .

ونهى المسلمين أن يتكلم أحد عما ملك فيقول : عبدى وأمتى، وانما يذكرهم فيقول : فتاى وفتاتى كما يذكر أبناءه وبناته ، وكان عليه السلام يعلم صحابته بالقدوة فى معاملة الرقيق . كما يعلمهم بالفريضة والوصية ، فكان يتورع عن تأديب وصيفته ضربا بالسواك ، وقال لوصيفة أرسلها فأبطأت فى الطريق : « لولا خوف القصاص لاوجعتك بهذا السواك » .

ومن الوسائل الفردية التى تحرى بها الاسلام تعميم العتق ، وتعجيل فكاك الاسرى أنه جعل العتق كفارة عن كثير من الذنوب كالقتل الخطأ ، والحنث باليمين ، ومخالفة قسم الظهار .

***

«ومن قتل مؤمنا خطأ ، فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وانه كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » (سورة النساء)

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » (سورة المائدة)

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » . (سورة المجادلة)

***

ويحسب من الرذائل المأخوذة على الانسان السىء أنه لا يقتحم هذه العقبة ،أو لا ينهض بهذه الفدية المؤكدة :

« فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة » . (سورة البلد)

***

فالعتق اذن هو الذى شرعه الاسلام فى أمر الرق وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده مشروعا فحرمه جميعا ، ولم يبح ماهو مباح الى اليوم فى نظام الاسرى وتسخيرهم فى أعمال من

يأسرونهم من المتقاتلين ، وسبق القوانين الدولية بتقريره التزام الدولة واجب السعي فى اطلاق أسراها واعتاقهم بالفداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة الى الأفراد من مالكي الارقاء بعد وفاء الدولة بذمتها .

ولا يقال هنا : انه عمل كثير او قليل بل يقال انه العمل الوحيد الذى أستطيع فى محاربة نظام الرق ، ولم تستطع أمم الانسانية ما هو خير منه فى علاج هذه المسألة الى الآن .

***

اى شفاعة كانت لأولئك المساكين المنسيين فى عصر يصفونه بحق — فى تاريخ العالم — بأنه عصر الجهالة والظلمات ؟

لقد كانوا — على كثرتهم أو قلتهم — أهون شأنا أن يحفل بهم صاحب شريعة أو ولاية ، ولم يبلغ من مسألتهم فى جزيرة العرب ولا فى بلد من بلاد العالم أن تسمى مشكلة تلح على ولاة الأمر ان ينظروا فى حلها بما يرضى العبيد ، أو بما يرضى السادة المتحكمين فيهم . كانت مسألتهم من المسائل المفروغ منها أو من مسائل العادة التى يتقبلها الناس على علاتها ، ولا يستغربون منها شيئا يدعوهم الى تعديلها بل الى الكلام فيها . فاذا بالاسلام يملى على المجتمع حلا كحل الظافر المنتصر فى كفاح يسام مغلوبه مالم يكن ليرضاه باختياره ! واذا بالنظام العريق فى أمم الحضارة بقية من بقايا الامس رهينة بيومها الموعود .

شأن الأرقاء فى الجزيرة العربية أهون يومئذ من أن يدعو ولاة الامر الى عناية به على قسر أو على اختيار .

وشأن الاسرى فى جدول الدول يومئذ كشأن الطريدة من الحيوان لا تسلم من التمزيق الا لتغنى غناء المطيعة المسخرة فى غير رحمة ولا مبالاة بحساب ، وشرائع الدين — كشرائع العرف — قدوة لا قياس عليها ما شرعه الاسلام بغير سابقة فى أمر الاسرى ولا فى امر الارقاء .

شريعة العهد القديم كما نص عليها الاصحاح العشرون من كتاب التثنية تقول للمقاتل المؤمن بها :

« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك . واذا لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبقي منها نسمة ما بل تحرمها تحريما .. »

واقسى من هذا الجزاء جزاء المدن التي ينجم فيها ناجم بالدعوة الى غير اله اسرائيل فانها كما جاء في الاصحاح الثالث عشر من كتاب التثنية .

« فضربا تضرب بحد السيف ، وتحرم كل ما فيها مع بهائمها بحد السيف تجمع كل أمتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار .. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب الهك فتكون تلا الى الابد لا تبنى بعده » .

فالقدوة في حروب الدين ، وحروب الفتح تغرى بالقسوة ، ولا تغري بالعفو والرحمة . وأحرى بعرب الجاهلية ان يكونوا في قسوة بني اسرائيل أو أشد منهم قسوة : لانهم أهل بادية مثلهم (يدهم على كل انسان ويد كل انسان عليهم) كما قيل عنهم في العهد القديم .. فاذا عللت وصايا الرق في الاسلام بالعلل الطبيعية التي تسيغها عقول منكريه ، فماذا يقول الذين ينكرون الدعوة الاسلامية تعصبا لدين آخر وماذا يقول الذين ينكرونها من الجاحدين للأديان ؟

يقول المنكرون المتعصبون لدين غير الاسلام ، ان الدعوة برمتها تلفيق رجل دجال . ولا ندرى كيف تسيغ عقولهم أن يكون الرسول الدجال أرفع أدبا وأشرف خلقا وأبر بالانسانية الضعيفة من الرسل الصادقين المصدقين .

ويقول المنكرون من انصار العلل الطبيعية ان الدعوة الاسلامية وليدة البلاد العربية خرجت من أطواء عقائدها وتقاليدها ومأثوراتها .

ولا ندرى كيف يكون الابهام والغموض اذا كان هذا هو التعليل والتفسير • فاننا لا نقول شيئا ترضاه العقول وتستريح اليه اذا قلنا ان البيئة العربية جاءت بنقيض المنتظر منهـا ونقيض المنتظر من العالم حواليها .

ان تصديق أعجب الخوارق لأجدر بعقول الفريقين فى قبـول هذا اللغو الذى صدقوه ، واطمأنوا اليه • ونحن أيضا نريد للدعوة الاسلامية سببها المعقول ، فلا نرى تناقضا بين هذا السبب وبين الواقع الذى لا غرابة فيه الا اذا أوجبنا نحن على عقولنـا أن نستغربه متعسفين ، فالغريب عندنا أن يأتى رجل دجال بما لم تأت به أرفع الحضارات والديانات من قبله ، والغريب عندنا أن يكون محمد مبعوثا بارادة الامة العربية وهى ما هى فى أيام الجاهلية .

أما الواقع الموافق للعقل ،ولا مناقضـة فيه لنواميس الكون فهو أن يخلق الله انسانا كاملا يلهمه الحق والرشد ، ويعينه الى الهداية عليهما بعمل يستطيعه ويستطيع الناس ان يفهموه ـ متى حدث ـ كما يفهمون جلائل الاعمـال ، الا أنهم لا يستطيعون أن يتوقعوه اذا قصروه على المألوف المعهود فى سياق التاريخ .

وهذا تفسيرنا لوصايا الرق فى الاسلام ترتضيه عقولنا ، وتقول عن يقين انه أقرب الى العقل من معجزة الدجل ومعجزة النقائض المستحيلة .

ونحسب أن المكابرة تقصر عن الذهاب الى الأمد الذى يدفعها اليه من لا يفرقون بين الدجل والصدق ، أو لا يفرقون بين الواقع والمستحيل .

***

وتنطوى القرون وينكشف الزمن عن أزمة الرق الـكبرى فى التاريخ الحديث .

ان وصايا الاسـلام فى مسألة الرق خولفت كثيرا وكان من مخالفيها كثير من المسلمين ، ولكن الاسلام ـ على الرغم من هذه المخالفة المنكرة ـ لا يضيره ولا يغض منه فضاء التجربة

العملية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الارقاء ، وجناية الآخرين من أتباع الأديان الكتابية .

فالقارة الافريقية ــ فى بلاد السود ــ مفتوحة امام أبناء السواحل المجاورة لها منذ مئات السنين ، ولم تفتح للنخاسين من الغرب الا بعد اتصال الملاحة على ساحل البحر الاطلس فى العالم القديم والعالم الجديد .

وفى أقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغربيون جموعا من العبيد السود تبلغ عدد الباقين من ذريتهم ــ بعد القتل والاضطهاد ــ نحو خمسة عشر مليونا فى الامريكتين : عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسين فى القارات الثلاث منذ أكثر من الف سنة ، وهو فارق جسيم بحساب الارقاء يكفى للابانة عن الهاوية السحيقة فى التجربة العملية بين النخاسين ، ولكنه فارق هين الى جانب الفارق فى حظوظ أولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد . فان فى الامريكتين الى اليوم آمة من السود معزولة بأنسابها وحظوظها وحقوقها العملية . وليس فى بلد من بلاد الشرق أمة من هذا القبيل ، لأن الاسود الذى ينتقل اليها يحسب من أهلها بعد جيل واحد : له ما لهم وعليه ماعليهم بغير حاجة الى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير .

ويقول الاستاذ العقاد فى كتابه (المراة فى القرآن الكريم) ص ١٧٧ وما بعدها :

« والنساء المملوكات اقدم فى التاريخ من الرجال المملوكين ، فقد أوشك الزواج فى كثير من القبائل البدائية أن يكون كله سبيا واغتصابا من نساء القبائل الاخرى ، ولم تدع الحاجة قديما الى استرقاق الرجال الا بعد وجود الاعمال التى توكل الى الاسرى ، ويترفع عنها المقاتلون الاحرار . فكان استرقاق الاسرى ثقلا على مالك الرقيق يتحاماه أو يتخلص منه بقتله ، وكانت المرأة تقتنى للمعاشرة أو لخدمة البيت والمرعى ، وهى خدمة سبقت ما يستخدم فيه الرجال من الصناعات . ومطالب المعاش .

وتعتبر قضية الاماء والسرارى جزءا من قضية الرق على عمومه لولا أن المرأة المستعبدة تنفرد بمشكلاتها التى سبقت

مشكلات الرق فى المجتمعات البدائية ، لان سبى النساء أقدم من تسخير الرجال فى العبودية ، ولأن مشكلات الاماء على اتصال وثيق بمشكلة المرأة فىبيتها ، وفى بيئتها الاجتماعية ، ولم تكن حقوق الزوجات الحرائر فى القدم تفضل كثيرا نصيب الاماء المستعبدات .

ومن وجوه الخلاف بين رق المرأة ، ورق الرجل ان العتق بر كبير بالانسان الذىسلبت حريته ، وهانت علىالناسكرامته ، ولكن العتق لا يؤول بالجارية الى حرية تغبط عليها ، وهى بلا عائل ولا زوج ، وربما نقلها العتق من العبودية لسيد واحد الى العبودية لكل سيد تأوى اليه ، ولم يكفل لها رزقا ولا عملا اكرم من أعمال العبيد المسخرين بغير حرية لها ولا اختيار .

وقد نظرت شريعة القرآن الكريم الى الفارق بين الرجل والمرأة فى امر العتق فعملت على نقل النساء المملوكات من رابطة العبودية الى رابطة الزوجية ، وأمرت المسلمين بتزويجهن والبر بهن :

« وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكون فقراء يغنهم الله من فضله » (سورة النور) .

وفضلت الزواج بالجارية المملوكة على الزواج بسليلة البيوت من المشركات ولو حسن مرآها فى العين :

« ... ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم »
(سورة البقرة)

وفرضت لهن حقوقهن كما فرضت الحقوق للأزواج :

« قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم ، وما ملكت أيمانهم »

(سورة الأحزاب)

وجعلت اصحاب المال ومن يملكونهم سواء فيما عندهم من رزق الله .

« فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء » . (سورة النحل)

وحرص الاسلام على البر بهن فى عواطفهن واحساسهن ، كما حرص على البر بهن فى أرزاقهن ومعيشتهن فكان عليه السلام ينهى المسلم أن يقول : « عبدى وأمتى » وانما يقول (فتاى وفتاتى) كما يتحدث عن أبنائه ، وكانت وصيته بالصلاة والرقيق من آخر وصاياه صلوات الله عليه قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى .

ولم يحصل اولئك المستضعفون من النساء والرجال على تلك المعاملة طوعا لأوامر دين من الاديان قبل الاسلام ، ولا تلبية لسعيهم أو خوفا من تمردهم وعصيانهم ، ولم يكن احد من اقوامهم يناصرهم أو يتقبل منهم شكايتهم ، بل لم يكن فى الارقاء أنفسهم من يعتقد أن له حقا فى شكواه . ويحسب أن الرق مظلمة أصابته بغير حقه . وقد اسلم بعض الأرقاء من العبيد والاماء فلم يزيدوا عددا فى صدر الدعوة الاسلامية على أصابع اليدين ، ولم يكن لهم صوت مسموع فى شريعة الجاهلية ولا فى شريعة الاسلام ، اذ كانت شريعة الاسلام مما يتعلمه المسلمون من النبى ، ولم تكن مما يعلمونه اياه .

فمهما يأت من آية مطاعة من آيات البر بالنساء المستضعفات اللائى لا سند لهن ولا عائل يرحمهن ، فانما هى آتية من الوحى السماوى تجرى على نسق واحد مع آياته كافة فى تشريع الحقوق وتعليم الفرائض والواجبات .

وارتفع الاسلام بأتباعه الى منزلة من الانصاف للرقيق والرفق به لم تبلغها الانسانية بآدابها وقوانينها ودساتيرها وأنظمتها بعد أكثر من الف سنة . ولكن المسلمين مع هذا قصروا فى عهود شتى عن الشأو الرفيع الذى دعاهم دينهم اليه ، وابيحت بينهم النخاسة التى حرمها الدين ونسيت بينهم الوصايا التى ذكرهم بها الكتاب والسنة ، واستبيحت فيهم حقوق الاحرار والعبيد على السواء ، الا أن الشريعة القرآنية المطهرة عملت بينهم عملها ، ولم تذهب آثارها سدى فى جملتها . ومن آثارها مايثبت بالاحصاء والمقارنة كما يؤخذ من المقابلة بين عدد الارقاء وبين حالتهم فى بلاد الحضارة الاسلامية ، وبلاد الحضارة الاوربية والامريكية بغير حاجة الى شرح طويل .

فكل من بقى من الارقاء فى البلاد الاسلامية بعد ثلاثة عشر

قرنا لا يزيدون على مليونين منهم أزواج وزوجات دخلوا فى الاسر الحرة على سنة المساواة والمؤاخاة . ومما له دلالته فى هذا الصدد أن ارتفاع المهانة عن المماليك فى العالم الاسلامى مكنهم غير مرة من اقامة الدول ، وارتقاء المناصب ، وولاية الوزارة والقيادة ، ومصاهرة البيوتات من أصحاب الملك والامارة ، ولو لم تفارقهم مسبة الرق التى لصقت بهم فى كل بيئة غير البيئة الإسلامية لما تمكنوا من الصعود الى منازل الاجتماع فى هذه القمة ، ولا فارقوا قط منازل الموالى والعبيد .

وتنعقد المقابلة السريعة بين قسمة الرقيق فى ظل الشريعة الاسلامية وقسمته فى ظل الحضارة الغربية ، فتسفر عن الفارق البعيد بالارقام والحقائق والاوضاع .

فتجارة الرقيق خلال خمسين سـنة جمعت فى القارتين الأمريكيتين أمة كبيرة تبلغ سلالتها اليـوم ستة عشر مليونا فى الشمال والجنـوب ، وأهدرت بينهم جميع الحقوق حتى حق الحياة الى زمن قريب . فكان من المناظر المألوفة شنق الزنجى بغير سؤال ولا محاكمة على قارعة الطريق . وكان أنصافهم بنص القانون خطوة متأخرة فى القرن العشرين لم تنفسح لهم فى الزمن الاخير الا بعد المطالبة والمواثبة ، وبعد الاقتدار على الطلب مشفوعا بالتهديد ، ومنه التهديد بالاضراب .

ونحن نكتب هذا الفصل وبين أيدينا المجلات الغربية نفسها تروى قصة سيد فى أمريكا الجنوبية ذهب الى المحكمة لأنه قتل زنجيا وعذبه بالنفخ المتواصل حتى انفجر جنباه ، فكان عقابه من المحكمة غرامة مائتين وعشرة دولارات مقسطة على ستة شهور . ولاحظ القضاء ــ الانسانى ــ فى هذه الرأفة أن السيد الابيض يحتمى بحق العزلة بين الأجناس Apartheid وحق الاشراف والوصاية Basskap فلم تر الصحيفة فى رواية الخبر من حرج فى كتابته بعنوان « حق التعذيب »

هذه شريعة وتلك شريعة بينهما من الزمن قرابة أربعة عشر قرنا ، ومن الجهود الانسانية ثورات وأهوال وضحايا لا يحيط بهما الاحصاء .

الأستاذ أمين الخولي :

وهذا ما يقوله الأستاذ أمين الخولي نقلا عن مجلة العربي التي تصدر بالكويت في العدد الثالث عشر الصادر في جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩ الموافق ديسمبر (كانون) سنة ١٩٥٩ .

عرضنا في مقالنا السابق لفهم الاسلام بالامس ، في الماضي البعيد ، وفهمه اليوم ، اي في العصر الحديث من التاريخ ، ونعرض هنا لفهمه في الغد ، أي المستقبل القريب الذي نحن طلائعه ، ثم المستقبل البعيد أيضا ، مهما يتسع مداه ، مادام الاسلام يريد أن يجد له مكانا دائما على تعاقب الاجيال وتتابع الأزمان ...

وقد أدركنا حتى الآن بوضوح ان هذا الفهم مهمة جليلة الخطر ، لا ينفع فيها النظر الخاطف ولا التناول العاجل .

ولكننا مع ذلك نستطيع تقديم الهيكل العام لهذا الفهم للاسلام غدا ، .. والغد نفسه يتكفل باكمال جوانب الفهم ، وايضاحه بالتمثيل والتطبيق .

على اننا — كما التزمنا — سنطبق هذا الفهم على قضية « الرق » ايضاحا وتحقيقا للفرض الذي أشرنا اليه منذ قررنا الحديث عن فهم الاسلام في أمسه وغده ورأينا ذلك الحديث ضروريا لا مفر منه ، قبل التحدث عن شيء من رأى الاسلام في المشكلات الاجتماعية، وقدرنا أن الرق وثيق الصلةبفكرة العنصرية التي هي المقصد الاول من هذا الحديث .

بلا تزيد ولا تأويل :

وأسس هذا الفهم للاسلام غدا ، هي :

(١) فهم كتابه الاساسي — القرآن — أو تفسيره ، فهما لغويا أدبيا ، في جو فني من المستوى البلاغي الذي عرف للقرآن منذ أول العهد ، وأنه بليغ بلاغة معجزة .

وهو فهم محدود منضبط بالدلالات اللغوية ، التي عرفها العرب لكلماته ، في القرن السابع الميلادي دون تزيد في ذلك أو

خروج عنه .. فلا تزيد بزعم للقرآن مثلا معانى باطنية له غير معانيه الظاهرة ، كما اشتغل بذلك بعض أصحاب الفرق الدينية قديما .. ولا تزيد يعنى بتحميل عبارات القرآن معانى محدثة أو اصطلاحية عرفت لها اليوم أو قبل اليوم ، رغبة فى استخراج علوم منه أو جعله مصدرا لكل علم .

وهذا الفهم الذى نصفه هو ما تقتضيه طبيعة المنهج السليم فى فهم القرآن ، فسبق هذا التفسير لكل فهم خاص للقرآن هو المنهج المنطقى الصحيح ، وارتفاع هذا الفهم الذى نصفه على كل فهم ذى اتجاه خاص ، أو لون معين هو المنهـــج الصحيح .. لأن القرآن جاء قبل كل هذه الخلافات ، وقبل كل هذه العلوم الخاصة ، وقبل كل هذه الدراسات الموجهة ، وجاء ليفهمه من يسمعه من أصحاب اللغة العربية ، ويفهم منه ما يدعو اليه الاسلام ، وما يرمى اليه دون أى احتياج فى فهمه الى شىء مما حدث بعد ذلك ، وكان حدوثه أثرا لظروف خاصة فى حياة الذين أحدثوه . فيجب أن يبقى القرآن دائما صالحا لهذا الفهـم الحر الطليق ، الذى لا يحده الا الدلالات اللغوية كما كان يفهمهـــا العربى لعهده حين يسمعه . فان كان لتلك العبارات ايحاءات معينة ، أو دلالات استعمالية لذلك العهد ، فهى وحدها التى تتحكم فى التفسير الذى نرجوه ، والفهم الذى نريده .. وان كان الحس الأدبى والذوق البيانى للعربية لفتات الى ملاحظ وجدانية ذوقية فتلك هى التى تظل تفهم من القرآن كل حين .. غدا وبعد غد .. الى آخر الدهر .

وعلى هذا الفهم الذى وصفناه يعرض كل ماعداه من قول الرسول وفعله ، فما كان له أصل فى القرآن على هذا الفهم فهو من الاسلام ، وما ليس له أصل فى القرآن على هذا الفهم فليس من الاسلام .

القرآن بين الواقعية والمثالية :

نعم .. ان فهم القرآن كله هذا الفهم الثابت الأساس ، البارىء مما حمل عليه أو لون به مما ليس من لغته ، ولا من فنه ، ولا من ذوقه ، هذا الفهم يحتاج الى جهود كبيرة ، بل جبارة .. ويحتاج فى ذلك الى أزمان طويلة ، تستغرق حياة أجيـــال .. لكنـــا بعد

تأصيل منهج هذا الفهم نستطيع على هديه وفى ضـــوئه أن نعرف كلمة القرآن فى مسألة من المسائل ، بعد أن نفهم الآيات الخاصة بها هذا الفهم السليم ، كمسألة الرق التى نطبق عليها ، ونمهد بها لتقديم رأى الاسلام فى العنصرية .

هذا هو الأساس الأول لفهم الاسلام غدا ، ويسانده ويكلمه :

(ب) الأساس الثانى .. وهو أساس يكشفه لنا فى سهولة ووضوح مابيناه سابقا من خطة الاسلام فى تفسير الحياة وتدبيرها .. وهو ان القرآن لا يقيد المستقبل ، ولايحد مدى التقدم والرقى ، مع انه يقدر الواقع المشاهد ويراعيه .. فخطته ان يبدأ من الواقع الماثل ويقدره ، ويمضى فى التدريـــج منه الى ما فوقه ، آخذا بيد البشرية الى أقصى ما تستطيع أن تبلغه من تقدم .. لافتا لهـا لفتا متصلا الى الأمل الأعلى ، والمثل الأسمى ، يغريها به ويعدها عليه الجزاء الحسن فى الدنيـا والاخـرة جميعا .. ويتركها مع هذه التوجيهات والاغراءات لتناضل فى سبيل مثال سام سام ، رفيع رفيع ، تظفر منه بما تسعفها عليه قوتها ، ويمكنها منه جهادها . ومن هنا ترى فيه الواقعية والمثالية جميعا .. دائما ، وفى كل شىء .

ترى فيه الواقعية الواضحة التى كان يستطيعها ــ ولا يقوى على أكثر منها ــ أولئك المخاطبون به ، ويطبقها هؤلاء المكلفون بحمل دعوته وأداء رسالته .. فلا يعجزهم بما لا يتمثلون ، ولا يأخذهم بما لا يفهمون ، وهم فى ذلك المستوى العقلى والاجتماعى لحياة جزيرتهم ، وحياة الامم حولهم .. فهو يقر ماهم فيه أو بعضه ، وينظمه .. ثم يلطفه ، ويهذبه .. ويأخذ فى لفتهم برفق وأناة ــ ولكن بعمق وأصالة ــ الى أهداف بعيـــدة ، وآفاق راقية ، لـــم يكونوا لهذا العهد يتصورونها الا صورا مبهمة ، خفيفة الألوان ، مظللة الملامح .. فإن استشرفوا ، أو استشرف الراقون منهم الى شىء من ذلك ، فبها والا فهى محفوظة فى الكتاب ، مرددة فيه ، يتعبدون بتلاوتها ، ويسمعونها ممسين ومصبحين ، غادين ورائحين ، تيسر لهم الحياة ، ويخالطون الأمم ، ويشاركون فى سير الحضارة المشترك ، المتكامل .. فكلما اتسع أفقهم أو رق حسهم ، زادت بصائرهم استشفافا لتلك الصورة اللائحة فى آفاقهم ، المرددة على

أسماعهم ، المرفوعة أمام مدراكهم ، يرددونها فى الكتب ، والمعهد ، والمعبد ــ والمنزل ، والموسم المفرح والميقات المحزن .. فيزدادون ــ على الزمن ــ تبينا لها ، ويستوضحون ــ على الاجيال ــ أسرارها ..ويسعفهم على ذلك جهدهم العقلى الخاص ، فى تفسير الحياة وتدبيرها ، وقد كلفوا من ذلك بالنظر ، والسير ، والتدبر ، والتفكير ، والبحث والتعقل ..

وهذه الواقعية وتلك المثالية ، تتوزع فى القرآن ، تتجاوز وتتفارق ، وتتصل وتنفصل ، لتظل على الايام طليقة ، غير محدودة

فهم خاطىء لواقعية الاسلام :

وهذا الجمع فى القرآن بين الواقعية الصارخة . والمثالية الشامخة هو ماتجده ــ عند النظر المتتبع ، والاستقراء الشامل ــ مطردا ، دائما ، ثابتا ، فى كل شأن من عقيدة عبادة ، ومعاملة .. فتجده فى علاقات الجماعات الصغرى والكبرى » كما تجده فى علاقات الافراد بعضهم ببعض ، وبمجموعهم ، فهو واضح فى الايمان والعقيدة ، واضح فى العبادة والرياضة ، واضح فى نعيم الآخرة وعقابها ، واضح فى نظام الحياة وتدبيرها .

ولا أستطيع هنا أن أتتبع لك هذه الصنوف المختلفة ، وابرز فيها واقعية القرآن ، تجاورها مثاليته المتسعة لكل آمال الانسانية، حتى تحلق فى عالم الألوهية . الذى رأينا قدماء المفكرين المسلمين أنفسهم يعرجون اليه ويشتاقونه ..

لا أستطيع هنا هذا التتبع الذى لا يفى به الا سفر مفرد مطول، واذا لم نستطع هنا التتبع التام لواقعية القرآن ومثاليته ، فحسبنا شاهد يتسع له هذا المجال ،وهو ــ عند القارىء ــ سهل المنال ، ذلك هو مالابد انه ترامى اليك ، لشهرته وتكراره ، وهو فهم الاسلام فى صورة عنيفة ، وهى صورة المحارب المتقلد سيفه ، ينشر بهدعوته ، ويقيم جماعته ، على مايقول الذين رأوا جانبا واحدا من الهيكل القرآنى والكيان الاسلامى ، هو جانب الواقعية العتيقة التى كانت تعنو لها الحياة وتنحنى الجباه ، ولا تزال حتى اليوم تعطى الاقوياء كل مايريدون ، وتصون الحقوق اذا قامت الى جانبها . تلك هى القوة ، والحرب .. فعلى ما تبينا من خطة القرآن

كان لابد أن يدرك هذا الواقع الغالب الذى ظل قرونا واقعا غالبا .. وقد يظل كذلك مدى آخر .. وبتوجيه هذا الواقع حمى نفسه ودعوته ودولته بما لا حياة للحق الا به ومعه فكان ذلك الذى أسرف الناس فى تقديره .. على حين غفلوا وانصرفوا عن بقية التدبير وسائر الخطة التى اطمأننا الى أنها تسود انتناول القرآنى، وتشمل كل ميادينه .. ألا وهى وضع المثالية الى جانب الواقعية. وفى هذا الشأن من تنظيم القوى ، كانت المثالية المسالمة الداعية الى سلام انسانى عام ، تقوم فى التناول القرآنى الى جانب الواقعية المحاربة الشاكية السلاح . وله فى هذه المثالية السليمة الوادعة الآملة محاولات كبرى ، وتدبيرات جليلة لا نستطيع كذلك أن نستوفيها بيانا هنا .. ولعله يكفيك منها آيته الداعية الى السلام العام بقوله : « يا أيها الذين آمنو ادخلوا فى السلم كافة ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » (البقرة : ٢٠٨) .

على أنه سيجيئك قريبا مثل آخر هو الذى جعلناه مجال المقارنة بين مختلف الفهم للاسلام ، الا وهو الرق . فسنعرض لك من نظرة الفهم الجديد للاسلام ما يزيد فكرة التزام الواقعية المثالية فى القرآن وضوحا وجلاء . والزمن كفيل بتتابع التطبيق وتوفية البيان لهذا الأساس الثانى من أسس فهم الاسلام غدا .. ألا وهو اضطراد الاتساق فى خطة القرآن بالتقاء الواقعية القريبة . والمثالية المتسامية الى أبعد المدى . .

النسخ محاولة للتخلص !

على انى لا أدع القول فى هذا الأساس الثانى من أسس فهم الغد للاسلام حتى أصارحك بانه ليس عجيبا أن يكون فهم الاسلام أمس ، قد انصرف كل الانصراف عن هذا المسلك القرآنى الثابت المنسق فى تقدير الواقع والاستشراف العالى للمثال .. بل ليس عجيبا أن يكون فهم الاسلام أمس قد سد الطريق الى ادراك هذه الخطة ، وعمى السبيل .. وذلك حين واجهه هذا التناول القرآنى الآخذ بالطرفين المتناول للتدبيرين ، هو ملحوظ ، واضح ، بل بارز فى القرآن ، ولهذا نقرره اليوم ونلتزمه مطمئنين واثقين .. فلما واجه فهم الأمس هذا التنسيق للحاضر والمستقبل ، وهو لا يحس بهذا المستقبل ، ولا يوجه اليه بصرا ، لم يلبث أن تخلص من لفتات

الغد ، ولمحات المستقبل ، واضواء المثال — وفزع فى ذلك الى مايعرف عند الأولين باسم « النسخ » وهو : أن يزيل بعض آيات القرآن المتأخرة أحكام وآثار آيات أخرى متقدمة ، على ماهو معروف فى المجال القانونى ، ولا نستطيع الخوض فيه هنا بأكثر من هذه الاشارة .

فالى هذا النسخ فزعوا فى التخلص مما يجاوز الواقعية التى هى ما استطاعوا ادراكه من القرآن ، .. ومن الاتقان اللافت انك سترى فى المثلين الذين سقنا واحدا منهما الآن عن الحرب والسلام وسنسوق الآخر عن الرق .. فى هذين المثلين قد اخفى القوم أمس معالم المثالية القرآنية الرفيعة الذرى بهذا النسخ . فهناك فى الدعوة الى السلام حتى ولو كان خادعا ، على ما فى آية : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله أنه هو السميع العليم . وأن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله » (الانفال) ان هذه الرغبة المخلصة فى السلام منسوخة . وستسمع مثل هذا قريبا فى آية المثالية القرآنية المنكرة للاسترقاق .

وهذا النسخ ان وجد ، وتقريره حين يكون يمكن أن يعد شاهدا على نزعة التجديد الاسلامية ، وتقدير سنة التدرج ، واللفت اليه بمثل هذه الازالة لبعض مقررات سابقة ... ولكن هذا النسخ بدل أن يكون مظهر حيوية اسلامية قد صار مظهر مجافاة للنماء والتدرج ، ووسيلة قريبة للتخلص من تقدير الغد البعيد ، والتطلع للمثل المرتقب ، الذى يحس بقوة لفت القرآن اليه .

على انا لا نحرم هذا الأمس من كلمة الانصاف فنقول : انه فى قضية النسخ العامة لم تكن كلمته الوحيدة هى وقوع هذا النسخ ، بل كان من اهل هذا الأمس من نفى هذا النسخ فى القرآن وقرر عدم وقوعه ، وعلى هذا الاساس عنده تخلص من تعطيل النسخ للأهداف المثالية القرآنية التى تبدو لنا جلية بجانب واقعيته .

كما أن القائلين بالنسخ أنفسهم لم تتفق كلمتهم فى كل آية قرروا نسخها ، ومن حسن الاتفاق أن آية الجنوح الى السلم ولو كان خادعا ، وآية الرق التى سنتلوها بعد قليل ، قد أنكر النسخ

فيهما منكر ، لقولهوزنه وخطره ، فآيةالدعوة الجانحة الى السلام الانسانى كافة ، كما سمعتها ، تبقى دعوة عالية للسلام ولم تنسخ لأن علما من اعلام المفسرين القدامى يقول عن نسخها : « انه مما لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل » .

والى هنا يتسق أمامك الاصلان الأساسيان لفهم الاسلام غدا .. وهما فهم القرآن .. وتقدير مثاليته . واعتمادا على هذين الأصلين نتقدم الى المثل الذى اخترنا الوقوف عنده لنسمع فيه بقية كلمة الافهام المختلفة للاسلام ، وقد سمعنا فيه حتى الآن كلمة فهم الامس .. ثم كلمة فهم اليوم ولنسمع فيه الآن كلمة فهم الغد ، فنتحدث عن :

الرق : بين الواقعية والمثالية :

لقد كان الرق واقعا قديما متأصلا ، رأى العرب منه حولهم ما رأوا وعرف العرب منه فى جزيرتهم ما عرفوا .. وسلك القرآن نحوه مسلكه الثابت الواضح ، من التدبير الواقعى : يعترف بالواقع المشهود ، الى حد ما .. ثم يمضى يلطف قسوته ، ويصلح بالتدريج أخطاءه .. ثم ينبه الى المثال الراقى ويغرى الانسانية منه بكل ما تمكنها منه ظروفها ، ويعينها عليه تقدمها ورقيها .. الى أبد الدهر ، وعلى مدى الزمن ، على نظام الأصلين الأساسيين عندنا لفهم الاسلام غدا .. واليك البيان :

فأول ذلك ان نفهم قول القرآن فى الرق ذلك الفهم اللغوى الأدبى ، المنضبط ، المقدر لظروف آياته ، ومناسباته ، فى غير تجن على دلالة الكلمات ومفهومها عصر نزوله .. ومع تقدير ما للكلمات والأساليب من ايحاء أدبى وحس نفسى ، ووقع فنى .. على ما تجب مراعاته فى كتاب امتاز فى العربية بالبلاغة الى حد الاعجاز ، الذى قدره المؤمنون به ، والمنكرون له جميعا ، منذ سمعوه .

والمدد المتصل للرق هو الاسر فى الحرب . كما كان عليه الامر فى واقع الحياة ، ومعاملة الاسرى اذ ذاك ، والقرآن يحدد هذه المعاملة فى السورة ٤٧ منه ، وتسمى سورة القتال ، وهى صالحة لهذا الاسم بموضوعها .. وتسمى كذلك سورة « محمد » وانها الجديرة بهذه التسمية ، لما فيها من مثالية تلك المعاملة التى

سنفهمها فى جلاء وقرب من الآية الرابعة وهى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق. فاما منا بعد ،وأما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » ...

فلنفهمها بحس اللغة العربية اللغوى والأدبى — على ما هو الاساس الاول الذى قررناه لفهم الغد — فسنرى : أن معناها هو دوران معاملة الأسرى ، بعد الغلبة ، بين أمرين ، لا ثالث لهما . وهما : أولا — المن عليهم باطلاق سراحهم دون شىء ما ، بل تفضلا ومنا .. وثانى الامرين : هو اطلاق سراحهم بمقابل وفداء شخصى. كمفاداة أسير بأسير ، أو غير شخصى كعوض يقدم من الأسير أو من سواه .. وتحديد معاملة الأسرى بهاتين المعاملتين ، دون غيرهما هو معنى « اما » فى العربية على ما هو معروف عند أهلها ، ولا نطيل هنا بشرحه .. ولا نعرف فى القرآن آية أخرى تدل على معاملة للاسرى بغير هاتين الحالتين .. ومن هنا نفهم فى اطمئنان أن القرآن ، أو قل الاسلام — كما ينبغى أن يفهم غدا — لا يسترق أحدا ، بل يقطع مدد الرق ، اذا ما كان الواقع — حتى اليوم — لا يقع استمرار الحرب، فليكن هذا الضرر المستمر ، وهو الحرب، حتى تبلغ الانسانية غير اليائسة من الرقى الصاعد مايقضى عليها. وليكن هناك أسرى فى هذه الحروب ، فما يفهم الاسلام لغد ، الا أن يعاملوا باحدى هاتين الحالتين : المن ، أو الفداء .

الاسلام لا يعترف بغير رق الاسر فى الحرب

هذا هو المعنى البين الذى يفهم من آية سورة القتال التى تصدت لبيان معاملة الاسرى ، أو سورة « محمد » الذى يستأصل بهذا التدبير الرق من جذره وأصله الوحيد . ولا يعترف طبعا برق مدين ، ولا برق خطف ، ولا يعرف ولا يجيز بيع الابناء — ولا غير ذلك من أسباب استمرار هذا المظهر الوحشى المهدر لانسانية الانسان .

هذا هو معنى الآية القرآنية اللغوى الواضح القريب ، دون تأول ، ولا تكلف ، ولا تحميل للعبارة مالا تحتمله أو تعطيه ، كما يفهمها العارف بالعربية ، فى عصر نزولها ،وبعده الى اليوم .

وفى أسلوب الآية ونظمها مجال لايحاءات معنوية تحسها

البلاغة العربية ـ فى غير تعمل ولا تكلف ابدا ـ فمن أبحاثها تقديم المن على الفداء ، وفيه ايذان بتفضيله وايثاره على الفداء ، وأنه أحب الى الاسلام منه وان اطلاق الأسير تكرما هو المعاملة المثلى عنده .. وفى غير هذا الموضع من القرآن مايدل على عدم الرضا عن ابتغاء عرض الدنيا بالاسر ، ولا نطيل عليك بهذا .

ومن ايحاء الآية اطلاق الفداء ، وعدم تعيين شىء مادى فى مقابله ـ وقد عرف من تصرف الرسول منذ أول عهد الاسلام انه جعل الفداء عملا انسانيا معنويا هو أن يعلم الاسير عددا من أصحابه القراءة وهو معنى اجتماعى كريم فى الاغراء بالعلم ، وبث النور .

وليس من بعيد ايحاء الآية ان يكون ما فى نهايتها من وضع الحرب أوزارها نتيجة وأثرا لهذه المعاملة ، وأن يكون عدم استرقاق الأسرى ، واعتبارهم ثروة من غنائم الحرب سببا لوضع الحرب أوزارها ، وعدم المعاندة .

حس راق متلطف عطوف :

ومن هذا الجو مانجده فى غير هذه الآية الخاصة ، من حس القرآن العام نحو الرق وأنه حس كريم ، راق ، متلطف ، يفيض عطفا على أولئك الذين قست عليهم ظروف الصراع المادى ، وأخرجهم بعض اخوانهم ، من مفكرى البشر ، من كرامة الآدمية العامة ، وعدوهم طبقة نازلة ، خلقت الطاعة والخدمة ٠٠ فاذا هذا القرآن فى بيئة الجزيرة العربية الخشنة الطبقية ، المتعصبة ، يتحدث الى أصحاب الشرف والنسب ، والسيادة المكاثرة بالمال والولد ، والعصبية القبلية . يتحدث الى هؤلاء عما بين الآدمى والآدمى فاذا به لا يستعمل ـ على كثرة ما حدث عن هذا الوضع ـ كلمة الرق ولا يذكر أرقاء .. بل يسميهم الرقاب ، والواحد منهم رقبة وهى جزء من جسم الانسان أصيل فى الحياة ، وضرب الرقبة هو ـ فى تعبير القرآن ـ هدم الحياة والقتل ٠

ومن حسه اللطيف انه لم يستعمل كلمة العتق . بل استعمل مكانها دائما التحرير ، أو فك رقبة .. والتحرير تصيير الآدمى حرا ، والحر فى العربية هو الاصيل الكريم ٠٠ وفك الرقبة تجسيم

لخنق الحرية في هذا الوضع الذى يضجر به القرآن فى نبل ..
ومحمد أولى الناس شعورا بهذا الحس اللطيف ، وهو يمثله حين
يوصى الناس بأن يسموا هؤلاء الناس عبيدا واماء فينهاهم عن أن
يقول أحدهم عبدى وأمتى .. وانما يقولون بدل ذلك : فتاى
وفتاتى .. لانهم اخوانهم كما يقول الرسول فى بيان أصــــل هذا
الادب .

ومن أفق هذا الحس اللطيف بالكرامة الانسانية أن القرآن
فى العهد المكى الطويل لم يشتغل بالشئون العملية فى الحياة ، من
نظام أسرة ، أو جماعة ، بل كانت عنايته موجهة الى الاصـــول
الاعتقادية الكبرى فقط ، وفى المدينة بعد ذلك حدث عما عرض له
من شئون هذا التنظيم فى زواج ، وطلاق ، او بيع ، أو ميراث ، أو
حكم وقضاء .. وما الى ذلك من تدبير عملي — وهذا طابع معروف
واضح فى قرآن العهدين ، المكى والمدنى .. لكن هذا يختلف فى
الحرية الانسانية ، اذ نرى القرآن فىمكة يحدث — فى عناية كبرى
قوية — على فك الرقبة ويقول للانســــان : فلا اقتحم العقبة ،
وما أدراك ما العقبة فكرقبة أو اطعام فى يوم ذىمسبغة ...الخ —
سورة البلد : ١١ — ١٦ فالعقبة الكبرى فىحياة البشرية عنده
هى عائق مادى ومعنوى معا ، وازمة حياة الآدمية هى حاجة
الحياة المادية التى تقيم كيان الجسم البشرى ، وحاجة الحيــاة
المعنوية التى يقوم بها كيان النفس الانسانية .. نعم هى الحياة
كذلك كانت .. وتـكون .. ولعلهـا تظل كذلك ، تحترب هذه
البشرية فى سبيل حاجتها المادية ، وأزماتها فيها هى المسغبات
والمجاعات ، على اختلاف صــــورها — وتحترب هذه البشرية فى
سبيل حاجتها الروحية من الحرية والانطلاق ، والشعور بالكرامة
.. وعن هاتين الحاجتين يعبر القرآن بالعقبة ، وما أدراك ما العقبة
.. وهو أسلوب معروف فى الاشياء الهائلة .. والعقبة الكبرى :
فك رقبة .. أو اطعام فى يوم ذى مســـغبة .. هما الحاجتان
اللتان اشرنا اليهما .. حاجة الجسم ، وحاجة الروح .. والقرآن
اكثر حفاوة وأشد اهتماما بحاجة الروح — بالحرية — فهو لذلك
يقدمها على حاجة الجسم المادية ويقول أولا : فك رقبة .. واكرم
به حسا وأعظم به شعورا .

الرق في القرآن سواة اجتماعية :

وبهذا الفهم اللغوي الادبي لآية من سورة القتال مع شعور بحس القرآن نحو الرق ننتهي الى مثالية كريمة متسامية في النظر الى الرق ، وعده آفة مدنية ، وســوأة اجتماعية يقضي عليها بانضاب معينها ، وهو الأسر في الحرب ...

ولعلك تذكر ما أشرنا اليه في الفقرةالسابقة منهذا الفصل، وهو أن فهم الاسلام امس لم يتجه الى هذه المثالية ، بل انهم بعد ماقرروا من أحوال الرق وتنظيمه عملا ، قد صدمتهم الى حد ما هذه النزعة القرآنية الواضحة في عدم استرقاق القرآن أسيرا ، فاذا هم يقررون أن هذه الآية من سورة القتال منسوخة ! كما قرروا مثل هذا في آية الدعوة العامة الى السلم العــالمي ــ على ما سمعت قريبا .. لكن حسن حظ الانســانية لا يزال يجــد المخلص عند منكري هذا النسخ ، بل يجد مخلصا اوسع واكبر في قول امامهم السابق الذي انكر نسخ آية الجنوح الى السلام ولو خادعا فهو هو نفسه لا يزال ينكر نسخ آية معاملة الاسرى التي لا تسترقهم ؛ ويقول في هذا أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ــ تفسير الطبري جـ ٢٦ ص ٢٧ ط اولى .

الانتقال من الواقعية الى المثالية :

واذا انتهينا الى هذه الغاية من فهم القرآن وحسه نحو الرق فأشرفنا على أفق فسيح من المثالية المرجوة التي نجدها دائما في القرآن، فانا ننتقل الى النظر فيالأساس الثاني من أسس فهم الغد للاسلام ، وهو رياضة البشرية تدريجيا من الواقعية في حالها القائمة ، الى المثالية في عوالمها الفسيحة الراقية . وتوافر الامرين دائما في تدبير الاسلام للحياة .

ننظر الى الواقعية بادية فيما بقي فيالقرآن والاسلام من الرق عملا ، وحال الارقاء ومعاملتهم ، فنرى في ذكر ملك اليمين ، واستحلال فروج المملوكات ، واختلاف عقوبة الرقيق عن عقوبة الحر ، وغير هذا فنجد أنها عنده خطة مقررة ، لا يفاجأ الناس معها بما يتمثاون ولا يدركون ، بل يسايرهم ، ريثما يدبر لتغييرهم ورفع مستواهم .. وعلى هذه الخطة نفسها تراه يمضي الى تخفيف

حدة هذا الوضع المهين للانسان ، ويتلطف لذلك ، ويطب له بما كان بعضه قد عرفته الرحمة والكرامة ، عند قلة قليلة ، أو يدبر لذلك التخفيف والتلطيف بالمبتكر ، والفعال ، حتى يكون الهدف الاخير ألا يسترق أحد بحرب . وفى اطار من نفحات هذه المثالية فى شعورها اللطيف ، تتدرج الواقعية فى مقاومة الرق . والضجر به ، والعمل للقضاء عليه ، فبعد الحث الدينى على فك الرقاب ، ووعد الثواب الأخروى الكبير عليه ، فى معنى يجسم المماثلة البشرية بين السادة والمسودين ، اذ تقول التوصية الدينية أن من يفك رقبه بالعتق ، يخلص من العذاب ، كل عضو منه بعضو أعتقه .. ولا يقف الامر عند استثارة الشعور بالتحرير وحسن ثوابه ، بل يتقدم الى التشريع العملى فيوجب تحرير الرقاب فى أعمال كثيرة يعرض لها الناس فى معاملاتهم الحيوية ، وعباداتهم الدينية فهو يوجب تحرير الرقبة على انه جزاء متعين ، عند الافطار عمدا فى رمضان مادام عند المفطر رقاب مملوكة .. وهو كذلك جزاء متعين فى احوال من عقوبة القتل ، وفى ضرب من الاختلاف بين الزوجين بما يسمى الظهار ، .. كما أن تحرير الرقبة جزاء تخييرى عند الحنث فى اليمين .. الخ .

ثم يمتد التدبير العملى لتحرير الرقاب الى نظام عام يلزم الدولة برصد اعتماد فى ميزانيتها من مورد ثابت هو الزكاة — احدى قواعد الاسلام وأركانه — يصرف منها ١٢ ونصف٪ لتحرير الرقاب كما هو نص القرآن ..

مثالية القرآن تحرم الرق وتبتر جذوره :

وهكذا تدرجت الواقعية المعترفة بالرق الى بث الكراهية لهذا الرق بقوة وعنف .. ثم الى الترغيب فى التحرير . ثم الى الزام الأفراد به .. ثم الى الزام الدولة ، فى نظام مالى ثابت .. فهيأت بذلك كله — وانه لكثير — الى مثالية تنكر الرق وتحرمه وتبتر جذوره حين لا تجعل له موردا من أسرى الحرب ، على ما سمعنا قريبا .. وبذلك تمضى الانسانية الى أقصى ما تستطيع من تكريم للبشرية ، وتقديس للحرية وتتقدم الى ذلك صادقة ، جادة عادلة ، فان هذا القرآن يحلق بها الى أسمى ما تستطيع أن تبلغ من غايات — بما تنسمنا من أنسام حسه الكريم .

ومن الواجب ان نشير ــ كما فعلنا فى الحديث عن السلام ــ الى ان فهم الأمس للاسلام قد يضع تعقبات فى طريق هذا التدرج القرآنى بواقع الرق الى مراحل مصلحة تنتهى الى مثاليته وذلك حين يجيزون قتل الأسـير وحين يجيزون لحاكمهم أن يسترق الاسرى . لكننا لحسن حظ الانسانية كما قلنا ، نظل نجد المنافذ غير الضيقة للارتفاع على المسـتوى الذى فهم به الأمس هذا الاسلام .. فانه على فرض أن للحاكم وصاحب السـلطة حق ضرب الرق على الأسرى ، فعليه كذلك واجب تنفيذ النظام المالى الملزم لمالية الدولة بأن تقدم تلك النسبة المئوية من أكثر ضرائبها حصيلة ·· وهى الزكاة ــ لتحرير الأرقاء ·· فهل سيرى هـذا الحاكم حين تكون المسألة مالية أن يستكثر من الارقاء ، ليبذل مال الدولة فى تحريرهم ؟ أو سيرى الخير فى أن يقلوا لئلا يبذل هذا المال فى تحريرهم . !! وهلا تكون روح النظام الاسـلامى ، فى التدرج بواقعية الرق روحا واضحة القوة ، صادقة الرغبة فى القضاء عليه ، حتى على الصورة التى فهم بها الامس هذا النظام .. ولم يستشرف لمثاليته الواسعة .

انسانية القرآن أعمق من دعاوى المتشدقين بحقوق الانسان:

وما أسلفنا من النظرة العامة الى فهم الاسلام أمس ، وفهم الاسلام اليوم فافتقدنا به تحقيق هذين الفهمين لميزات الاسلام التى تبيناها ــ ماأسلفنا من هذه النظرة نستطيع أن نجد به هنا أن ما عرضنا من فهم الاسلام غدا يحقق الى حد كبير ــ خصائص الاسلام التى تميـز بها عمومه ، ودوامه .. وختمه لرسالات السماء .

ولعل القارىء يكون قد أحس فى وضوح أن هذا الفهم الاخير للاسلام يحقق كل التحقيق ما عنى به الاسلام من تقدير التجدد المستمر للحياة .. ومن احترام المحاولات الانسـانية فى تدبير الحياة ·· ومن اعتراف بحق الانسانية فى المشـاركة البشرية فى تدبير الحياة ، مع وجود التدبير الدينى .. فانا نجد فى قبول الواقعية للترقى المتدرج ، وفى احاطتها بأحاسيس كريمة ، ورغبات مثالية ، كل ما تطمع فيه الانسانية من حدب عليهـا ، وثقة

بمستقبلها ، وأمل فى ترقيها ، ومضى الى مثل مارنت اليه حتى اليوم ، بل دفع لها الى أبعد منه ، وأرقى وأكرم .

وفى التطبيق المكرر على الرق تجسمت الفروق بين فهم الاســـــلام ، فى المراحل الثلاث من سير الحيـــاة من الأمس ، الى الغد .. وفى هذا الفهم الاخير تجلت فى القرآن الروح الانسانية المتفائـلة ، المســتبشرة ، رغم تكاثف الظلمات .. وبدا جليا أن ما طمحت اليه الانسانية من تحريم الرق ، واتفقت عليه ليس هو فى القرآن شيئا من غير الممكن .. ولا أنه لم يكن فى حســـاب الاسلام ، لأنه لا يغير الطبائع الآدمية ، ولا يصير الناس ملائكة ــ بل أن الانصاف فى تقدير الفروق بين الازمنة المختلفة يقضى علينا بأن نعد ما فى الاسلام من النفحات الخيرة الشاعرة بانسانية من جنت عليهم الظروف واسترقوا ، مما يجب أن يعد عملا أكثر لطفا ، وأعمق حسا ، مما شعرت به الانسانية نحو هؤلاء المغلولى الرقاب حتى اليوم .. بل حتى غد غير قريب .. فان هذه الآدمية لا تزال اليوم تعانى ما يأسى له ضميرها الحى من تقرير التمايز بين الطبائع البشرية بالدعاوى العنيفة للعنصرية ، وبالاضطهاد الملون الذى تتجاوب به الأصــــداء فى الدنيا الجديدة والقديمة على السواء .

اجمـــاع

هذا ما كتبه جمع من العلماء والمفكرين . والذى يستخلص من كتابتهم ــ كما هو واضح ــ أن القرآن الكريم لم يشرع الرق وانما شرع تحرير الرقيق .

لقد قالوا جميعا ان الاسلام حرم جميع أنواع الاســترقاق . ولم يبق الا على أسرى الحروب . والنص القرآنى الخـاص بهـؤلاء الأسرى لا يدل الا على المن وذلك فى المرتبـــة الاولى فان لم يكن فالفداء . وليس فى القرآن نص يبيح الاسترقاق .

وقد أجمع أيضا هؤلاء العلماء الاعـلام أن الاســلام فرض على الدولة اخراج جزء من الزكاة لتحرير الرقيق الذى يرسب فى المجتمع الاسلامى ، كما حض على عتق الأرقاء ، واطـــلاق الأسرى

من قيود اسارهم بكل طريقة ، وحبب الاسراع فى ذلك . وقد مر بنا أن القرآن ألزم الاغنياء — كما الزم الدولة — باخراج جزءمن أموالهم لتحرير الرقيق وفى ذلك تتضـــافر الدولة والافراد على تصفية الرقيق .

***

ولم نكثر من نقل أقوال العلماء والمفكرين الا ليتضح أن كل هؤلاء الاعلام على اختلاف ثقافاتهم وتنوع مشاربهم واتجاهاتهـــم الفكرية ، اتفقوا على شىء واحد هو : ان القرآن عالج مشكلة الرقيق علاجا حاسما وخلص الناس من نظام بشع ردىء يهـــدر آدمية الآدميين ، ولا يقيملكرامتهم وزنا ، وأعاد للانسانيةشرفها وكرامتها بانهاء هذا النظام واحلال الحرية والكرامة محله .

نعم ان كل المتحدثين الذين نقلنا أقوالهم ، لم يتعرضوا فيما كتبوه لمشكلة الرق الا على أنها مشكلة قائمة ، عمل الاسلام لحلها ولم يتحدثوا عن الاسباب المتنوعة التى أدت الى قيام هذه المشكلة حتى أصبحت نظاما متبعا أو عادة مألوفة ، لا تستحق من احـــد التفكير فيما يؤدى لحلها . لذلك لا يبعد أن يقـــوم معترض يقول : انمشكلة الرق لم تدرس دراسة منهجية من هؤلاء الكتابوالمفكرين والعلماء . دراسة تتفق ومنهج الاسلام فى تقرير القواعد واقامة المبادىء التى حفل بها لسعادة الناس .

فاذا أراد هذا المعترض بالدراسة المنهجية دراسة تاريخ الرق قبل الاسلام والنظرة الفلسفية التى كان ينظر بها اليه والاوضاع السياسية ، والاقتصادية ، والعقيدية ، والعنصرية ، والاخلاقيـة التى كانت سائدة فى القديم ، ثم التحدث عن نظرة الاسلام الى كل تلك الامور ، وموافقته أو مخالفته لهـــا ، وماذا وضع من مبادىء ونظريات ونظم ، فلعل المعترض يجـــد فى كتـابنا هذا الدراســة المنهجية التى يريدها .

والحقيقة ان الاسلام الذى مجد الانسان فصعدبه الىمكانة عالية جدا لايمكن أن يسمح باسترقاقه . ولكننا ابتلينا فى عصورنا المظلمة بأناس باعدوا بيننا وبين البحث لمعرفة ديننا معرفة صحيحة منزهة عن الانحراف والاخطاء ، ولـــكن القرآن لا تحجبه ظلمات

العصور وانحراف العقول والأفكار . فهو مازال غضا جديدا كاليوم الذى نزل فيه . وما علينا الا أن نتدبره ، ونسترشد بهديه فى كل عصر وعند كل مشكلة . وعلينا أن نحطم كل الاسوار التى أقيمت لتحول بيننا وبينه . لانها أسوار لم يقمها الا ضلال المضللين وجمود الاغبياء وأغراض المغرضين . والنتيجة التى نخرج بها هى أنه : لا رق فى الاسلام ، وليس فيه الا أسرى الحروب من الذين يشنون عليه الحروب ، ويقفون معاندين فى سبيل ابلاغ دعوته — بالحكمة والموعظة الحسنة للناس — وهو فى هذه الحالة مضطر لان يقابل أعداءه بالمثل ، حتى يدينوا بمبدأ الحرية والمساواة للناس جميعا .

ولذلك نجده لا يبيح الاسر اذا اقتتلت طائفتان من المسلمين ، لأن كلا الطائفتين تدين بالحرية والمساواة اللتين منحهما الاسلام لجميع الناس .

ولم يحدثنا التاريخ أن رابع الخلفاء الراشدين عليا بن أبى طالب أسر احدا من مخالفيه الذين كانوا يحاربونه لانهم جميعا يدينون بالاسلام .

وكذلك لم يحدثنا التاريخ أن معاوية أو غيره من الذين كانوا يحاربون عليا أسروا أحدا من جنوده . وعلة ذلك أن الجميع يدينون بمبدأ الحرية للجميع ، وان الاعتداء على هذه الحرية مخالف لعقيدة الاسلام .

فاذا اعتنق الناس مبدأ الحرية للجميع ، وطبقوه فى واقعهم فتلك هى الغاية التى يريدها الاسلام لاهل الارض جميعا .

وأظننا لسنا فى حاجة بعد كل ذلك لان نقول : ان الذين يتهمون الاسلام باقرار الرق اما أن يكونوا جاهلين بالاسلام ، واما أن يكونوا منحرفين عن طريقه القويم ، واما أن يكونوا مكابرين . ولا يسعنا الا أن نسأل الله الهداية لكل أولئك فان اهتدوا فقد أراد الله بهم خيرا ، والا فلن يخسروا الا أنفسهم . أما القرآن — كتاب الله الخالد — فلن يضيره مكابر ، ولن يطمس آياته البينات معاند ، ولن يضر الشمس الساطعة شيئا اذا لم يرها العميان .

فى بعض بــلاد الاسلام

ان بعض بلاد المسلمين ما زالت تستبيح الرقيق امتلاكا ، وتجارة وافتراشا • ولا نعلم كيف تتحمل ضمائرهم مزاولة هذا الوزر العظيم ؟

وكيف يستبيح العلماء منهم لانفسهم هذا المنكر الصارخ ؟

لقد رأينا فيما مر بنا من صفحات هذا الكتاب أن الاسلام لم يشرع الرق ، ولكنه شرع تحرير الرقيق الــــذى رسب فى المجتمعات الاسلامية من عصور الجاهلية ، ومن أسرى الحروب التى كانت تنشب بين أنصار الدعوة الى الاسلام وأعدائها • ورأينا أن جميع العلماء الذين نقلنا آراءهم يقررون أن المسلمين ارتكبوا فى مسألة الرقيق مالا يقره الاسلام • ان الاسلام حرم الرق بكل أنواعه المعروفة ، بما وضع له من نظم ، وما أقامه من مبادىء ، وما ثبته فى القلوب المؤمنة من عقيدة الحرية والاخاء والمساواة : الحــرية للناس جميعا والأخوة بين الناس جميعا ، والمســـاواة فى الحقوق والواجبات للجميع •

ولم يبق فى عصرنا شبهة ولا شبيه بالشبهة فيتعلق بهــا الذين فى قلوبهم مرض اذا أرادوا استباحة ما حرمه الله من استرقاق الناس ، واستباحة الفروج والاموال عن هذا الطريق • فليس هناك حروب مشروعة قائمة حتى نقول : ان ما بأيديهم من أرقاء انما هم أسرى تلك الحروب ان كل ما هو موجود ممن يطلق عليه رقيق ــ بهتانا ــ لم يأت الا عن طريق الخطف والقرصنة واللصـــوصية واباحة استرقاق هؤلاء الاحرار المخطوفين لم يقره الاسلام بوجه من الوجوه (١) •

---

(١) يقول الأستاذ محمد حسن عوان فى كتابه محرر الرقيق فى صفحة ١٢١ هامش ان الاســلام نفسه ــ وليست السياسة ــ هو الذى يمنع هذه التجارة الخاطئة ، بوصفه دينا يدعو الى =

بل ان الاسلام يفرض العقوبات الصارمة على من يأتى بمثل هذه المنكرات ..

وعجب لهؤلاء المسلمين اذ يظهرون فى المنظمات الدولية وعليهم مسوح الرهبان ، ويشاركون فى التوقيع على ميثاق حقوق الانسان . واتفاقية تحريم المتاجرة بالرقيق ، بينما هم فى مقدمة من يروجون لهذه التجارة الملعونة فى بلادهم ، وان قصورهم لتشهد بأنهـا مكتظة زاخرة بالغلمان والجوارى من جميع الاجناس .

انهم يخشون الناس ، ولا يخشون الله . ويظنون أن الناس فى غفلة عمـا يعملون . ان الأستار الصفيقة التى يضفونها على انفسهم لم تستطع اخفاء الحقائق . وهم بذلك انما يزيدون الطينة بلة — على حد تعبير المثل العامى — فهم يضيفون الى وزر استباحتهم ما حرمه الله وزر النفاق والرياء والمخادعة فيجلبون لانفسهم اللعنة وليت اللعنة تقف عند حد أشخاصهم ولكنها تتعدى الى شعوبهم . فيحسبونها مثلهم فى المخادعة والتضليل والنفاق ، بل تتعدى الى الاسلام نفسه والى مقدسات المسلمين ، وأماكن شعائرهم ، ويدعون الألسنة المسمومة تنطلق بالحط من شأن الملة الحنيفية السمحة ، ورسولها الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، صلى الله عليه وسلم .

واننا حيال ذلك لايسعنا الا أن نعلن ابراء للذمة واحقـاقا للحق أن الاسلام لا يقر الرق ولا يعترف به ، وأن ما يرتكبه بعض المسلمين من استباحة الرقيق تجارة وامتلاكا وافتراشا مخالف للاسلام . وأن من يرتكب ذلك انما يرتكب كبيرة من الكبـائر يعاقب الاسلام مرتكبها عقابا صارما شديدا .

= الحرية والأمن والدعوة بالحكمة والرفق حتى ولو أن المخطوفين والمخطوفات من غير المسلمين . فالاسلام لايبيح الخطف ولا السرقة ولا الاعتداء ولا يسوغ التجارة فى المواد المنتهبة سواء أكانت بشرية أم غير بشرية .

الرق في الأمم الغربية الحديثة

لقد بينا نظرة الدين الاسلامي الى نظام الرق الذى كان يسود العالم قديما ، وكيف أن الاسلام حرر الرقيق وقضى على أسبابه ، وجفف منابعه ، ووضع لها السدود الواقية حتى لا تعود الى التفجر مرة أخرى ٠

وان كان في بعض البلاد الاسلامية النذر اليسير من الرقيق فليس ذلك ذنب الاسلام ، وانما هو ذنب المنحرفين عن الاسلام ، ويكفيهم خزيا أنهم يتوارون خجلا من الناس عندما تضمهم المحافل العالمية ٠ اذ ليس لديهم من المنطق ما يبرر أفعالهم ٠ ويعترفون في قرارة انفسهم أن ماهم عليه انما هو منكر لايقره دين ، ولاشرف ولا انسانية فاذا تركنا هؤلاء المارقين عن الدين الاسلامي الحنيف ٠ ونظرنا الى هؤلاء الغربيين الذين يملأون الدنيا ضجيجا بادعاءاتهم المكررة زاعمين أنهم انما هم رسل الحضارة في العصر الحديث ومنقذوا الانسانية ودعاة الحق والعدل والحرية والانصاف ٠ هؤلاء الغربيون الذين طالما تجنوا على الاسلام ووصموه بالهمجية والرجعية والقسوة والجمود تارة ، وتارة أخرى بدعواهم أن الاسلام قد استنفد أغراضه ولم يعد صالحا للعصر الحديث ، ولا يمكن أن يساير الحياة المتطورة التى يأتي انسانها كل يوم بشيء جديد ٠ فماذا نجدهم صنعوا لحل مشكلة الرقيق بعلومهم ومعارفهم وحضارتهم ودعاواهم الطويلة العريضة التى يزعمون فيها بأنهم رسل الانسانية ودعاة الحرية ؟

في سنة ١٦٨٥ صدر قانون اسمه (القانون الأسود) لتنظيم أحوال الرقيق في جميع المستعمرات الفرنسية تقرر فيه تخويل الحق المدني والسياسي للاحرار الملونين . يعني أن الملونين تنظر اليهم أوربا على أنهم رقيق لها . ولكن الجمعية الدستورية صادفت صعوبات عنيفة ومعارضات قوية . فلم يعمل بهذا القانون الا فيما

يختص بالاحكام الصارمة التى تنزل بهم ، أما الحقوق التى اراد القانون منحها للملونين فلم تعط لهم . وكان من مواد هذا القانون اذا اعتدى الملونون بأقل اكراه على سادتهم أو ارتكبوا أخف السرقات فجزاؤهم القتل ، وكان عقاب الآبقين فى المرة الأولى والثانية قطع الآذان والكى بالحديد المحمى ، وفى المرة الثالثة القتل .

ومثله القانون الانجليزى الذى صدر فى المستعمرات الانجليزية مثل (جاميكا) و (انتيجوا) (١) وقد كتب «هيليار دوبر توى» فى ملاحظاته على مستعمرة دومنيك البريطانية قال: (ان المرسوم الصادر فى سنة ١٦٨٥ لا يمنع من هلاك الارقاء فى كل يوم بسبب تكبيلهم بالسلاسل ، أو جلدهم بالسياط ، أو ضربهم ضرب التلف والازهاق أو حرقهم عسفا واستبدادا ، وكل هذه الفظائع يرتكبها القوم فى المستعمرة ولا رادع يردعهم حتى أن كل ذى لون أبيض يعامل الاسود بالغلظة والقسوة ولا حرج عليه فى ذلك ، واذا الحق ضررا يعبد من العبيد فالقضاة اعتادوا عدم النظر الى هذا الضرر الا من حيث أنه ينقص ثمن العبد .

وقد أيدت الجمعيات الاستعمارية فى كل زمان هذه القاعدة وهى أنه لا يسوغ للمشرعين أن يتوسطوا ويتدخلوا بالشرائع بين العبد ومولاه ، وكان الاحرار من ذوى الالوان محرومين من وظائف النفوذ والاعتبار بل قد صدرت أوامر متنوعة من نظارات الحكومة بمنع التوسع فى تأويل مواد القانون الأسود ، فمنها ما كان بالنهى عن البحث فى الاوراق المثبتة أن صاحبها من طبقة الاشراف متى تزوج بامرأة امتزج بها دم الارقاء . وكان ذلك الرجل يعد غير جدير بأية وظيفة فى المستعمرات ، بل يعتبر ساقطا من درجة ذوى اللون الأبيض . ومنها ما كانت بتحريم حضور ذوى الالوان الى بلاد فرنسا لطلب العلم ، ومنها ما تضمن عبارات صريحة هذا تعريفها (ان حسن النظام مما يوجب اقلال الصغار والاحتقار المرتبط بالجنس الأسود مهما كانت درجته ومنزلته ، وقد صمم جلالة الملك على ابقاء الحكم الاعتبارى الذى بمقتضاه يحرم الى أبد الآبدين ذوو الالوان وذريتهم من المزايا الخاصة بالجنس الابيض

---

(١) جاميكا . وانتيجوا جزيرتان فى بحر انتيشلبا

يناير سنة ١٧٦٧) ، ومضى الحال على هـــذه الوتيرة حتى قامت الثورة الفرنسية فى سنة ١٨٤٨ ٠

أما فى أمريكا فان الحال فيها لا يختلف عن الحال فى فرنسا وبريطانيا ، فالمولى له حق الملك المطلق على عبده فله بيعه واجارته ورهنه وخزنه واجراء الجرد عليه والمقـــامرة به ، وغير ذلك من التصرفات كأنما هو أثاث ٠٠ ومحتوم على هذا الذى فى حكم الجماد ٠ أن يتقمص شخصية الانسان فيحترم سيده ويحترم عائلة سيده أطفالا ونساء وشيوخا وشبابا ٠ ويطيعهم طاعة لا حد لها ٠

وليس له أن يدافع عن نفسه ، ليس له حق المجىء والذهاب والخروج عن المزرعة الا بتصريح قانونى مستوفيا جميع الشروط المفروضة ، وليس للأرقاء الحق فى أن يجتمع أكثر من سبعة منهم فى الطريق ، والا اعتبروا مخالفين للأوامر ، وينزل بهـم العقاب الشديد ٠ ولأى رجل أبيض الحق فى أن يلقى القبض عليهم ويجلد كل منهم عشرين جلدة ، وقد نص القانون الأسود على أن العبيد لا نفس لهم ولا روح ولا فطانة ولا ذكاء ولا ارادة وأن الحياة لا تدب الا فى أذرعتهم ٠

أرأيت الى أى حد يبلغ الظلم . انهم يجردونه من الروح ومن الفطنة ومن الحيـاة ، ولكنهم يحملون هـــذا المجرد من كل شىء مسئولية من له روح وارادة وفطنة وذكاء وحياة ، فهم يحكمون عليه بالجلد بالسياط وبالموت ، ويلزمونه بشتى الواجبات التى ان قصر فى أدائها نزل به العقاب الاليم ، ويعاقبونه على الجناية والجريمة التى يعفى من ارتكابها البيض ٠ الى غير ذلك من القوانين الجائرة ٠ تلك كانت حالتهم حتى قامت الحرب الاهلية سنة ١٨٦٢ ٠

هذا ما كانت عليه أوربا وأمريكا منذ قرنين ونصف تقريبا ٠

فما هى تطوراتهم التقدمية فى هذا الشأن الآن وبعد مضى قرنين ونصف من الزمان ؟ لانشك انهم تطوروا فى العلوم والمعارف والفنون والاكتشافات والمخترعات ... الخ ولكن نريـد رؤيـة تطورهم فى الاخلاق والانسانية ٠ وفى هذه المشكلة المستعصية ٠

لقد قامت فى هـــذه الفترة الثورة الفرنسية وصدر قانون

بتحريم تجارة الرقيق • وقامت حرب ابراهام لنـكولن فى أمريكا لتحرير الرقيق •• ولا نقول ان كلتا الثورتين لم تكونا جادتين فى تحرير الارقاء • ولكنا نقول ان الثورتين لم تبنيا رغبتهما فى تحرير الرقيق على أساس ثابت ، ولم تنظر الى المشكلة بعمق كمـا فعل الاسلام فى معالجته لهذه المشكلة • كلتا الثورتين تركتـا الرقيق يعانى الاضطهاد والجـوع والبطالة ، وما زال الزنوج فى أمريكا نفسها منبوذين يعاملون من الامريكان معاملة تخجل وجه الانسان وتثقل ضميره ، ولم يزدهم التقدم العلمى والاقتصـادى والتطور الحضارى الذى بلغوه فى القرن العشرين الا قسوة وهمجية وانحطاطا بالنسبة لنظرتهم الى الزنوج الذين يعتبرون اخوانهـم فى الوطن والانسانية • وأوربا مثل أمريكا تماما فى معاملة الزنوج خاصة والملونين بوجه عام •

وكان الأجدر بهؤلاء الذين يتطلعون الى غزو القمر بصواريخهم أن يسلطوا صواريخ المقت الى ضمائرهم لعلها تفيق من غفلتهـا فيرأفوا باخوانهم فى الأرض وشركائهم فى الانسانيـة ويمنحوهم ما منحه الاسلام لهم من حرية واخاء ومساواة • ويعترفوا بآدميتهم ولا يهدروها هذا الاهدار المزرى بسمعتهم كرسل للحضـارة فى القرن العشرين كما يزعمون •

***

ان بريطانيا حينما كانت تحتل الهنـد كانت تفقر الفلاحين وترهقهم بالضرائب وأرباح الربا التى لا تقف عند حد • فاذا عجز الفلاح المسكين عن دفع ما تطلبه منه السلطة الحاكمة المتمثـلة فى القضاء البريطانى ، يحـكم عليه هذا القضاء باغتصاب بنـاته وزوجاته ، واجبارهن على مزاولة البغاء الرسمى • والبريطانيون هم الذين يحددون أجور هذا البغاء الجبرى ، ويستولون عليها حتى يسدد الدين الذى صوروه على المدين •

وكذلك كانت تفعل فى الصين وفى غيرها من المستعمرات حتى انقشع ظلها الكريه عن الهند وغيرها ، واستراحت البلاد التى كانت ترزح تحت نير بريطانيا من الكابوس البغيض الذى كان يجثم على صدور أبنائها •

وهولندا كانت تتخذ من أندونيسيا مزرعة لها ومن أهلهـــ أرقاء يعملون لتوفير الرفاهية والرخاء لأبنـــاء هولندا ، ويعيش الاندونيسـيون فى شظف وارهاق وعمل متواصل . تلهب ظهورهم سياط الحضارة الغربية ، حضارة الحرية والمساواة . حتى تخلصت أندونيسيا من الوحوش التى كانت ترتدى ثياب الآدميين . وها هى ذى أندونيسيا سعيدة بحريتها ، وان كان الثمن الذى دفعته غاليا . وما زال الكنغو يئن تحت وطأة بلجيكا ويرزح فى ســـلاسل وحشيتها وقسوتها . ولكن الفجر قريب البزوغ على أرضها التى تضرجت بدماء أبناء الكنغو الابرياء فى سبيل حريتهم .

وأنت يا فرنسا لماذا تسفكين دماء الاحرار فى الجزائر ؟ وأين ميثاق الثورة التى قام شعبك بها لتحرير الانسانية ؟

أمن التحرير اغتصاب الجزائر والحاق هذا القطر العربى الحر المسلم بأرض فرنسا ؟ أليس هذا هو الاستعباد فى أبشع صـوره والهمجية فى أحط ألوانها ؟ أين ميثاق الحرية يا فرنسا ؟

أما بريطانيا فهى حامية القرصنة واللصوصية ومبدعتها . والا فما لبريطانيا وعمـــان ؟ وما لبريطانيا واليمن ؟ لا تزعمى يا بريطانيا المحافظة على الحقوق فان أهل عمان أحفظ لحقوقهـــم وأدرى بهـــا منك ! وأهل اليمن ليسوا فى حاجة الى تدخلك فى شئونهم ، انهم فى الشرق وأنت فى أقصى الغرب ، أنهـم عرب وأنت سكسونية . ولقد بلوناك يابريطانيـا . فلم نحمـــد لك أمرا . غش وخديعة ، وغدر وخيانة ونهب للأموال ، واستعباد للأنفس واحتقار للآدميين .. ان العالم كله يشهد عليك بأنك أصل بلاء العالم ومصدر شقاء الانسانية . ومثيرة الفتن والحروب .

نهرو يتحدث :

وهذا هو الزعيم الهندى الكبير جواهر لال نهرو يقول عنك يا بريطانيا فى كتابه (لمحات من تاريخ العالم) حينما كنت تحتلين الهند: «اننا نعيش تحت سيطرة آلة ضخمة جشعة تعصر وتسحق الملايين من الهنود . هذه الآلة هى الاستعمار الجديد الذى ولده رأس المال الصناعى . ثم يقول : وقد اتضح لنا عيب هذا النظام الاستعمارى

الرأسمالى فى الهند ، واذا التفتنا الى الصين ومصر وجدنا آلته الضخمة تعصر وتسحق أهلها أيضا » .

ان دول الغرب تزعم أنها تنشر الحضارة فى أقطار البشرية والذى نعرفه أن من يتصدى لمثل هذه الرسالة يسعى لاصلاح الفساد ونشر العدل والاخاء ، وتحرير النفوس والعقول والقلوب من كل ما يخفيها ويقعد بها عن العمل المنتج النافع .

فهل فعل الغربيون ذلك فى جميع البلاد التى نكبت بسلطانهم ؟ . انهم ينشرون فى كل بلد يدخلونه الفساد والانحلال ويشايعون الجهل والجمود والرجعية ، ويناصرون الظلم والاستبداد، ويفرقون بين الأسرة المترابطة ، ويستغلون دماء الاحرار ، ويستعبدون الشعوب ويثيرون النعرات العصبية والطائفية ، ويزرعون الأحقاد ويثيرون الفتن : ولا يتركون البلاد - ان تركوها قسرا أو اختيارا - الا خرابا يبابا مثقلة بالأوزار والمشاكل . ذلك ما صنعوه فى كل بلد وطأته أقدامهم .

وهذا ما يقوله عن انكلترا جواهر لال نهرو زعيم الهند وفيلسوفها وحاكمها : « وقد ساعد الحكم البريطانى - فى الهند - على اثارة الرجعية الدينية ، ومن الغريب أن بريطانيا التى ادعت المسيحية جعلت كلا من الهندوكية والاسلام فى الهند أكثر تطرفا وشدة ، ومن السهل الى حد بعيد فهم ذلك اذا علمنا أن الغزو الخارجى يحاول دائما وضع الدين والثقافة للبلد المغزو موضع المدافع عن نفسه باللجوء الى الرجعية ، فلم يكن هدف بريطانيا الحقيقى تقوية الدين أو التبشير له ، وانما كانت تسعى وراء الكسب المادى ، وكانت حذرة فى عدم تدخلها فى شئون الدين بشكل مفضوح لئلا يتحمس الناس أو يثوروا عليها . وهكذا تحاشت انجلترا حتى مجرد اثارة الشك بأنها تتدخل فى شئون الدين فذهبت فى تشجيعه ، أو بالاحرى ، تشجيع المظاهر الخارجية للدين وكثيرا ما نتج عن ذلك بناء ظاهر الدين واختفاء الجوهر ، ودفع خوف بريطانيا من الشعب المتدين الى التظاهر بأنها تقرهم على خطتهم الدينية ، وبهذا أوقفت انجلترا تيار التقدم والاصلاح » .

وكانت بريطانيا فى الصين تعمل كل ذلك ، وتزيد على هذا

بأن تجبر الصينيين على تعاطى الأفيون ولا تبالى ما يصاب به من هلاك ما دام ذلك يعود عليها بالربح الوفير ، ويمكن لها المقام فى أراضيهم • وقد أصمت ملكة بريطانيا (فكتوريا) أذنيها عندما تلقت شكوى من أمبراطور الصين عن الضرر الذى يصيب شعبه من الأفيون الذى يرغم البريطانيون الشعب الصينى على تعاطيه(١)•

وما تصنعه بريطانيا فى الصين والهند تصنعه فى كل بلد تحل فيه ، ليتيسر لها استعباد الشعوب وانتهاب خيراتها • وجميع دول الغرب تسلك هذا المسلك فى كل بلد نكب بالاستعمار •

وان من أفظع صور الرق فى العصر الحديث ما يحدثنا عنه جواهر لال نهرو فى كتابه لمحات من تاريخ العالم تحت عنوان (نظرة أخيرة حول العالم ص ٤٩٥ وما بعدها) •

يقول جواهر لال نهرو لابنته : « دعينا نتوقف قليلا وننظر حول العالم لنرى ما وضعه الآن فى اليوم السابع عشر من شهر أغسطس من سنة ألف وتسعمائة وثلاث وثلاثين •

فى الهند القى القبض مرة ثانية على غاندى ، وزج به فى سجن (يزقادا) واستؤنف العصيان المدنى ، ولو على نطاق ضيق وسيق زملاؤنا الى السجون • ولى زميل عزيز شجاع اسمه (خانندرا) أول ما التقيت به فى كمبرج منذ ربع قرن ، وقد تركنا بعد أن توفى فى سجون الحكومة البريطانية • ان الحياة تتساوى مع الموت ، ولكن الأعمال العظيمة التى يقوم بها شعب الهند تجعل حياته ذات قيمة كبيرة مستمرة فى طريقها ، يرقد الآن فى السجون والمعتقلات آلاف عديدة من أبناء وبنات الهند المتوقدين حماسة ووطنية مضحين بشبابهم وحيويتهم فى صراعهم ضد النظام الحاضر الذى يستعبد الهند ، وكان يمكن أن يقضى هذا الشباب وتصرف هذه الحيوية فى الاعمال البنائية • فهناك أشياء كثيرة يجب عملها فى هذا العالم • ولكن قبل أن يبدأ البناء (يجب أن يسبقه هدم حتى يسوى الأرض ليقف عليها البناء الجديد) •

---

(١) راجع صفحة (١٢٥) وما بعدها من كتاب نهرو (لمحات من تاريخ العالم) •

فاننا لن نستطيع أن نبنى بنـــاية جميلة فوق جدران كوخ طينية .. ويمكننا أن نتصور ما هى حالة الهند هـــذه الايام اذا عرفنا أنه فى بعض أقسامها مثل (البنغال) تخضع طريقة لباس الناس لأنظمة الحكومة ، وكل من يخالفها يزج به فى السجن . وفى (شتاجرنج) يجب على كل الأولاد وحتى البنات أيضا البالغ عمرهم اثنتى عشرة سنة أو أكثر أن يحملوا بطاقات هوية أينمـا ذهبوا . ولا أدرى ان كان هذا النظام العجيب قد طبـــق فى أى مكان آخر ، فى المانية النازية ، أو فى مناطق الحرب حيث يحتل البلاد جنود الاعداء .. اننا اليوم أمة خاضعة للحكم البريطانى ، وعبر حدودنا الشمالية الغربية يقع جيراننا تحت وطأة الغـــارات الجوية التى تقوم بها الطائرات البريطانية .

أما الهنود فى البلاد الأخرى فقلما يحترمون أو يرحب بهم أحد ، وليس هذا غريبا اذ كيف يحترمون فى الخارج فى الوقت الذى لا يحترمون فى بلادهم (١)؟ انهم يطردون الآن من جنوبى أفريقيا حيث ولدوا وعاشوا ، وحيث عمروا وبنوا بعرق جباههـم بعض أجزاء البلاد مثل « ناتال » .

ان التفريق بينهم وبين الآخرين بسبب اللون ، يضاف اليه الكراهية العنصرية والصراع الاقتصادى قد اجتمعت جميعها لتجعل من هؤلاء الهنود فى جنوبى أفريقيـــا منبوذين . لا بيت لهـم ولا مأوى .

وتصر حكومة جنوب أفريقيا(٢) على أن هؤلاء يجب أن يرحلوا الى أى مكان آخر مثل غينيا البريطانية أو الهند ، وهذا يعنى موتهم جوعا بالتأكيد . ولا يهم هذه الحـــكومة الا أن يرحلوا لا أكثر ولا أقل ..

وفى شرقى أفريقيا ، لعب الهنود دورا عظيما فى بناء كينيا وما يحيط بها من أقطار ، ولكنهم لم يعودوا مرغوبا فيهم هناك .

---

(١) وهذا شأن كل شعب يخضع لحكم الطواغيت .

(٢) حــكومة جنــوبى افريقيــا حكومة متفرعة عن العنصر الانجليزى . وهى ضمن الدومنيون الانجليزى .

لا لأن الافريقيين يعارضون فى بقائهم بل لأن حفنـة من الاوربيين لايريدونهم • وقد استولى هؤلاء على أحسن المنـاطق • ومنعـوا الافريقيين والهنود من امتلاك أية أراض فيها • أما حالة الافريقيين فتعيسة للغاية • منهم الذين كانوا فى الاصل يملكون هذه الاراضى ومنها يستمدون دخلهم • وقد صادرت الحكومة مساحات شاسعة واقطعتها مجـانا للمستعمرين الاوربيين ، فأصبح هؤلاء اقطاعيين كبارا ، لا يطلب منهم دفع ضريبة دخـل أو أيه ضرائب أخرى • ولكن عبء هذه الضرائب يقع بكل ثقله على الافريقيين المساكين(١) ولم يكن من السهل أبدا فرض ضرائب على الافريقى لأنه لم يـكن يملك أى شىء ، ولذلك فرضت الحكومة ضرائب غير مبـاشرة على الحاجيات الضرورية التى لا يستغنى عنها مثل الطحين والمـلابس• فاذا اشترى هذه الأشياء دفع ضريبة كقسم من ثمنهـا • ولكن أغرب ضريبة فرضت عليه هى ضريبة الرءوس على كل ذكر تجاوز عمره ست عشرة سنة ، وعلى جميـع أفراد عائلتـه بمـا فيهـم وأنت تعرفين (يخـاطب ابنته) ان المبدأ الاسـاسى فى فرض الضرائب على الناس يستند الى ما يكسبون أو ما يملكون • ولما لم يكن الافريقى يكسب أو يملك شيئا فقـد فرضت الضريبة على جسده ولكن كيف يتمكن من دفع هذه الضريبة وقدرها اثنا عشر شلنا عن كل شخص فى كل سنة فى الوقت الذى لا يملك فيه أى مال ؟ هنا تكمن قذارة القـانون وتحايله فهو يجبر الافريقى أن يكسب بعض المال بأن يعمـل فى مزارع الاوربيين ، وهى طريقـة لا لكسب النقود فقط ، وانما لاستخدام العمال بأجور مخفضة • وهكذا كان يضطر هؤلاء الافريقيون التعساء أن يسيروا مسافات طويلة قد تبلغ سبعمائة أو ثمانمائة ميل من داخـل مناطقهم الى الساحل حيث توجد هذه المزارع (لا توجد سـكك حديدية فى الداخل البتة • ولكنها توجد لمسافات قصيرة قرب الساحل) •

---

(١) هذا نظام رسل الحضارة فى العصر الحديث•• يغتصبون أرض الناس ويعطونها للدخلاء • ويفرضون الضرائب على المساكين أهل البلاد الذين اغتصبت أراضيهم ثم يتوقحون ويقولون الاسلام دين رجعى لا يصلح لتطور الزمن • وقد رأينا كيف كان حكم الارض فى الاسلام • وبيناه فى كتابنا هذا فليرجع اليه من أراد •

وليكسبوا مالا يدفعونه ضرائب عن أشخاصهم وعائلاتهم

هنالك أشياء كثيرة يمكن التحدث بها عن هــؤلاء الافريقيين المستغلين الفقراء الذين لا يعرفون حتى كيف يسمعون أصــــواتهم للعالم الخارجى ٠

ان قصة شقائهم الطويلة ، وهم يقضون كل حياتهم بتعاسة وصمت ٠ انهم طردوا من أحسن أراضيهم ويعودون الآن ليعملوا فيها أجراءعند الأوربيين الذين أخذوا الارض منهم بالمجان ٠

ويؤلف هؤلاء الاوربيون طبقة شبه اقطاعية فيخمـــدون كل حركة لايريدونها ٠ ولا يحق للافريقيين أن يؤلفوا أية جمعية حتى ولو كانت أغراضها اصلاحية ، كما لايحق لهم أن يجمعوا فيما بينهم أية نقود ٠

وبلغ السخف بالاوربيين أنهم سنوا قانونا منعـــوا فيه الافريقيين من الرقص لان هؤلاء يقلدونهم بهزء وسخرية فى بعض الاحيان ٠ والفلاحون فقراء جدا ولا يحق لهم زراعة البن ،أوالشاى لانهم بذلك ينافسون المزارعين الاوربيين ٠

أعلنت الحكومة البريطانية بشكل رسمى قبل ثلاث سنوات أن الانجليز أوصياء على الافريقيين ، وأنهم لن يسلبوهم أراضيهم فى المستقبل ، ولكن لسوء حظ الأفريقيين اكتشف الذهب فى كينيا فى السنة الماضية ،فنسى الانجليز وعدهم وأسرعوا بالاستيلاء على الاراضى التى اكتشف فيها الذهب،وطردوا أصحابها الأفريقيين منها ، وبدءوا ينقبون عن الذهب ٠

وهكذا تدون ماهى الوعود الانجليزية ؟ انهم يقولون لنــا : ان كل ماعملوه هو لمصلحة الافريقيين ٠ وان هؤلاء سعداء جــدا بضياع أراضيهم ٠

ان هذا الاسلوب الرأسمالى فى استغلال منطقة غنية بالذهب لاسلوب عجيب ٠ فبموجبه يهرع الناس من كل مكان نحو تلك المنطقة ، ويبدأ كل منهم فى التنقيب فاذا عثر على شىء كان من نصيبه٠٠ هذا الاسلوب هو نموذج للرأسمالية ، لان الطريقة المعقولة لاستغلال حقل الذهب هو أن تكون بواسطة الحكومة التى يجب أن

تسيطر عليه ، وتستغله لمنفعة الشعب بأسره ، وهذا نفسه هو ما يعمله الاتحاد السوفيتي الآن في حقول الذهب في ناجكستان وغيرها من الاماكن (١) . »

انتهى كلام نهرو .

وهو قليل من كثير مما تحدث به نهرو في كتابه (لمحات من تاريخ العالم) .

فهل نجد رقا أفظع من هذا الرق ؟ ومتى ؟ في القرن العشرين، وممن ؟ من الذين يزعمون أنهم رسل الحضارة وأنصار الحرية والعدل والرحماء بالانسانية ! من هؤلاء الاوربيين الوقحاء .

ان بريطانيا اغتصبت البوريمى لتستولى على حقول البترول بنفس الاسلوب التي استولت به على حقول الذهب في أفريقيا . وهي نفسها القائمة الآن بضرب اليمن وعمان بالطائرات لتسترق الشعب العربي فيهما وتنهب ثروته .

ان الرق ضربة لازب للنظام الرأسمالي الغربي القائم الآن . ولذلك فان نظام الرق لايمكن أن يزول مادامت أوربا متمسكة بنظامها الاقتصادى الفاسد . وماذا يفيد العالم اذا كان الشعب الانجليزى أو الشعب الفرنسي أو الشعب الهولندى أو البلجيكي مستمتعا بعدالة اجتماعية ومستوى معيشي لا بأس به ؟ انهم انما يبنون مثل هذه العدالة على ظلم واستبداد واسترقاق لشعوب اخرى تنتزع حريتها وتنتهب أرزاقها وتموت جوعا لتعيش أوربا في رفاهية من العيش . أهذه انسانية ؟

ألا بئست الانسانية وبئست الحضارة اذا كانت ترفع من قدر انسان على حساب انسان آخر .

---

(١) ان الاتحاد السوفيتي لم يأت بجديد . فقد قرر الاسلام ذلك لا في حقول الذهب فقط . ولكن في جميع أنواع الثروات سواء اكانت ذهبا أو فضة أو حديدا أو نحاسا او بترولا أو ملحا أو قصديرا أو كبريتا أو غيره ، وقد أبنا في كتابنا هذا ما أمر به الاسلام في مثل هذه الثروات فليراجع في موضعه من هذا الكتاب.

لا يرى البعير سنامه

مثل عربي يقال لمن يعيب غيره ، وفيه نفس العيب ·

ذكرنا بهذا المثل القديم الدارج على ألسنة الحجازيين ماكتبته جريدة المساء المصرية الصادرة بتاريخ ٩ من ربيع أول سنة ١٣٧٩هـ الموافق ١١ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ فى عدد (١٠٨٨) تحت عنوان لورد انجليزى يفضح اتجار فرنسا بالرقيق الاسود فى غرب أفريقيا .

فالانجليز الذين يرتكبون الفظائع التى نقلناها عن نهرو يعيبون على فرنسا اتجارها بالرقيق ·

وهذا شأن اللصوص اذا تنازعوا على الغنيمة فان تنازعهم يظهر فضائحهم ومخازيهم · وهاهم أولاء رسل الحضارة وأنصار الانسانية يرتكبون أفظع مما كان يرتكبه الانسان البدائى فى عصور الظلام والقسوة والهمجية ، فى هذا العصر الذى أخذ الانسان يطمح لسكنى الكواكب ، ويحاول أن يصل اليها ·

والى القراء ماترتكبه فرنسا التى تزعم أن ثورتها كانت ثورة لتقرير حقوق الانسان فى كل مكان · اننا ننقل ماكتبته جريدة المساء نقلا عما نشرته صحيفة بريطانية ·

تقول المساء :

اذا تحدثنا عن تجارة فرنسا فى الرقيق الابيض ·· فلن نستثير دهشة القراء لانهم جميعا يعلمون أن هذه هى طبيعةفرنسا من القديم . . فقد بنى تاريخها علىهذهالتجارة التى مازالترائجة لدرجة أن «جي موليه»يعمل مستشارا قانونيا لاحدى المؤسسات التى تتجر فى الرقيق الأبيض ·

ولكننا سنتحدث عن مأساة خطيرة جدا تتعلق بنا ·· بمصير

شباب ونساء غرب افريقيا ··· التى نكبت بالاستعمار الفرنسى الذى يطبق مبـــادئه القذرة بحذافيرها عليها فى وقت تتطلع فيه للحرية والاستقلال والحياة الكريمة ·

لورد انجليزى يكتب :

ان ما اسوقه فى هذا الصدد لم أكتبه أنا ، وانما كتبـه لورد بريطانى ونشرته صحيفة بريطانيـة ··· كشفت به عن الفضـائح المروعة والارهاب الوحشى الذى يعيش فيه سكان تلك البـلاد وراء ستار حديدى فرضه الاستعمار الغاشم ···

وقـد ذكر اللورد الانجليزى كيف يشـترى الرجـل بـ ٣٨ جنيها ··· وكيف تشترى المرأة بـ ١٥ جنيها ··· وكيف يشترى الطفل بجنيهين اثنين !!

انها صورة حية واقعية عن العملة التى تتعامل بهـا الدول الاستعمارية مع تجار الرقيق الاسود ···

لقد استطاع اللورد « موجام » الدخول فى غرب أفريقيـا ، والتسلل الى معسكرات الرقيق الاسود ، والتحقيق فى التجـارة التى اتسعت بصورة خطيرة··· بل استطاع شراء عبد بـ٣٧ جنيها وعشر شلنات ليطلق سراحه ···

ان لورد « موجام » سيروى القصة كاملة بعد أن سـمحت له السلطات الفرنسية بدخول غرب أفريقيا لانه من اللوردات الذين يمثلون الطبقة الاستعمارية فى بلاده ···

القطعان البشرية :

وتقرير اللورد بعنوان «القطعان البشرية» ، وهو يثير الضمير الانسانى بعد أن يكشف النقاب عن تجارة الرقيق والنخاسة خلال عام ١٩٥٩ ·

وقد بدأ اللورد تقريره بقوله :

فى عصر الذرة والتقدم العلمى الكبير مازال ملايين الافريقيين

يعيشون حياة قطعان الماشية ، يعيشون عبيدا أذلاء لطائفة من المستعمرين وعملائهم ، فيملكهم السيد الابيض روحا وجسدا ، ويحرمهم من كل حقوق الانسان ، ويعرضهم فى السوق مثل الماشية والأغنام تماما …

هذا ما اكتشفه لورد « موجام » فى الصحراء الكبرى عبر أفريقيا الغربية …

واستطرد اللورد فى تقريره يقول :

ان السخرة وتجارة الرقيق وسوق العبيد ما زالت قائمة تحت اشراف السلطات الفرنسية • • فقد ألغت فرنسا السخرة وتجارة الرقيق اسما ، وأطلقت للمستعمرين العنان فى ممارسة الاتجار بالسود فى الصحراء لاستخدامهم فى المشاريع التى بدأت تنفذها بالتعاون مع الدول الاستعمارية الاخرى التى تستغل رؤوس أموالها فى غرب أفريقيا ••

ان هذه الحقائق تعد نقطة سوداء بل عارا يطارد الحكومات الاستعمارية الى الابد •

فى « داكار » :

وأضاف اللورد :

«وسألت ضابطا فرنسيا فى مدينة «دكار» عن النخاسة فنفاها ، ولكنه اعترف بعد ذلك بوجودها بل وباتساع نطاقها ، وفهمت من حديثه أن هذه المدينة بالذات هى مفتاح هذه التجارة كلها ••» •

«واستأجرت صحفيا ودليلا وعددا من الجمال والخيل لاقوم بأكبر مغامرة فى الصحراء •• مغامرة استغرقت شهرين كاملين نفذت خلالهما الى داخل الستار الحديدى الذى ضربه المستعمرون والسادة البيض حول مئات الآلاف من السود رجالا ونساء وأطفالا حتى وصلت الى«تومباكتو » التى تعتبر مفتاح الصحراء كلها •• والتى تضم سرا رهيبا ••• لايعرفه سوى الاوربيين فقط»

«أن الحياة رخيصة جدا فى معسكرات الصحراء ... والسيد الابيض الاوربى وعملاؤه لايرحمون ولا يحجمون عن قتل من يقترب من معسكراتهم محاولا الاتصال بقطعان البشر المحجوزة وراء جدران المعسكرات . »

من وراء المعسكرات :

وأضاف اللورد الى ذلك :

«واستطاع دليلى العثور على شاب حديث السن من السود الذين اطلق سراحهم من أحد المعسكرات بعد أن اشترى حريته بفضل أحد السياح الذين زاروا «تومباكتو» ..

وروى لنا هذا الشاب قصة العبيد والسخرة في الصحراء كاملة .

وسألته عن الاسباب التى تحول دون الاتصال بالسلطات لاطلاق سراحهم ، فقال فى ألم : ان السلطات ألغت تجارة الرقيق الاسود رسميا ، ولكنها للاسف الشديد تمارسها علنا بالتعاون مع تجار الرقيق بقصد تسخير الزنوج فى مشاريعها القائمة بقلب الصحراء » .

وأضاف الشباب : « ان الوسيلة الوحيدة لانقاذ العبد من معسكرات السخرة هى أن يشترى حريته بدفع أربعين جنيها ليشترى نفسه من سيده ، فيطلق سراحه وحده ويستبقى أسرته ليعمل هو حتى يحصل على المبالغ التى يشترى بها باقى أفراد أسرته .. وقد حدث هذا له شخصيا عندما استطاع والده دفع دية الاسرة كلها بفضل مساعدة أحد السياح ...» .

واستطرد اللورد يقول :

«استطاع» «سابا» وهو الشاب الذى تحدثنا اليه .. أن يقدم لنا «عسل زيد» العبد البالغ من العمر ٤٤ عاما وان كان مظهره يدل على أنه تجاوز الخامسة والسبعين ..

قصة دامية :

وقال « عسلى « انه اشترى حريته بمبلغ ٤٠ جنيها ٠

وقلت له : « ان السلطات الفرنسية ألغت تجارة الرقيق منذ ٦٥ عاما ٠٠٠ فقال : ان الالغاء اجراء رسمى محض ولم ينفذ فى أى وقت أو أى مكان ٠ وقد قصد به تغطية ما يدبر لنا فى الخفاء »٠

وقال«عسلى» :« ان العمل شاق جدا فى مشاريع الصحراء التى بدأت منذ ٣٠ عاما تقريبا ، ولا يحصل العبد خلال عمله الا على كميات ضئيلة من الطعام ، الامر الذى تسبب فى موت مئات الآلاف ، وعرض عشرات الآلاف للأمراض الخطيرة ٠٠» ٠

وقال بعد ذلك :« ان عقاب كل متمرد على هذا الظلم هو الضرب بالسياط والطعن بالخناجر » وكشف عن ظهره وصدره فشاهدت ما أثار اشمئزازى ونفورى ، وسألته عن سبب ذلك فقال فى مرارة : « لانى تطاولت بشرب بعض اللبن المخصص لأسيادنا !!» ٠

«هذه قصة أحد العبيد ٠٠ وهى صورة واقعية لما يدور بالمعسكرات فى الخفاء ٠٠ المعسكرات التى ضربت حولها حراسة شديدة ومنع الاجانب من الاقتراب منها ٠٠

هذه قصة «عسلى» أحد السود الذين عاشوا معظم حياتهم فى معسكرات السخرة وتبادله أكثر من صيد من البيض المستعمرين ٠»

الدعارة :

«والآن ننتقل الى قصة أخرى ٠٠ قصة جديدة ٠٠ بطلتها الطفلة «تيجولود » التى تبلغ من العمر ١٦ عاما ٠٠ أمضت ست سنوات منها كبغى للسادة البيض الذين يتبادلونها كالذئاب الوحشية ٠٠ وهى تروى قصتها فتقول :

«بدأت الأنوثة تدب فى جسدى بعد العاشرة وظهرت أولى

علاماتها فى جسمى •• وبدأ سيدى يراقبنى ويمنعنى من الخـروج لأى سبب من السخرة •• وفى أمسية طرحنى على الارض فقـاومت دون جدوى •• وتركنى بعد أن أصبحت امرأة •• ثم أخذ يزورنى يوميا ليغتصبنى ، وبعد ذلك اصطحب شقيقه معه فى أثناء زيارتى، وأخذ عدد من يصطحبهم يزداد كل يوم عن سابقه حتى أصبحت لا أســتطيع الوقوف على قدمى •• وأغمى عـلى مرات ثم مرات •• ومرضت جدا • فتركنى سيدى وأمر بطردى من المعسكــر •• والتقطنى عبد اشترى حريته وعالجنى حتى شفيت وتزوجنى •• وفجأة وجدت سيدى فى دارى يريد الاعتداء على أمام زوجى ••ولم نجد بدا من الهجرة الى المدن البعيدة حتى يتوقف عن مطاردتى » •

هذه قصة من آلاف القصص لما يعانيه الزنوج والسود على أيدى المستعمر من اذلال وسخرة واعتداء وحشى وحرمان من كافة حقوق الانسان • قصة قطعان البشر التى تباع وتشترى فى أفريقيا بمعاونة واشراف سلطات الاستعمار •

الوباء الابيض :

أما فى الكونغو فانه يطلق على البلجيكى (الوباء الأبيض) من شدة ما يلقاه الوطنيون من فتك وهمجية يرتكبها البلجيكيون بدون ما شفقة ولا رحمة •

وان الحيوان ليجد من العطف والمعاملة الحسنة ما يحسدهم عليه الكونغونيون •

ان القصص الدامية التى ترتكب فى كل مكان من المستعمرين، تخرجهم من حظيرة الانسانية وتدخلهم فى عدادالوحوش المفترسة• ومع ذلك فان الاوربيين يزعمون أنهم رسل الحضـــارة فأين هذه الصفحات المظلمة الملوثة بالدماء ونكران الحقوق والجحود بالانسانية التى يمتلىء بها تاريخ الأوربيين فى كل مكان وطئوه وفى نفس العصر الذى نعيش فيه وهو القرن العشرين ؟ وأين هذه الحضارة التى تقوم

على القرصنة واللصوصية والنخاسية والعدوان بكل ألوانه - من الحضارة التى أقامها القرآن ونشرها المسلمون ؟

ان المسلمين - مهما كان انحرافهم عن قرآنهم - لم يكونوا قساة ولا جاحدين لحقوق الانسان ، لأنهم يدينون بالقرآن • فليس لديهم لون مميز على لون ولا جنس مميز على جنس • فالكل فى نظرهم آدميون ، ولكل آدمي الحق فى الحرية والحياة والرزق • وليس لأى آدمى الحق فى استلاب آدمى آخر ، أو استعباده أو التحكم فى بلاده ، وانتهاب خيراتها • أو الحجر على حريته التى منحها له الله •

الكلمة الختامية

تلك صحائف الاسلام الصحيح قد تحدثنا عنها كما نوهنا عن المسلمين المنحرفين تنويها يكفى للدلالة عليهم ، وهـــذه صفحات الغربيين ماثلة أمام أعيننا ، يشـــاهدها أهل الدنيا بأجمعهم ، ويشهدون عليها .

فليس من حق أحد أن يتهم الاســـلام بأنه يستعبد الناس ، أو يستبيح استرقاقهم . أو يشرع الرق فى تشريعاته، وليس لأحد أيضا أن يقول : انه دين قد استنفد أغراضه .. ان العالم ما زال — ولن يزال — محتاجا الى رحمة القرآن وعدله ، وما زالت الدنيا فى حاجة ملحة لأن تستضىء بهديه .

وعلى المسلمين أن يفيئوا الى كتابهم ويستضيئوا بهديه ، وألا يدعوا هـذا الـكتاب الذى بين أيديهم يشكو الى منزله من اهمـاله والصدوف عنه .

وعلى علماء المسلمين المستنيرين أن يهيبـــوا بالمسلمين على تفهم القرآن وتصفية هذهالتفاسير الموروثة وأقوال الرجال المغرضين الذين تصدوا لحشوها بما لا يتفق وروح القرآن .

ان عصور الظلمةوالركود انحرفت كثيرا عنالمعانى الصحيحة والنصوص الصريحـة التى للقرآن وللأحاديث النبـــوية المؤكد ورودها عن صاحب الرسالة . وان على المستنيرين من أبناء هذه الامة أن ينهضوا للتصفية والغربلة ، وتقديم تعاليم القرآن ورسول القرآن تقديما نقيا صافيا منزها من كل انحرافات تلك العصور . وعليهم أن يقفوا وقفة مخلصة لدفع كل هوى أو انحراف أو غرض يبعد المسلمين عن حقيقة دينهـــم . ذلك هو واجب المسلمين وفى مقدمتهم العلماء والحـكام . هذا اذا أرادوا أن يكونوا الأمة الوسط والشهداء على الناس .

ولكن مع الأسف أخذ المسلمون من القرآن حد القطع . ولم

يأخذوا من القرآن التشريع الاقتصادى الذى اذا طبق تطبيقا كاملا فحينذاك يكون القطع لمن يسرق ·

ان الشباب وغير الشباب فى بلادنا استهوتهم حضارة الغرب وفلسفتـه وعلومه · فأصبحوا متجهين اليهـا ، ومن أراد ردهم أو توجيههم الى حضارتهم وقرآنهم وما فى هذا القرآن من توجيـه سديد رشيد سخروا منه وأعرضـوا عنه · واتهمـوه بالرجعية والجمود ·

واذا أردنا أن نقول كلمة الحق فى ذلك لا يسعنا الا أن نقول: انهم معذورون · لأنهم لم يجدوا فى واقعهم ما يغريهم على ذلك ·

لقد تحدثت الى كثير من الشبان المثقفين ومن مختلف الجنسيات المسلمة ، فوجدت فى أقوال كثير منهم كثيرا من وجاهة ما يقولون ·

انهم يقولون : ان الاسـلام يبيح الرقيق · فالمسـلمون يسترقون ويبيحون تجـارة الرقيق فى بلادهم حتى اليوم · فاذا قلت : لا يبيح الاسلام الرق · أجابوا : هذا هو واقع العلماء والحكام المسلمين أفأنت تفهم الاسلام أكثر منهم ؟

ويقولون : ان الاسلام يقطع يد السارق· وتلك قسوة وفظاظة فاذا قلت لهم ان للاسـلام نظاما اجتماعيا واقتصاديا لو طبق كمـا هو فى القرآن وفى أحاديث الرسول لما سرق أحد ، ولما أجرم أحد ، ولو تبينتم نظامه لما وجدتم فى القطع الا منتهى العـدل · قالوا : ذلك هو الواقع أفأنت تفهم النظام الاقتصادى والاجتماعى فى القرآن أكثر من هؤلاء العلمـاء والحـكام الذين يقومون فى بلادهـم بتنفيذ ذلك ؟

ويقولون : ان القرآن رأسمالى يحتكر الارزاق والحـكم ، ويجعلهما من نصيب الأفراد أما الجماهير فليس لهـم حساب فى تشريعاته ·

فاذا قلت لهم : ان للقرآن نظاما لا يرضى بالشيوعية ولا يرضى بالرأسمالية الغربية ، وله نظام خاص به · وخير ما يسـمى به نظامه فى عصرنا هو هـذا النظام الاشتراكى التعاونى ، الذى

لا يسمح للفرد بأن يحتكر الرزق ولا مصادره ، ولن يدع للفرد الاستبداد بالحكم ، فهو يمنع الاحتكار والاكتناز فى الاموال ويدعو الى الشورى فى الحكم • قالوا : ولكن هذا هو واقع المسلمين فى عصور الأمويين والعباسيين والفاطميين وكل الدول التى قامت فى كل بلد اسلامى حتى اليوم • أفأنت تفهم الاسلام أكثر من كل أولئك ؟ وممن تريدنا أن نفهم الاسلام ؟ أليس من المسلمين أنفسهم ، وهذه هى حال المسلمين فى تاريخهم الطويل وفى واقعهم الحاضر الا فى بعض البلاد التى أدخلت على نظمها ما اقتبسته من نظم الغرب •

أما الذين يقولون : ان الاسلام قد استنفد أغراضه ولم يعد أحد بحاجة الى الرجوع اليه • فيقررون أنه دين لفترة من الزمن كانت الظروف العالمية فى حاجة الى التنظيم على أساسه • وقد قام بأداء الدور خير قيام • وانتهى دوره • وتطور العالم ونشأت فيه فلسفات ومذاهب عديدة • وبينها الآن صراع محتدم وستكون الغلبة للمذهب الاصلح والفلسفة الاصح •• وليس فى الاسلام القدرة على الدخول فى هذا الصراع القائم لانه يحمل عناصر رجعية يلفظها العصر الذى نعيش فيه • ولست أدرى ماذا أقول لهؤلاء لأنهم دللوا على انهم لم يقرءوا حرفا واحدا من القرآن أو قرءوا ولكنهم لم يفهموا ، أو فهموا ما علق بالتفاسير المختلفة المنحدرة الينا من عصور الظلمة التى مرت بها أمة المسلمين • ولم تنهض فى العصر الذى نعيش فيه حكومة من المسلمين تستطيع أن تتجرد من كل تقليد ومن كل أثر رجعى وتنظر الى القرآن نظرة مجردة عن الأقاويل والتعلقات والتفاسير المختلفة الا ما كان صالحا منها ، وكذلك تنظر الى السنة نظرة مجردة عن كل ما شابها وشاب روايتها • وتجلو لنا تعاليم القرآن وتشريعاته وما جاء من السنة الصحيحة ، وما ثبت صدوره من اجلاء الصحابة وفقهائهم، وتستعين بما جد فى العالم من معان وفلسفات ومذاهب وتطورات فى كل شىء • وتجعل المصلحة العامة وتقدم الوعى وتطور العالم نصب عينيها فيما تأخذ وما تدع •

وبمثل هذه الحكومة ـ لو نهضت فى بلادنا ـ يستطيع الشباب الافاءة الى دينه وحضارة قومه ، وما نبع من بلاده ، وما نزل من

سمائه من حضارة ورقى وسمو بالانسانية لم تأت به حضارة من الحضارات ، ولم تصل اليه فلسفة من الفلسفات ٠

ان فى ديننا ما يرضى الوجدان والروح والفكر ، انه يرضى عالم الروح وعالم المادة ، ويجعل بينهما ميزانا قويما عادلا بحيث لا يطغى جانب على الجوانب الاخرى فيعطلها ٠

فهل نجد فى عقلاء أمتنا ومفكريها وقادتها من يملأ قلبه الايمان ، وتشيع فى أطرافه الحماسة للقيام بهذا العمل العظيم ؟؟

اعتراض ورد :

اعترض أحدهم على فى تسمية الكتاب ٠ وقال لو اسميته (لارق فى الاسلام) لكان ذلك أشمل ، لان الاسلام جامع للقرآن والسنة وعمل الاسلاف الصالحين ٠

ولكن فات هذا المعترض أن فى القرآن ما يدل على السنة اذ يقول الله تبارك وتعالى : (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ٠ ويقول عن النبى صلى الله عليه وسلم : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى» ٠ فأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ان لم تكن من القرآن نصا فهى من القرآن روحا ومعنى ٠

المراجع

القرآن الكريم

صحيح البخارى

فى ظلال القرآن لسيد قطب

العدالة الاجتماعية لسيد قطب

تفسير النسفى

تفسير الخازن

تفسير ابن كثير

تفسير فريد وجدى

تفسير (عم) للامام محمد عبده

انسان العيون • السيرة الحلبية

اسمى الرسالات للسيد عبد الحميد الخطيب

بلوغ المرام للعسقلانى

سبل السلام للصنعانى

المحلى للامام على بن حزم

الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا

مختارات الاحاديث النبوية لعبد الوهاب عبد اللطيف

خاتم النبيين لمحمد خالد

رياض الصالحين

الاسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز جاويش

الاسلام دين الانسانية الخالد لمحمد عبد المنعم خفاجه

المجتمع الاسلامي كما تصوره سورة النساء لمحمد محمد المدنى

الاسلام المظلوم لابراهيم أبو الخشب

حقوق الانسان فى الاسلام للدكتور على عبد الواحد وافى
قصة الملكية فى العالم للدكتور وافى والدكتور سعفان
حقائق الاسلام وأباطيل خصومه لعباس محمود العقاد
المرأة فى القرآن الكريم لعباس محمود العقاد
الملكية فى الاسلام للسيد أبى النصر أحمد الحسينى
شبهات حول الاسلام لمحمد قطب
بين الدين والحرية لعبد المنعم حسن عزيز
الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام
محرر الرقيق لمحمد حسن عواد
جمهورية أفلاطون ترجمة حنا خباز
حضارة الهند لغوستاف لوبون ترجمة (عادل زعيتر)
ماذا حدث فى التاريخ تأليف (جوردن تشايلد)(ترجمةجورج حداد)
سر احتلال الانجليز لمصر تأليف (بلنت) من كتب اخترنا لك
لمحات من تاريخ العالم لجواهر لال نهرو (مترجم للعربية)
الرق فى الاسلام لأحمد شفيق باشا • ترجمة أحمد زكى باشا • عن الأفرنسية
دائرة معارف البستانى
صحيفة المساء سنة ١٠٨٨

المعاجم

المعجم المفسر
القاموس المحيط
المنجد •

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٧	لتشريف	لتشريع
١٥	٢١	جلبكم	جبلكم
٢٣	٢٠	أن	الذى
٢٩	٧	عنده	عبده
٤٠	٢٦	أنهم	انهم
٤١	١٥	المميمنة	الميمنة
٤٣	٦	ويثبت	ويثيب
٤٣	٢٣	فلك	فك
٤٨	١	أمر	أمير
٤٨	٢	التى مسميات	التى لامسميات
٤٩	٥	نرزقكم واياهم	نرزقهم واياكم
٥٣	٤	للحضارة البادية	للحاضرة والبادية
٥٣	٦	أبناء	أبناءه
٥٣	١٣	والتقى	والتلقى
٦٩	١	هدر	هدرا
٩١	٣١	المكتنزيين	المكتنزين
٩٩	٤	لم	ألم
١١٧	٢٨	للماليك	للمماليك
١٢٥	١	أرد	أراد
١٣٠	١٧	ويكسونهم	ويكسوهم
١٣٥	٢١	لاول الأمر	لأولى الأمر
١٣٧	٣	دولى	قولى
١٤٠	٢٩	وينبغى	وينعى

لارق فى القرآن

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٥	٢	فى قلوبهم	فى قلوبكم
١٤٨	٨	ليبيعوا	ليبيعوهن
١٥٦	٢١	فانكوحهن	فانكحوهن
١٨٢	٢٣	هاذلا	هازلا
١٨٦	٢٥	نكثوا	وان نكثوا
١٨٦	٢٥	فقاتلو الكفر	فقاتلوا أئمة الكفر
١٨٨	٦	يستطر	يستطرد
١٩٣	٩	فلا تستبقى	فلا تسبق
١٩٦	١٧	أن يكون	ان يكونوا
٢٠١	٥	ويكلمه	ويكمله
٢٠٤	٨	الممثلين الذين	المثلين اللذين
٢٠٦	١٦	يقع	يقطع
٢٠٧	١٧	حسن	حس
٢٠٧	٢٠	الطاعة	للطاعة
٢٠٨	٣	بان	بالا
٢٠٨	١٤	يحدث	يحث
٢٠٩	٣٠	تخيفف	تخفيف
٢٢٥	١٤	بما فيهم	بما فيهم من النساء
٢٢٧	١١	التى	الذى
٢٣٣	٢٦	العشرين	العشرون

الدار القومية للطباعة والنشر

هيئة قناة السويس

حركة الناقلات خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢

عبرت القناة خلال الشهر الحالى ٨٧٣ ناقلة مقابل ٧٤٦ ناقلة خلال نفس الشهر من العام الماضى بزيادة قدرها ١٢٧ ناقلة أى بنسبة ١٧٪ ، أما الحمولة الصافية فقد سجلت زيادة قدرها ٢٠٩٧٠٠٠ر٢ طن أى بنسبة ١٨ر٩ ٪ (١٣ر١٩٥ر٠٠٠ طن مقابل ١١ر٠٩٨ر٠٠٠ طن) وهذا دليل على التطور الكبير فى أحجام الناقلات التى تعبر القناة فى الوقت الحاضر .

وبالنسبة لمتوسط الحمولة الصافية للناقلة فقد بلغ ١٥١١٥ طنا فى سبتمبر الحالى مقابل ١٤٨٧٧ طنا فى سبتمبر من العام الماضى .

وبلغ متوسط كميات المواد البترولية على كل ناقلةمحملة ٢٧٠٥٢ طنا مقابل ٢٦٩٠٤ طنا فى سبتمبر ١٩٦١ .

وتمثل الحمولة الصافية للناقلات نسبة قدرها ٧٥٪ من مجموع الحمولة الصافية للسفن التى عبرت القناة خلال هذا الشهر بينما كانت هذه النسبة ٧٤٪ فى سبتمبر الماضى

وبالنسبة لاتجاه العبور فقد عبرت القناة من الشمال الى الجنوب ٤٣٨ ناقلة فى سبتمبر ١٩٦٢ مقابل ٣٧٥ ناقلة فى نفس الشهر من العام الماضى . بزيادة قدرها ٦٣ ناقلة منها ٤٦ ناقلة فارغة (٣٩٩ مقابل ٣٥٣) و ١٧ ناقلةمحملة (٣٩ مقابل ٣٢) .

وزادت الناقلات العابرة شمالا بمقدار ٦٤ ناقلة (٤٣٥ مقابل ٣٧١) وبينما زادت الناقلات المحملة بمقدار ٦٧ ناقلة (٤٢٠ مقابل ٣٥٣) نقصت الناقلات الفارغة بمقدار ثلاث ناقلات (١٥ مقابل ١٨) .

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتبة . روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤ }



العدد ٢١٢ الثمن ١٢